الجمال في القرآن

الدكتور
توحيد الزهيري

الجمال
في
القرآن الكريم

الطبعة الأولى
١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م

رقم الإيداع
٩٦٧٤ / ٢٠١٦

الكود : ٣/٤٨٩

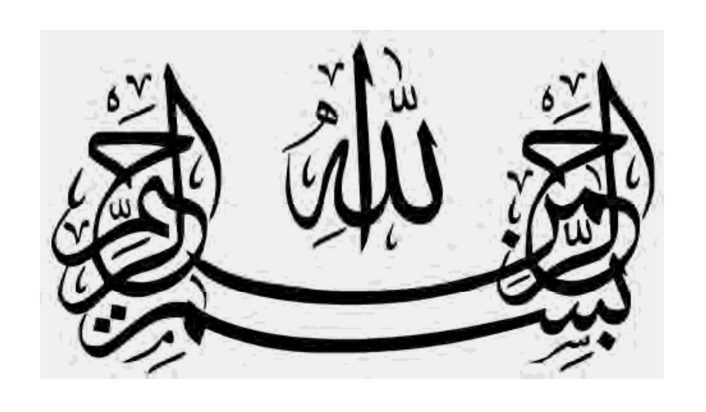
https://www.facebook.com/TawhiedElZohery/

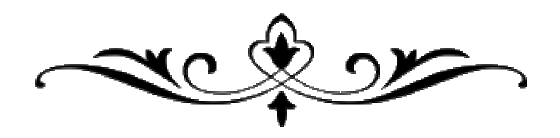
الجمال في القرآن الكريم



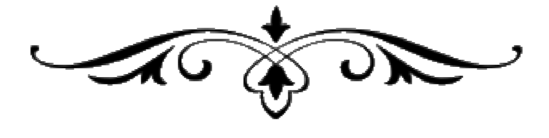
تأليـف

توحيد الزهيري


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة



مقدمة

لا شك فى أن الفكر العربى الإسلامى - قديمًا وحديثًا - يفتقر إلى رؤية خاصة متميزة تُعَرِف الجمال وتفسر الفن؛ حيث إننا لا نجد فى التراث الذى تركه لنا الفلاسفة، الذين ظهروا إبان ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، أية دراسة متعمقة تبحث "الظاهرة الجمالية"، وتحاول الإجابة عن الأسئلة التى تطرحها هذه الظاهرة الإنسانية (ما معنى الجمال؟ وما هو "سر" الشىء الجميل؟ ولماذا مارس الإنسان صناعة الجمال أو إبداع الفنون؟).

ذلك بالرغم من أن الحضارة العربية الإسلامية قد شهدت إنتاج (خلق) آلاف من الأعمال الفنية (الكائنات الجمالية) فى مختلف ميادين الإبداع.

وكذلك بقى الحال فى العصر الحديث؛ فلم يعمد أحد من مفكرينا "المشهورين" إلى كتابة دراسة متعمقة فى الجمال والفن، واقتصرت الكتابات فى ذلك المجال على ترجمة بعض الأعمال الفكرية التى وضعها بعض فلاسفة الغرب، وعرض ومناقشة وتلخيص المذاهب الفكرية الغربية فى مجال فلسفة الجمال والفن، فى كتب كان القصد من تأليفها - غالبًا - تدريسها على طلبة كليات الآداب، بالإضافة إلى بعض الانطباعات والخواطر المتناثرة، التى سنحت لبعض مثقفينا عند مناقشة بعض الأعمال الفنية.

ومن أجل سد هذا النقض بذلت - بجهدى المتواضع - محاولة لتأسيس رؤية (نظرية)، تعرف الجمال وتفسر الفن، وتستمد روحها وملامحها من فهمى الخاص لآيات القرآن الكريم، وكانت الغاية صياغة موقف (مذهب) فكرى أصيل فى ميدان فلسفة الجمال والفن.

وقد لخصت "رؤيتى" فى **الباب الأول** من هذا الكتاب بعنوان: مفهوم الجمال فى القرآن. ويتكون الباب الأول من فصلين:

الأول: الجمال حقيقة كونية وحق إنسانى.

وتكلمنا فيه عن أن الجمال فطرة إنسانية، بمعنى أن الإدراك الجمالى للأشياء جزء لا يتجزأ من معرفة الإنسان بالكون الذى يحيط به.

وبنينا على ذلك أن الفن يعد - فى جوهره - نشاطًا "معرفيًّا" يمارسه الإنسان - منذ أقدم العصور حتى يوم الناس هذا - من أجل استكمال معرفته بالكون؛ إذ يستكشف به الجوانب الخفية (الباطنة)، التى لا يستطيع العقل (العلم) الوصول إليها والتعامل معها.

وانطلقنا من هذا إلى بيان أن فى نفس الإنسان حاسة للجمال تبحث عنه، وتسعى إلى اكتشافه فى الأشياء، وصنعه (خلقه) بتزيين الأشياء، وإبداع كائنات جمالية، هى الأعمال الفنية.

وأفضى بنا ذلك الفهم إلى اعتبار أن الزينة حق أساسى من حقوق الإنسان، احترمته الشريعة الإسلامية، كما نطق بذلك القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة.

وانتهينا إلى أن الجمال حقيقة كونية موضوعية موجودة فى الأشياء، وليس مجرد إحساس نفسى ذاتى، لا وجود له فى الأشياء، كما توهم وادعى الفلاسفة من قبل.

واستنتجنا من ذلك أن الإنسان مزود بثلاث قوى للمعرفة:

١ - العقل (الفؤاد)، المكلف بتحصيل العلم (الحق).

٢ - الضمير أو الحاسة الخلقية، المكلفة بتمييز الخير، والعمل بمقتضاه.

٣ - الوجدان، المنوط به الإحساس بالجمال.

الفصل الثانى: التجربة الجمالية.

وتكلمنا فيه عن أن الجمال كشف للحقيقة الباطنة فى صور الأشياء، وأنه ابتلاء (امتحان أو فتنة بتعبير القرآن) للإنسان. وبينا أن "سر" الشىء الجميل يكمن فى أنه

- بصورته - يرفعنا فوق مستوى "العالم" الذى يدركه العقل، أو يتمكن بلطف من تحريرنا من سجن الحاضر المشهود الذى يتعامل معه العقل النفعى.

وانتقلنا إلى بيان خصائص التجربة الجمالية، وهى: الموضوعية والحرية والإدراك الحسى الخالص والدهشة.

والباب الثانى بعنوان: جمال القرآن، يتكون من خمسة فصول، هى:

الفصل الثالث: القرآن الكريم أجمل الكائنات.

واستنبطنا فيه من فهم الآيات أن القرآن الكريم هو تجلى الله لعباده فى الدنيا؛ ومن ثم فهو المثل الأعلى للجمال فى ميدان التعبير باللغة العربية؛ باعتباره التعبير عن الذات الأعلى ﷻ.

ولقد قامت جميع الكتابات التى أعطيت عنوان "إعجاز القرآن" منذ نزل على النبى محمد ﷺ فى مطلع القرن السابع الميلادى (المسيحى) حتى يوم الناس هذا، على دراسة القرآن باعتباره "نصًّا مكتوبًا" باللغة العربية.

وقام بهذه الأبحاث - عبر التاريخ - مسلمون مؤمنون بأن القرآن الكريم كلام الله ﷻ، أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ، وكافرون منكرون لنبوة محمد ﷺ؛ فالفريقان - المؤمنون والكافرون على السوآء - لم يكن أمامهم من سبيل إلا التأمل والتدبر فى القرآن باعتباره نصًّا مكتوبًا - أمام أعينهم وعقولهم - باللغة العربية.

وقد درسه كل واحد منهم بغرض أو غاية تخصه؛ فالمؤمن يطلب بدراسة النص رؤية "المعجزة التى تحدى بها الله ﷻ حين أمر نبيه ﷺ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1].

فقوله ﷻ: ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ يعنى: بكلام يشبه هذا القرآن، أو بحديث يماثل هذا القرآن.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

وغنى عن البيان أن التحدى الإلهى يتعلق بإنتاج كلمات مكتوبة باللغة العربية، أو ألفاظ منطوقة مسموعة باللسان العربي، يمكن مقارنتها وموازنتها بنص مقابل (مناظر) من القرآن الكريم، ويتم الاحتكام إلى المعايير البلاغية، أو مقاييس النقد التى كان العرب يرتضونها للحكم على جودة أو بلاغة الكلام؛ ومن ثم يمكن الوصول إلى "الحكم الموضوعى": أىّ الكلامين أو النصين أفضل أو أعلى على سلم البلاغة أو الجمال؟

وإلا فلا معنى للتحدى الإلهى المعلن فى القرآن المجيد، والذى كان ردًّا على تبجح الكفار عندما زعموا قدرتهم على الإتيان ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾؟!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٩٣﴾﴾ [1].

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴿٩٣﴾﴾: من ادعى بلسانه قدرته على قول كلام يشبه هذا القرآن الذى أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ فى البلاغة؛ أى طبقًا للمعايير أو المقاييس الفنية التى يُحكَم بها على جودة وجمال النصوص أو الأقوال.

ووصف القرآن المجيد دعوى الكفار بقوله:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [2].

لقد أحسوا وأدركوا بلاغة (جمال) النص القرآنى، واعتبروه المثل الأعلى أو النموذج الذى يجب على المتكلمين البلغاء أن يحتذوه وأن يحاكوه، وادعوا قدرتهم على قول مثله (شبيهه) لو اختاروا بأن يقوموا بهذه المحاولة.

---

(١) سورة الأنعام: من الآية ٩٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣١.

وادعوا أن مضمون (معنى) القرآن المجيد لا يخرج عن كونه محاكاة، أى إعادة صياغة للقصص الخرافية التى ابتدعتها الأمم السابقة وتناقلتها الأجيال.

فقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ حكم منهم على مضمون (معنى) القرآن الكريم، يعبر عن كفرهم به، أى إنكارهم أنه وحى من الله ﷻ حمل رسالته إلى عباده.

أما ادعاؤهم قدرتهم على قول "مثله"، فيعبر عن إعجابهم البالغ بأسلوبه، حتى كان أقصى طموحهم أن يقولوا مثله؛ فلم يجرأوا على قول: لو نشاء لقلنا "أفضل" من هذا، أو أبلغ (أحسن) من هذا، مقرين بأن القرآن هو أبلغ (أحسن) كلام قيل باللغة العربية؛ فليس بوسع أحد أن يقول أفضل منه.

ومعنى هذا أن القرآن الكريم قد حقق - فى تقديرهم - جميع "الشروط" التى يبحثون عنها عند دراسة بلاغة أى نص مكتوب أو منطوق باللغة العربية؛ ولذلك فهو يعد - بموجب الحكم الموضوعى - المثل الأعلى لجمال التعبير باللسان العربى.

وقد عبر الله ﷻ عن هذا المعنى بنفسه، حين قال:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [1].

﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾: أحسن الكلام.

ولفظ ﴿أَحْسَنَ﴾: أفعل تفضيل من "حسن"، فهو يدل على وجود مقارنة وموازنة بينه وبين غيره من الحديث (الكلام) فى مضمار (الحُسن).

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

و(الحُسن) هو الجمال المشهود، أى الجمال حين يتحقق شهوده وتذوقه، نقول امـرأة حسناء أو رجل حسن، حين نتطلع ونمعن النظر إلى أى منهمـا، فنكتـشف ونتـذوق بوجداننا الجمال الكامن فيهما.

إذن، فقد دعانا الله ﷻ فى هذه الآية إلى مقارنة وموازنـة حديثـه - الذى هـو هـذا القرآن - بحديث (كلام) غيره من الخلـق؛ لنكتـشف ونتـذوق - عـبر التجربـة - أن حديث (كلام) الله ﷻ ﴿أَحْسَنَ﴾: (أجمل) من حديث غيره من الخلق، ونعلم بالتأمل والدراسة، ونعرف عبر خوض التجربة الجمالية - أن هذا القرآن هو أحسن الحديث.

وهذا ما فعله كل الباحثين فى ميدان "بلاغة القرآن الكـريم" منـذ نـزل على النـبى محمد ﷺ حتى يوم الناس هذا؛ حيث وضعوا القرآن الكريم تحت منظار التأمل والنقد الجمالى (البلاغى)؛ ليكتشفوا عبر التجربة، وبحكم موضوعى أنه "أحـسن الحـديث" أو المثل الأعلى فى التعبير (الكلام) باللسان العربى.

وإلا فماذا فعل عبد القاهر الجرجانى فى كتابه الفذ "دلائل الإعجاز" [(١)]، ومصطفى صادق الرافعى فى كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبويـة" [(٢)]، وسـيد قطـب فى كتابـه "التصوير الفنى فى القرآن" [(٣)]، والأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز فى كتابـه "النبـأ العظيم - نظرات جديدة فى القرآن" [(٤)]، والدكتور/ تمـام حـسان فى كتابـه "البيـان فى روائع القرآن .. دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآنى" [(٥)]، وغيرهم - قـديمًا وحـديثًا - الذين تناولوا بلاغة القرآن التى تعنى الجانب الجمالى (الفنى) فى التعبير القرآنى؛ بغية

(١) نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن سلسلة "مكتبة الأسرة" سنة ٢٠٠٠م.

(٢) نشرته دار الفكر العربى فى طبعته الثامنة، وكتب مقدمة الكتاب الزعيم سعد باشا زغلول.

(٣) نشرته دار المعارف، وأعادت طبعه دار الشروق، وكانت الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٤١٣ هـ= ١٩٩٣م.

(٤) نشرته دار القلم بالقاهرة، وكانت الطبعة الثامنة عام ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

(٥) نشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن سلـسلة "مكتبـة الأسرة = عام ٢٠٠٣م"، ولنتأمـل فى العنـوان الفرعى لهذا الكتاب: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآنى؛ فهو كافٍ جدًّا للتعبير عن قصدنا.

اكتشاف المعجزة الأسلوبية التى تحدى بها الله ﷻ الإنس والجن فى أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى جماله الفريد؟!

لقد وضع كل هؤلاء الباحثين "المسلمين المؤمنين" القرآن الكريم تحت منظار البحث الجمالى النقدى، المستند إلى المقاييس الفنية، باعتباره نصًّا بديعًا مكتوبًا باللغة العربية.

فعلوا ذلك من أجل تحقيق "المعجزة الإلهية" التى اعتبرت البرهان الصادق على نبوة محمد ﷺ؛ ليؤكدوا "علو" أسلوب القرآن الكريم على غيره من كلام البشر.

ومن ثم فلم يكن أمامهم من مفر من مقارنته وموازنته بكلام البشر. كان هذا ما يقتضيه تأسيس "الإيمان" على أدلة يقبلها العقل والوجدان (الذوق)؛ من أجل أن يسموا الإيمان "التصديق بالخبر" إلى مرتبة علم اليقين.

وكذلك صنع كفار العرب الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ، أى ألوهية القرآن الكريم، ولكنهم لم يجرأوا على إنكار بلاغته.

وكذلك صنع كل "العلماء المستشرقين" المستندين إلى خلفيات ثقافية مختلفة، ولم يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ، ولم يصدقوا أبدًا أن القرآن الكريم وحى من الله ﷻ، نزله على قلب نبيه.

إنهم جميعًا درسوا القرآن الكريم باعتباره نصًّا أدبيًّا أبدعه شاعر عربى حكيم. وكانت بغيتهم - انطلاقًا من عقيدتهم - اكتشاف الأخطاء والعيوب التى تثبت "بشرية" القرآن المجيد؛ ولذلك أثاروا عواصف من الشبهات حول النص القرآنى، ويمكن للقارئ أن يطالع كتاب الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى "دفاع عن القرآن ضد منتقديه"[(١)].

لقد عكفوا على دراسة النص القرآنى باعتباره نصًّا أدبيًّا، منكرين ألوهيته، أعنى أصله المقدس، ولكنهم جميعًا أعلنوا سمو بلاغته أو علو أسلوبه.

---

(١) أعادت نشره مجلة "الأزهر"، كملحق لعددها الصادر فى شهر رجب عام ١٤٣٦هـ= ٢٠١٥م.

فكان موقفهم هـذا يـشبه رأى كفـار العـرب مـن قـريش، الذيـن رفـضوا رسـالة (مضمون) القرآن الكريم، ولكنهم آمنوا - إن صح التعبير - ببلاغته وجماله [١].

ولذلك لا نجد فرقًا جوهريًّا بين رأى الوليد بن المغيرة عندما استرق السمع للقرآن، وبـين رأى سـير هـاملتون ألكـسندر جيـب، إمـام المستـشرقين الإنجلـيز فى القـرن العشرين.

فقد مدح الوليد بن المغيرة القرآن الكريم مدحًا بليغًا، معبرًا عـن تـأثرة بأسـلوبه الفريد المدهش، رغم أنه عاش كافرًا ومات كافرًا بالقرآن باعتباره وحيًا من الله ﷻ.

ويقول سير هاملتون ألكسندر جيب: "والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بـشكل أساسى، كما هى الحال بالنسبة للشعر الرفيع.

ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يعبر عـن صوره وأمثاله؛ لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طـويلًا قبـل أن ينبثق المعنى للقارئ.

والقرآن كذلك له جمال ونظم بديع لا يمكن تحديدهما؛ لأنهما بـسحرهما أفـكار الشخص الذى يصغى إلى القرآن لتلقى تعاليمه.

ولا شك أن تأويل (يعنى ترجمة) كلمات القرآن إلى لغـة أخـرى لا يمكـن إلا أن يشوهها، ويحول الذهب النقى إلى فخار" [٢].

وتنقلنا كلمات سير هاملتون ألكسندر جيب إلى الفصل الرابع من كتابنا بعنـوان: موسيقى القرآن؛ ذلك لأن اتهامه للقرآن بأنه نوع من "الشعر الرفيع (عالى المستوى)"، ليس جديدًا، ولا وقفًا عليه؛ لأن "العرب" - الذين كفروا بنبـوة محمـد ﷺ - وصـفوا القرآن الكريم عندما استمعوا إلى النبى ﷺ وهو يتلوه عليهم بأنه شعر، فقالوا:

---

(١) انظر الفصل الأول من كتابى "القرآن معجـزة كل العـصور"، مـن منـشورات دار الـشعب بالقـاهرة، عام ١٤٢٤هـ = ٢٠٠١م.

(٢) المصدر نفسه.

﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[(١)].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [(٢)].

وتساءل متعجبًا ومنكرًا عليهم عنادهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [(٣)].

وأولئك العرب كانوا أعلم الناس بالشعر، وكان الشعر عشقهم الأكبر وفخرهم الأعظم. ولذلك فعندما يتهمون محمدًا ﷺ - بكفرهم - بأنه شاعر، فمعنى ذلك بكل وضوح أن القرآن الكريم قد أطعم وجدانهم طعم الشعر، بمعنى أنه قد أذاق حاسة الجمال الباطنة فى نفوسهم طعم الشعر، وإلا فما معنى اتهامهم؟!

والفرق الجوهرى، أو فيصل التفرقة بين الشعر والنثر هو الموسيقى التى قال عنها القدماء "النظم"، والذى كان يعنى عندهم الوزن والقافية.

ذلك أن الشاعر - بخلاف الناثر - يتعامل مع الألفاظ ليس فقط بدلالتها على المعانى، بل أيضًا بأصواتها، أعنى بتأثيرها السمعى على الوجدان عبر الأذن. ولذلك فهو يحرص على إخراج كلمات قصيدته فى "أوزان" صوتية مختارة؛ أو أوانٍ سمعية إيقاعية؛ ليشبع حاسة الجمال السمعى المتعطشة لتذوق الموسيقى أو النغم.

والمستمع للقرآن الكريم، وهو يتلى عليه من قارئ يجيد أو يجود التلاوة، لابد أن يلحظ الحرص الشديد على إخراج كلمات القرآن المجيد فى نسق (نظام) صوتى (سمعى) خاص؛ ليجذب الأسماع، ويطعم حاسة الجمال الطعم الذى يقدمه لها الشعر الرفيع؛ لذلك اتهم كفار العرب - البلغاء العاشقين للشعر - القرآن الكريم أنه شعر.

---

(١) سورة الأنبياء: من الآية (٥).

(٢) سورة الصافات: الآية (٣٦).

(٣) سورة الطور: الآية (٣٠).

وهذا التأثير السمعى (الصوتى) للقرآن المجيد، قد أجمع عليه كل من "استمع" للقرآن مرتلًا ومجودًا، سواء أكان عربيًّا أو أعجميًّا، أو كان مؤمنًا أو كافرًا، فهذه حقيقة "جمالية" موضوعية، لا علاقة لها بالموقف الدينى للمستمع، أعنى لا علاقة لها بالعقيدة الدينية لجمهور المستمعين.

يقول روم لاندو، وهو نحات وناقد إنجليزى: "إن سماع السور تتلى فى الأصل العربى كثيرًا ما يخلف فى نفس المرء تأثيرًا بليغًا" (١).

ولذلك تكلم كل الباحثين القدماء فى بلاغة القرآن عن "نظم القرآن"، كما كانوا يتحدثون عن "نظم الشعر".

وتكلم الأستاذ الدكتور شوقى ضيف - أستاذ الأدب العربى - عن فواصل الآيات، وهى الكلمات التى توضع فى آخر الآيات القرآنية، والتى تقوم فى الآية مقام القافية فى نهاية بيت الشعر، وأحكمت مع الآيات إحكامًا "إيقاعًا"، بحيث تتسق "نغميًّا" مع سياق الآية (٢).

ويتحدث الأستاذ الدكتور / عبد الجواد محمد المحص - أستاذ الأدب الإسلامى والدراسات النقدية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية - عن النظام الصوتى المعجز فى القرآن الكريم، فيقول: "ما لا شك فيه أن البعد الصوتى فى القرآن الكريم من أبرز معالم الجمال فيه؛ بما يوفره للفظ (بحروفه) وللآيات (بكلماتها) من جمال "موسيقى"، يحقق جوًّا ثريًّا بالنغم، ويعين على التأثير المعنوى والنفسى المراد (٣). بقى أن نقول للدكتور المحص وللقارئ العزيز أن "النظام الصوتى" لا يعنى - بكل بساطة ووضوح - إلا الموسيقى؛ لأن الموسيقى هى تنظيم الأصوات.

---

(١) انظر كتابنا: "القرآن معجزة كل العصور"، الفصل الأول.

(٢) انظر كتاب "معجزات القرآن" للأستاذ الدكتور/ شوقى ضيف، ص ٥٣.

(٣) انظر كتاب "الجمال فى القرآن الكريم .. مفهومه ومجالاته"، للأستاذ الدكتور/ عبد الجواد محمد المحص، ص١١.

ولماذا نسعى وراء كلمات الباحثين فى بلاغة القرآن الكريم، وقد أقر وصرح رسول الله نفسه ﷺ بالوجه الموسيقى للقرآن، حين مر على أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه، فوجده يتلو القرآن الكريم، وأعجبته طريقة تلاوته الجميلة، فقال له: "يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير داوود" (١).

هل نحتاج إلى بيان أن المزمار آلة من آلات الموسيقى التى تعزف، والتى قد تصاحب الغناء، أى النطق بالألفاظ على نحو موسيقى يخاطب الوجدان الإنسانى، ويلبى حاسة الجمال المتعطشة لتذوقه؟!

ومن المعلوم أن نبى الله داوود عليه السلام قد عبر عن مناجاته وحبه لله سبحانه وتعالى فى مقطوعات شعرية أو قصائد، وكان يقوم بغنائها مستعملًا الآلات الموسيقية، وقد دونت وجمعت تلك القصائد فيما يسمى بسفر المزامير بكتاب "العهد القديم".

ثم قال النبى محمد ﷺ: "ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به" (٢) ..

"ليس منا من لم يتغن بالقرآن" (٣) ..

والمعنى: ما استمع الله لكائن قدر استماعه لنبى يتلو القرآن بصوت عال مسموع، يجود النطق به على نحو يطرب الوجدان؛ إذ يذيق حاسة الجمال ما تشتهى. والمقصود أنه يضبط مخارج الألفاظ، ويلون (ينوع) طرق النطق بها، أى فى كلمة واحدة ينظم الأصوات، وتنظيم الأصوات هو الموسيقى. والإذن أو الاستماع فى الحديث النبوى الشريف كناية عن الحب والرضى.

ولذلك قال: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن"، موصيًا المؤمن الصادق بالتغنى بالقرآن، أى تلاوته على نسق موسيقى. وعلينا أن ننتبه إلى أن الكبار من قراء القرآن

---

(١) الحديث رقم (٧٨٣١) فى كتاب "صحيح الجامع الصغير وزيادته"، الفتح الكبير للألبانى.
(٢) الحديث رقم (٥٥٢٥) فى المصدر نفسه.
(٣) الحديث رقم (٥٤٤٢) فى المصدر نفسه.

الكريم، الذين حازوا شهرة واسعة محليًّا (فى مصر) وعالميًّا (فى سائر أنحاء العالم)، ينخرطون فى بداية حياتهم المهنية فى تعلم مقامات الموسيقى العربية، والتدرب عليها على نحو منهجى منظم؛ من أجل أن يتمكنوا من تحقيق الغاية الشرعية (الدينية)، ألا وهى الغناء بالقرآن.

ألا ينبغى أن نسأل أنفسنا: كيف استمع النبى محمد ﷺ إلى داوود عليه السلام وهو يغنى بمزاميره، وقد عاش ومات داوود عليه السلام قبل ولادة محمد من بطن أمه آمنة بنت وهب بما يقارب الألفين من الأعوام؟!

وانتقلنا فى الفصل الخامس - بعنوان "المجاز، حقيقة المجاز مجاز الحقيقة" - إلى بيان أن الأشياء المخلوقة تعد رموزًا أو إشارات إلى حقائق أكبر من صورتها المشهودة، فإنها آيات دلل بها الخالق سبحانه وتعالى على نفسه، وكشف بها عن غيبه، وأن الحقيقة المطلقة الكاملة لا يمكن التعبير عنها بلغة بشرية؛ ومن ثم صار حتمًا مقضيًّا اللجوء إلى المجاز، أعنى اللغة المجازية (البلاغية)؛ من أجل اجتياز الحقيقة عتبة الخروج إلى حيز الشهود فى لغة مفهومة للبشر.

وهذا هو تفسير عنوان الباب.

وقد امتلأت كل كتب تفسير القرآن، والأبحاث التى خصصت لدراسة بلاغته بالحديث عن اللغة المجازية، أو الصور البلاغية التى نضح بها النص القرآنى البديع.

واكتفى السابقون بالإشارة إلى ذلك، والدلالة به على بلاغة لغة القرآن الكريم التى "زينتها" تلك الصور البلاغية؛ من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز مرسل ... إلخ. وبيان "علو" البلاغة القرآنية على بلاغة غيره من كلام البشر.

أما الجديد الذى حمله هذا الكتاب، فهو بيان الحقائق العلمية والدينية (الغيبية) بالغة العمق التى أشارت إليها تلك الصور البلاغية؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى لم يستعمل لغة المجاز من أجل تزيين (تجميل) كلامه فحسب، بل أيضًا للإشارة إلى الحقائق الكامنة وراء الصور البلاغية، كما تكمن آيات الله سبحانه وتعالى فى الأشياء.

وفى الفصل السادس بعنوان: أحسن القصص، بينا أن الحق والجمـال لا ينفـصلان فى القصص القرآنى؛ حيث إن الله ﷻ المتكلم بهذا القرآن قد أحاط بكل شىء علمًا، ومن ثم فإنه لا يحتاج إلى اختراع أو تخيل أحداث لم تقع من أجل إحـكام بنـاء قـصة جميلة، بل إنه ﷻ يختار من بحـر علمـه الواسـع الذى يحـيط بكـل شىء قلـيلًا مـن المعلومات لديه؛ كى يشيد بها القصص التى يخاطب بها، ليس فقط حاسة الجمال عنـد الإنسان، بل أيضًا عقله وضميره الخلقى.

وبينا أن القرآن الكريم قد تميز بأصالة فريدة تميزه عن أسفار التوراة والأناجيـل، التى تناولت قصص الأنبياء السابقين نفسها.

واعتبرنا أن سورة يوسف التى حملت قصة هـذا النـبى العظـيم عليه السلام هى التحـدى الإلهى لكتاب الرواية والقصة على مر العصور؛ لأنها فى تـسع وتـسعين جملـة (آيـة)، أقامت بناء رواية هائلة، تناولت كافة أوجه الـصراع البـشرى فى هـذه الحيـاة الدنيـا، ورسمت ملامح دقيقة لعدد كبير من الشخصيات الرئيسة والفرعية.

ووقفنا عند الدروس الـتى تقـدمها هـذه الـسورة لكتـاب القـصة والروايـة؛ لـكى يستفيدوا بها فى إحكام بناء أعمالهم الفنية.

وانتقلنا فى الفصل السابع والأخـير إلى مناقـشة بنـاء الـنص القـرآنى، الذى تفـرد بإبداع وأصالة، فلم يسبقه ولم يلحقه مثيل، ولا يقدر أحد على محاكاته.

وقد حير بناء النص القرآنى العرب القدماء، فقالوا عنه "أضغاث أحـلام"، يعنـون أنه "أشتات رؤى"، تتوارد على النبى ﷺ، فيقوم بالتعبير عنها كيفمـا اتفـق، فـلا يوجـد رابط عقلى يضبط سياقها وتسلـسلها، كمـا لا توجـد علاقـة منطقيـة بـين مـشاهد الأحلام.

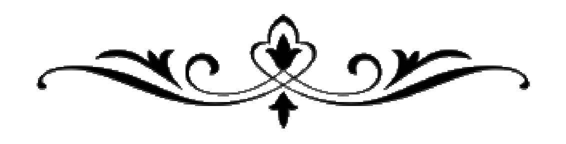
وهو الاتهـام نفـسه الذى صـوبه المستـشرقون إلى القـرآن الكـريم؛ لأنهـم كانـوا يقيسونه على أسفار التوراة والأناجيل، يريدون أن يروا فيه صـورة مكـررة مـن تلـك الكتب.

وقد أخطأ بعض مفكرينا حينما أرادوا أن يدفعوا عن القرآن الكريم ذلك الاتهام، فزعموا أن فى سور القرآن "وحدة موضوعية"، فبينا خطأ ذلك الاتهام وهذا الدفاع، وانتهينا إلى أن بين آيات القرآن فى تسلسلها روابط صوتية (سمعية) ومعنوية (فكرية) كثيرة، تتطلب تأملًا عميقًا وتدبرًا طويلًا لاكتشافها، ومن ثم فإن الدراسة العميقة للسياق القرآنى تثمر الحكمة فى قلب المتلقى المنصت، وبذلك تكون حكمة البناء فى النص القرآنى هى بناء الحكمة فى قلب القارئ.

وهذا هو تفسير عنوان الباب.

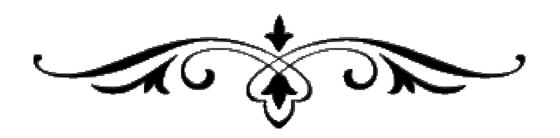
ويتضح من هذا التقديم أن القرآن الكريم هو آية الله الكبرى، وهذا ما سنتناوله فى التمهيد التالى.

❊ ❊ ❊



تمهيد

القرآن آية الله الكبرى



تمهيد

عندما خرج النبي محمد ﷺ إلى قومه برسالة الله، وأسمعهم القرآن، وأبلغهم أنه رسول الله إليهم، جاءهم بشيرًا ونذيرًا بين يدى عذاب شديد - فإن صناديد قريش رفضوا الاستماع إلى القرآن، وأنكروا عليه دعواه.

وقد وصف القرآن حالهم معه، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ (١).

يبين انصراف الكافرين عن الإصغاء إلى القرآن الكريم، وتبادلهم الهمس فيما بينهم – بعيدًا عن النبى والمؤمنين به – إنه ليس إلا رجلًا يشبههم فى كل شىء، فكيف يزعم أن الله خالق السموات والأرض يكلمه هو وحده من دونهم جميعًا؟! هل يمكن أن يقبل هذا الزعم عقلاء لهم عيون فى رءوسهم؟! هل يمكن أن ينخدع بالسحر إلا الذين فقدوا القدرة على رؤية الأشياء على حقيقتها؟!

كانوا يشعرون بالتأثير الطاغى للقرآن على نفوسهم، وقدرته الفائقة على النفاذ والسيطرة على قلوبهم، إن أعطوه أذنًا صاغية وفؤادًا منتبهًا متحفزًا للوصول إلى الحقيقة؛ ولذلك سموا تأثيره على المؤمنين به "سحرًا"، فالمؤمن فى نظرهم مسحور

---

(١) الأنبياء: الآيتان (٢-٣).

سمى الوحى "ذكرا"، لأنه بمثابة توجه من رحمة الله إلى عباده؛ ولأنه تذكير من الله لعباده بالعلم القديم الذى حصلوا عليه قبل خروجهم إلى الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا، بولادتهم من الأرحام. ووصفه بأنه "مُحْدَث"، أى مُجَدد للإشارة إلى ذلك الوحى القديم الذى نسيته الناس بالدخول فى الدنيا، فجاء وحى أى ذكر الله إلى الأنبياء فى هذه الحياة؛ ليُحَدِّث (يُجَدِّد) ذلك الوحى القديم المدفون فى القلوب، مثل البذور فى التراب.

مغلوب، قد سلبه القرآن عقله وإرادته، فقالوا لبعضهم - منزهين أنفسهم عن الوقوع فى قبضة ذلك السحر: ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾؟! ولذلك قرروا فيما بينهم أن يرفضوا الاستماع إلى القرآن.

وعندما يخبرهم بما تناجوا به سرًّا فيما بينهم، فقد أعلنهم باطلاع المتكلم به على ما فى نفوسهم. فأين يذهبون؟! تواصوا برفض الاستماع إلى القرآن؛ حتى لا يغلبهم القرآن!! ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (١).

ليس أمامهم من سبيل حتى لا يقعوا تحت تأثير القرآن – عند تلاوته عليهم – إلا الصياح والصراخ بكلام فارغ، يتبادلونه فيما بينهم؛ حتى يسدوا الطرق أمام القرآن فلا يصل إلى أسماعهم!!

فإن أصر الرسول ﷺ والمؤمنون على إسماعهم القرآن، لم يجدوا مفرًّا من إسكاتهم بالقوة التى قد تبلغ حد القتل، لكيلا يصل القرآن إلى أسماعهم ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾(٢).

"المُنكَر": الظلم الذى يدفعهم إلى البطش بالذين يتلون عليهم آيات القرآن، التى تكشف ما فى بواطن نفوسهم، وتتوعدهم بسوء المصير فى الدنيا والآخرة. ويبين الله لهم أن هناك ما هو أسوأ وأشد عليهم من سماع آيات العذاب، وهو الوقوع فى عذاب النار التى تحدثت عنها الآيات. إذن فقد كانوا يعانون ألمًا شديدًا من الاستماع إلى القرآن، الذى ينفذ ببلاغته إلى أعماق نفوسهم، فيقدم بنفسه دليل صدقه، فتمتلئ

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٢.

قلوبهم فزعًا مما ينتظرهم، فيندفعون لإسكات هذا "الصوت" المخيف الذى يملؤهم رعبًا.

(أ) الهروب من الإيمان بطلب المعجزات:

وصارت حجتهم لتبرير كفرهم بالقرآن – أمام عقولهم – هى فقد الأدلة التى تثبت صدق الرسول ﷺ فى دعوى نبوته. إنهم يريدون آيات محسوسة، أى معجزات تبرهن على أن محمدًا مرسل من ربه. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (١).

فبين الله ﷻ أَنَّ طلب الآيات ليس إلا تبريرًا للكفر ورفض الرسالة، وأنه مهما جاءتهم الآيات فلن يؤمنوا؛ لأنهم لا يريدون الإيمان، ويرفضون رسالة الله إليهم، مهما كان فى موقفهم من تناقض مع مقتضى العقل، الذى يزعمون أنهم يحاولون إقناعه وإرضاءه بالآيات التى يطلبونها.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (٢).

يوضح أن الآيات (المعجزات) ليست هى السبب الحامل على الإيمان؛ لأن الباعث على الكفر ليس نقص الأدلة أو ضعف البراهين على صدق النبى ﷺ وصحة رسالته،

---

(١) سورة الإسراء: الآيات ٨٩ – ٩٣ . والزخرف هو الذهب.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١١١.

وإنما الباعث على الكفر هو الكِبْرُ الذى يدفع إلى التمرد على الله، ورفض الإذعان لحكمه.

وعَلَّقَ الإيمان على مشيئة الله بقوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وقد منح ﷻ الإنسان حرية الاختيار بين الكفر والإيمان، وأقام الأدلة على صحة الرسالة وصدق الرسول، فاختار أكثر الناس الكفر، بل بالغوا فى ذلك، فاستعملوا هبة الله – إذ أعطاهم الحرية والإرادة – فى محاربة الواهب ﷻ بإيذاء المؤمنين به وقتلهم، وخالفوا فى ذلك مقتضى العقل؛ ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

والجهل هو الجزم بما يخالف العقل أو يتضارب مع العلم .. إذن، فما ينقص الكافرين حتى يؤمنوا هو التخلى عن الكبر، والتحلى بالعلم باستعمال العقل (الفؤاد)، الذى وهبه الله للإنسان لكى يفكر ويقيم الأدلة على صحة القضايا التى يفكر فيها.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ (1).

يبين استحالة أَنْ يجتمع كل الناس على الإيمان، مهما تكاثرت وتضافرت الآيات على صدق الرسول وصحة الرسالة؛ لأن مشيئة الله قد قضت باختلاف الناس بين الكفر والإيمان، ولذلك فإن استهزاء الكافرين برسل الله ظاهرة عامة متواترة فى تاريخ البشر؛ تحقيقًا للعدل الإلهى، الذى حكم بمعاقبة الكافرين عقابًا شديدًا.

لقد ظل الكافرون يطلبون الآيات؛ تبريرًا لتمردهم، وجدالًا عن تكذيبهم، فحتى لو جاءتهم الآيات لظلوا على كفرهم، ولاستحقوا تعجيل العذاب، فمن رحمة ربهم

---

(1) سورة الرعد: الآيتان ٣١، ٣٢.

بهم أن منع نزول الآيات الفاضحة لكذبهم والمسرعة بعقابهم ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴿٥٩﴾﴾[1].

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾: فكفروا بها.

(ب) الرسول يطلب آية لتدعيم رسالته:

وكان رسول الله ﷺ - بباعث من رحمته بالناس – يطلب أن ينزل الله آية تجعل الكافرين يؤمنون ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾[2].

يكشف عن ضيق الرسول ﷺ – بموجب بشريته – من إبلاغ القرآن للناس الذى قوبل بالتكذيب، دون أن يستطيع تقديم برهان حاسم على صدقه.

ثم بَيَّنَ له ربه أن هذه الآية المطلوبة ليست هى القضية، بل المطلوب من الناس أن يتطهروا من كبريائهم، وأَن يُعْمِلوا عقولهم من أجل الكشف عن الحقيقة.

إن المراد من الله أن يختار الإنسان الإيمان.

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾﴾[3].

فإن كانوا صادقين فى طلب الآيات من أجل الإيمان بالبعث بعد الموت والقيام بين يدى خالق الأرض والسماوات، فإن الآيات جد قريبة منهم، تحت أعينهم وفى متناول

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٩.

(٢) سورة هود: الآية ١٢.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ٣ - ٦.

أيــــديهم: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ (1).

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾": الغالب الذى لا يُغلب أبدًا، فلا تتوهموا أنكـم تغلبونـه أو تظلمونـه بكفركم، بل إنكم تظلمون أنفسكم بالكفر؛ إذ تعرضونها لعذابه وشديد عقابه.

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: دائم الرحمة، الذى يحب أن تبقى رحمته على عباده، فلا تزول عنهم أبدًا ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ (2).

لم يبق - إذن - أمام النبى ﷺ إلا القرآن الكريم، يقدمـه دليـلًا على صـدق نبوتـه وصحة رسالته.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (3).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ (4) .. فكثير من الناس لا يهديهم إلا رؤية عذاب جهنم، حين لا تكون – هنالك – فرصة للنجاة ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ (5) ..

﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ (6) ..

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٧ - ٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٣٥.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٣٧.

(٤) سورة الرعد: الآية ٧.

(٥) سورة يونس: ٨٨.

(٦) سورة الأنعام: الآية ٧.

(ج) الكافرون يواجهون القرآن:

ولم يعد أمام الكافرين - مع استمرار النبى ﷺ فى إبلاغ الرسالة - إلا مواجهة القرآن الذى فروا من الاستماع إليه فرار الخائف المذعور من الأسد الهاجم ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ (١).

ولا يحصل الإنسان على الصحف المُنَشَّرةِ إلا فى الآخرة؛ حيث لا يستطيع الفرار من عذاب الله الذى حكم به كفره. فما الذى بعثهم على الكفر؟! إنه الكبر بغير الحق الذى أزال من قلوبهم الخوف من عذاب الله: ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ (٢).

وفى مواجهة هذا القرآن كان عليهم – لكى يَثْبُتُوا على كفرهم – أن يخترعوا الأكاذيب، وأن يستندوا إلى الأباطيل.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾(٣).

لقد اضطربت عقولهم اضطرابًا شديدا بسبب القرآن، فزعموا أنه مجرد أحلام متناثرة مبعثرة، تتراءى له فى نومه – عند غياب عقله – فلما يفيق يستحضرها بكلماته، جامعًا أشتاتها كيفما اتفق. هذا هو تفسيرهم الأول للوحى ولنسق بناء القرآن، الذى لا يشبه شيئا مما أَلَفَّه البشر ولا يشبهه شىء.

ولكن القرآن ليس فقط مجرد صور ومشاهد عجيبة، ترسم بالكلمات عالمًا غير مشهود بالحواس .. إنه أيضًا يحتوى على قصص الأمم السابقة، فلابد – إذن – أن

(١) سورة المدثر: الآيات ٤٩ - ٥٢.
(٢) سورة المدثر: الآية ٥٣.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥.

محمدًا قد اطلع بطريقة ما على حكايات القدماء، ثم أعاد صياغتها بأسلوبه ونسبها إلى الله.

وهذا هو تفسيرهم الثانى الذى قالوا فيه "بل افتراه"، وقد بسطوا وجهة نظرهم – هذه – كما قال القرآن على لسانهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾، وعَقَّبَ القرآن على وهمهم بقوله: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ (١).

إن القرآن يبدو - عند مطالعته - أكبر من أن ينجزه فرد واحد، فضلًا عن أنهم لم يرضوا أن ينسبوا شرف تأليف القرآن العظيم إلى محمد وحده؛ استهانة بشأن هذا الرجل العربي الأمى الذى لم يُعرَف عنه – طوال حياته قبل الوحى – أى اهتمام بتحصيل العلم، ومجالسة العلماء والمؤرخين، أو البحث والتنقيب عن أخبار الأمم السابقة، فلابد – إذن – أن رجالًا آخرين قد أعانوه على الإتيان بهذا الكلام العظيم: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾(٢).

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: استعان بغيره على كتابتها؛ لأنه أمى لا يستطيع الكتابة والقراءة بنفسه. فعندما يخلو إلى نفسه قبل شروق الشمس وقبل غروبها، ويظل يتمتم بكلمات غامضة – كما يظن الكافرون - كان يستمع لمن يتلو عليه تلك الأساطير القديمة التى كتبها له غيره، ويستذكرها؛ حتى يحفظها ولا ينساها!!

(د) الكافرون يهاجمون الرسول:

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨﴾ (٣).

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٥.

(٣) سورة الفرقان: الآيتان ٧، ٨.

إن الرسول رجل عادى يشبه سائر الرجال؛ فهو يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، يشترى ويبيع، فكيف يمكن تفسير الوحى؟ كيف يمكن تفسير سلوك النبى عند نزول الوحى عليه حيث يغيب عقله وتُسلَبُ إرادته إلى أن يرتفع الوحى عنه؟! إنه السحر!! إنه يقع تحت تأثير السحر الذى يمارسه عليه الجن، كائنات العالم الخفى. ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ﴾ (١) .. لقد صاغوا لك الأوصاف وشبهوك بما يعرفون من أحوال البشر، فلم يستطيعوا أن يصلوا إلى حقيقتك.

ولكن القرآن - بما فيه من موسيقى عالية تفوح منه عند الترتيل - يشتبه لديهم بسجع الكهان ونظم الشعراء، فوصموا الرسول ﷺ بأنه كاهن، وبأنه شاعر ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾ (٢)، ورد القرآن عليهم ﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ (٣).

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾ (٤).

﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾: حوادث الدهر التى آخرها الموت.

وسمى الحوادث المنتظرة "ريبًا"؛ لأن الإنسان ليس فى وسعه العلم بها، فإنها تبقى دائمًا موضع شك، أى ريبًا.

يقولون إنه مجرد شاعر، ننتظر أن تنزل به حوادث الدهر التى لا يعلمها ولا يتوقعها أحد، فتخرس لسانه، وتنسينا كلماته ويضيع شعره على مر الزمان أو فى غياهب التاريخ بعد أن يموت. إنهم يتمنون موت الرسول؛ حتى لا يسمعوا القرآن الذى يزلزل بنيانهم!!

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٩.

(٢) سورة الصافات: الآية ٣٦.

(٣) سورة الصافات:الآية ٣٧.

(٤) سورة الطور: الآية ٣٠.

ولكن المتكلم بالقرآن كان واثقًا فى نفسه، وعلى علم تام بالمخبوء فى المستقبل، فطلب من النبى أن يرد على أمنيتهم بما يُخَيِّبُ رجاءهم. ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [(١)] .. فإنى على يقين من أَنَّ المستقبل يحمل فى باطنه التأكيد على صدق هذا القرآن، كما تعهد بذلك الناطق به حين قال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾[(٢)].

(هـ) القــرآن نــور:

ثم أقسم على قداسة القـرآن بقـوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [(٣)] .. لستُ فى حاجة – من أجل تأكيد صحة أن القرآن كلام الله الذى نزل به رسول كريم – إلى القسم بالنور الذى تُرى به الأشياء، وهو نفسه لا يُرى؛ فإن هـذه الحقيقة أجلى، وأقوى وأعلى من أن تحتاج إلى قسم.

والنور هو الشىء الذى يتصل بأبصارنا، أو ينفذ إلى عيوننا، فنتمكن مـن الرؤيـة؛ فهو وسيلة الرؤية، ولكنه – هو نفسه – لا يُرى. إذن هو الذى به نرى ولكننـا لا نـراه؛ لأننا لو رأيناه، أعنى لو كان هو موضوعًا لرؤيتنا، لكان من الممكن تصور وجود وسـيلة أخرى لرؤية الأشياء غير النور، وهو محال عقلى؛ لأن النـور هـو الـشىء الوحيـد الذى يمكن أن تحدث به الرؤية، وبالتالى فإنه الشىء الذى به نُبصِرُ – وفى الوقت نفـسه – لا يمكننا أن نُبصِرَه، فهو إذن المقصود بالقسم الذى يقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) سورة الطور: الآية ٣١.

(٢) سورة فصلت: الآيتان ٥٣، ٥٤.

(٣) سورة الحاقة: الآيات ٣٨ - ٤٠.

وبالنسبة إلينا – نحن البشر- فإن كل الأشياء يمكن أن تنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما:

(١) أشياء مرئية أو مُبْصَرة، أى يمكننا رؤيتها، وهو ما يعنى أن النور يصدر عنها إلى أبصارنا.

(٢) أشياء غير مرئية أو غير مُبْصَرة، لا يمكننا رؤيتها، وهو ما يعنى أن النور لا ينزل عليها ولا يتصل بها؛ ومن ثم لا يصدر عنها أى لا ينعكس عليها آتيًا منها إلى أبصارنا.

والقِسْمان يكونان مجموع كل شىء، وبذلك يكون معنى القسم القرآنى هو القسم بكل شىء، فكأنه قال: "لا أحتاج إلى القسم بكل شىء على أن القرآن هو قول رسول كريم، أتى من عند الله؛ ليعلن على الناس رسالة الله إليهم". والمعنى المشار إليه أن كل شىء يشهد بصدق القرآن، وأنه حقًّا كلام الله. ولما كان علم الله يحتوى على كل شىء، أو بتعبير آخر أن كل شىء هو موضوع علم الله أو مضمونه، فيصبح المعنى المشار إليه أن علم الله يشهد بأن القرآن هو كلامه، الذى خاطب به نبيه ﷺ ليبلغه إلى الناس.

ولكن القرآن هو النور الذى أضاء به الله السماوات والأرض ومن فيهن من مخلوقات، فجعلن مرئيات أو مُدْرَكات بالأبصار والأفئدة، وذلك فى نزوله الأول القديم من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا (الأولى)، عندما كانت النُفُوس (النَّسَم) عند الله، قبل أن يهبط الإنسان إلى حياة الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا، التى تبدأ بالولادة من الأرحام، وتنتهى بالموت، كما أشار إلى ذلك فى قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ

نُّورٌ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: ﴿نُّورٌ﴾: هو القرآن، نزل: ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾: هو نبى الله ﷺ.

ويصبح المعنى المشار إليه فى القسم الإلهى فى سورة الحاقة، أن القرآن هو النور الذى يشهد بنفسه لنفسه على: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، فالقرآن يحمل فى ذاته دلائل صدوره عن الله، ومن ثم فلا حاجة إلى القسم لتأكيد هذه الحقيقة؛ ولذلك قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾!!

انظر – متأملًا – كم حملت هذه الآيات الثلاث من سورة الحاقة - على بساطة ألفاظهن - من المعانى العميقة؛ لتعلم أن هذا القرآن محال أن يبدعه بشر، ولذلك قال بعدهن مباشرة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ (٢)، فإنه ليس من نوع نظم الشعراء.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣)، فإنه ليس من سجع الكهان. وانظر كيف دعانا إلى تذكر سماعنا له، عندما نزل أول مرة قبل هذه الحياة الدنيا، وعاب علينا قلة التذكر؛ لكثرة غفلتنا عن التدبر فيه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

فإذا لم يكن القرآن شعرًا ولا سجع كهان، فماذا يكون؟ ما هو القرآن إذن؟ وتأتى الإجابة صارخة، واضحة، قاطعة: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٤).

(و) ادعاء بشرية القرآن:

فلما أعيت الكافرين الحيل، وعجزوا عن وصف القرآن أو تصنيفه طبقًا لأنواع الكلام التى يعرفونها، فإنه ليس شعرًا، ولا سجع كهان، ولا حكايات الأقدمين، فانتهوا

---

(١) انظر تفسير الآية ٣٥ من سورة النور فى كتابنا (نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن)، ص ١٥٧ - ١٦٢.

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤١.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٤٢.

(٤) سورة الحاقة: الآية ٤٣.

أخيرًا إلى رأى واحد، وجدوا فيه خلاصًا من ورطتهم العصيبة فى وصفه وتصنيفه، وفى الوقت نفسه رفضًا لألوهيته، فقالوا: "هو قول البشر"؛ يقصدون أنه لا يخرج – على أية حال - عن كونه كلامًا كسائر كلام الناس، فهو – فى وهمهم – مجرد حديث بليغ عظيم، نطق به محمد ﷺ معبرًا عن عقله ووجدانه، فائضًا عن عبقريته، ولكنه يبقى – بعد كل ذلك – مجرد حديث بشرى لا يمكن نسبته إلى الله.

وقد وصف القرآن حيرتهم ممثلة أبلغ تمثيل فى "الوليد بن المغيرة"، عندما طلب منه زعماء قريش أن يقول فى القرآن قولًا، يعلن فيه عن كفره بالقرآن، ويُمحى به أثر الشك الذى تركه فى نفوسهم عندما أعلن - قبل ذلك - عن إعجابه بأسلوب القرآن، ومغايرته لكل أصناف الكلام التى يعلمها العرب، وكان الوليد – كما يُفهم من كلامه – من أعلم الناس بالشعر وطرق النظم.

فماذا فعل الوليد بن المغيرة، مستجيبًا لطلب الملأ من قومه؟

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ (١) ..

﴿فَكَّرَ﴾: عالج فى عقله إقامة الأدلة على بشرية القرآن، ونَفْى ألوهية مصدره، وأرهق عقله كثيرًا من أجل الوصول إلى ذلك الحكم الخاطئ، الذى يخالف به مقتضى علمه وخبرته بكلام العرب.

﴿وَقَدَّرَ﴾: وتحسس بعقله الكلمات التى يصف بها القرآن، ورتبها فى نفسه (صدره) قبل أن ينطق بها لسانه، حتى تبدو - فى الظاهر - مقبولة رغم مخالفتها – فى الباطن – للحقيقة. كان يدرس فى سره الألفاظ التى يعبر بها عن قراره، مستجيبًا لهوى قومه، ومحاولًا – دون جدوى – استجلاب رضى عقله، الذى رفض بفطرته أكذوبة

(١) سورة المدثر: الآية ١٨.

بشرية القرآن .. لقد أخذ يرتب الألفاظ فى صدره قبل أن تخرج من فمه .. ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (١)، فَغُضب عليه من الله كيف رتب هذا الكذب؟!

التقدير: الترتيب تمهيدًا للإظهار، فهو تنظيم الأشياء قبل دفعها إلى الخروج إلى العالم المشهود.

والقتل - هنا – هو قتل الله ﷻ له، فهو القتل الإلهى المعبر عن غضب الله على العبد. ومعنى ذلك الغضب الإلهى إبقاء الوليد بن المغيرة على الكفر حتى الموت؛ ليعانى العذاب فى هذه الحياة الدنيا قبل موته، وفى البرزخ قبل البعث. القتل الإلهى يعنى الغضب الذى يحرم العبد من الرحمة. انظر كيف بنى الفعل للمجهول؛ كراهة أن يُذكَرَ اسم الله الفاعل فى هذا الموضع البغيض إلى نفسه، ولتمام العلم بالفاعل قائل هذا القرآن؛ حيث لا يخفيه فى الحقيقة أى شىء، ولا يحجبه أدنى شك.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ (٢): ثم غُضِبَ عليه من الله مرة أخرى يوم القيامة؛ بسبب كذبه وكفره؛ ليكون فى الآخرة من المغضوب عليهم حيث يدخل جهنم ليخلد فيها.

والمعنى المشار إليه: أنه بينما كان الوليد بن المغيرة مستغرقًا فى تفكيره (إقامة الأدلة)، وفى تقديره (ترتيب الكلمات)، فإنه – فى الحقيقة - كان يغرق فى غضب الله ﷻ الذى يقتله (يميته) مرتين؛ إذ يحرمه من الرحمة فى هذه الدنيا وفى الآخرة.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ (٣): ثم تمهل قبل أن ينطق بحكمه، وأخذ يقلب الأمر على وجهيه؛ ناظرًا مرة إلى طريق الحق (الصواب)، ومرة أخرى إلى طريق الباطل (الخطأ)، حائرًا بين الهدى والضلال أو الإيمان والكفر.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ (٤).

---

(١) سورة المدثر: الآية ١٩.

(٢) سورة المدثر: الآية ٢٠.

(٣) سورة المدثر: الآية ٢١.

(٤) سورة المدثر: الآية ٢٢.

﴿عَبَسَ﴾: بدا على وجهه الضيق؛ من شدة ما يعانيه من صراع بين الحق والباطل، يطحن قلبه تحت وطأة عبء ثقيل.

﴿وَبَسَرَ﴾: وتعجل الفرار من وطأة ذلك الصراع، كما يتعجل أهل الموقف – فى يوم الحشر – التحرر من ثقل الانتظار، ولو كان الخروج منه إلى النار!!

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ (١).

﴿أَدْبَرَ﴾: أعطى ظهره لطريق النجاة، وعدا مسرعًا إلى طريق الضلال.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾: ورفض أن يذعن لمقتضى العقل، وأن يتواضع للحق.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٢): فأعلن أن هذا القرآن ليس إلا من كلام السحر الذى يتناقله الناس عن بعضهم البعض جيلًا بعد جيل. يريد أن يفسر بالسحر شدة تأثير القرآن على نفوس المستمعين، إن أنصتوا إليه؛ لأن السحر يسلب الإرادة، ويُخضع حواس المسحور لتأثير كلام الساحر. فالقرآن سحر، ومحمد ساحر، وهذا هو "سر" القرآن فى نظر الكافرين، الذين مَثَّلهم الوليد بن المغيرة أبلغ تمثيل!!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣).

ويبدو أن وهم التفسير بالسحر – لما فيه من غموض – قد مَثّل لهم مهربًا ملائمًا من مواجهة الحقيقة المحرقة لشكوكهم، فأصروا عليه.

(١) سورة المدثر: الآية ٢٣.
(٢) سورة المدثر: الآية ٢٤.
(٣) سورة هود: الآية ٧.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١).

﴿إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾: كذب عظيم الإتقان، قد أجاد قائله صنعه، فظهر فى هيئة الصدق، ونسبه إلى غيره.

يتهمون محمدًا ﷺ بتأليف القرآن ونسبته إلى الله افتراءً عليه ﷻ، وبذلك الوهم يكون محمد ﷺ قد تقوّل القرآن؛ أى قَوَّل الله ما لم يَقُلْه.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢).

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤).

ولم يكن كفار قريش بدعًا من الذين كفروا على مدى التاريخ، فكل الكافرين قالوا ذلك عن وحى الله إلى أنبيائه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٥).

ولكن ما دام القرآن سحرًا – فى وهم الكافرين – فهو إذن من كلام البشر؛ لذلك قال الوليد بن المغيرة فى حكمه النهائى: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ (٦).

ولننظر – نحن متأملين – كيف وصف القرآن فى بلاغة منقطعة النظير معاناة

(١) سورة سبأ: الآية ٤٣.
(٢) سورة الصافات: الآية ١٥.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٣٠.
(٤) سورة الأحقاف: الآية ٧.
(٥) سورة الذاريات: الآيتان ٥٢، ٥٣.
(٦) سورة المدثر: الآية ٢٥.

الوليد بن المغيرة ثقيلة الوطء على نفسه، وهو يواجه القـرآن العظـيم؛ يريـد محاكمتـه واتهامه بأنه من كلام البشر.

(ز) القـرآن يتحـدى:

وإذا سلمنا لهم – جدلًا – بأنه من كلام البشر، سـواء أكـان سـحرًا، أو كهانـة، أو شعرًا؛ فلابد إذن أن يكون بمقدورهم – وهـم البلغـاء أهـل الفـصاحة المتفـاخرون بلغتهم – أن ينتجوا كلامًا يماثله فى الشكل أو المضمون، وإذا كانوا قـد أقـروا ببلاغـة القرآن، فعليهم أن يأتوا بحـديث على قـدر بلاغتـه؛ مـن أجـل إثبـات ادعائهـم، وإلا فليؤمنوا بأن القرآن يفوق فى بلاغته قدرة البشر، وبذلك تسقط دعواهم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

وأخذتهم العـزة بـالإثم، فـادعوا قـدرتهم على إجابـة التحـدى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [2].

انظر كيف أشاروا إليه ولم يستطيعوا تسميته أو مواجهته، فلم يقولوا "هذا القرآن" بل اكتفوا بقول "هـذا"؛ تعبـيرًا عـن نفـورهم، وعـن أنهـم لا يقـدرون على مواجهتـه بالاسم [3].

ولم يمهلهم الله وقتًا يستمتعون فيه بادعائهم الكاذب الفخور، بل جابههم بالتحدى الصارخ المستفز، الذى يستثير همـتهم وحميـتهم لإجابـة التحـدى، فقـال لرسـوله ﷺ ليعلنهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [4].

---

(١) سورة الطور: الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣١.

(٣) انظر كتابنا: القرآن معجزة كل العصور، ص ٣٥ - ٣٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

كانت صيغة التحدى شديدة الحدة، معبرة عن ثقة تامة فى أن القرآن محال مجاراته أو محاكاته. وهكذا وجد الكافرون أنفسهم – وجهًا لوجه – أمام شمس الحقيقة الحارقة لكل الشكوك والأوهام، فغطوا أعينهم بأيديهم، بعد أن أغمضوها، ولاذوا بالفرار من المواجهة، أى لاذوا بالصمت ولم يجيبوا التحدى (١).

ثم أمعن الله فى إذلال كبريائهم، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (٢).

إنهم يزعمون أن محمدًا ﷺ قد أبدع هذا القرآن من فيض عبقريته، أو أنه قد اقتبسه من أقوال غيره من البشر، ثم نسبه إلى الله افتراءً عليه ﷻ، فلماذا – إذن – لا يصنعون مثله فيؤلفون كلامًا، ثم ينسبونه إلى الله، ويستعينون فى ذلك بمن يستطيعون حشده من الشعراء والخطباء من أهل الفصاحة المشهورين بالبلاغة والقدرة على استعمال اللغة وتطويعها؛ للتعبير عما تجيش به عقولهم ووجداناتهم؟!، ولا يطلب الله منهم - على سبيل التحدى - أن يأتوا بكتاب يبلغ حجمه من الألفاظ مقدار ما نزل من القرآن، بل يكفيهم فقط قدر عشر سور من سور القرآن، لاعتبار إنجازهم إجابة مقبولة للتحدى الإلهى، وليأتوا بمن يستطيعون جمعه من الخلق؛ ليشهدوا المقارنة بين القرآن وغيره، وليحكموا بأنفسهم هل ما كتبه هؤلاء يشبه القرآن فى بلاغته؟ هل يقارب القرآن فى جماله وعمق ما فيه من العلم؟ هذا إن كانوا صادقين فى دعواهم أن القرآن من كلام البشر.

---

(١) علينا أن نذكر هنا أن المحاولات الصبيانية السخيفة التى قام بها بعض المتنبئين العرب فى نهاية حياة النبى محمد ﷺ وبعد وفاته، فيما عرف - فى التاريخ - باسم حروب الردة، أو على الأصح حروب مانعى الزكاة، لم تكن محاولات جادة حتى فى نظر أصحابها وأتباعهم، الذين حاربوا السلطة المركزية فى المدينة المنورة؛ بغية اقتسام السلطة والثروة، ومن ثم فقد كانت محاولات محاكاة القرآن مجرد جزء من التمرد السياسى على سلطة الدولة، وليست عملا ثقافيًّا يؤخذ على محمل الجد كاستجابة للتحدى الإلهى.

(٢) سورة هود: الآية ١٣.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بيان واضح أن لا أحد غير الله يستطيع أن يقول كلامًا يبلغ فى بلاغته ما بلغه القرآن، ومن ثم فهو تأكيد على أن القرآن كلام الله. وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ يشير إلى أنهم – فى حقيقة أمرهم – لم يكونوا صادقين فى دعواهم ببشرية القرآن وادعائهم القدرة على قول مثله، وإنما هى مجرد مكابرة!!

وبالطبع لم يستطيعوا إجابة التحدى مرة أخرى، فأمعن ﷻ فى بيان عجزهم، وعلو قدر قرآنه عن أن يستطيع بشر أن يأتى بسورة واحدة مثله، متنازلًا معهم عن شرط عشر سور، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (١).

ينزه ﷻ القرآن عن أن يستطيع مخلوق أن يؤلفه ثم ينسبه كذبًا إلى الله، فلا أحد يستطيع أن يقول القرآن إلا الله، ولا أحد يستطيع أن يتكلم به إلا بمعونة الله وحده ﷻ.

ثم بيَّن "السر" فى عجز جميع البشر عن أن يعلموا بالقرآن أصلًا، فضلًا عن أن يتكلموا به من تلقاء أنفسهم؛ وذلك لأن القرآن إنما نزل من عند الله لتحقيق هدفين:

الأول: ﴿تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾؛ أى تأكيد صدق الأنبياء السابقين على نزول القرآن، وصحة ما احتوته كتبهم من علم الله، ولا يمكن أن يفعل هذا إلا نبى يأخذ علمه من الله؛ حيث يتمكن من معرفة ما قاله الله للأنبياء الآخرين. فإذا كان القرآن قد جاء يؤكد صدق النبوات السابقة؛ فلا شك – إذن – فى أن محمدًا ﷺ يتلقى القرآن من المصدر نفسه الذى استقى منه الأنبياء السابقون وحيهم؛ أى من الله العليم الحكيم، فالقرآن وحى من الله، مثل وحيه إلى باقى الأنبياء.

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٧.

الثانى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أى بيان كتاب العلـم الإلـهى الذى نزل من الله رب العالمين، ولم يشك فيه أحـد مـن النـاس حـين نـزل إليهـم فى خلقهم القديم قبل هذه الدنيا، بالضبط كما لن يرتاب أحد من الناس فى كتاب العلم الإلهى، عندما يُعرض عليهم مفصلًا يوم القيامة؛ إذ يحصل كل واحد مـن البـشر على كتابه منشورًا؛ مبسوطًا أمام عينيه، معروضًا عليه أعماله المسجلة فيه.

لقد جاء هذا القرآن فى هذه الدنيـا ليـذكرنا "بـذلك الكتـاب" الذى سـبق لنـا أن علمناه فى خلقنا القديم، فالقرآن يُبَيِّنُ (يفصل) "ذلك الكتاب" الذى لا ريب فيه مـن رب العالمين. ومحال – من ثم – أن يؤدى القرآن هذا البيان إلا إذا كان صادرًا عن الله الذى أنزل "ذلك الكتاب"، فالقرآن – إذن – من عند الله، ومحال أن يؤلفه بشر؛ فمـن الذى يعلم "ذلك الكتاب" الحاوى لعلم الله، ويستطيع أن يبينه إلا الله؟!

وقد أشار القرآن فى موضع آخر إلى هدف ثالث من أهداف تنزيله مترتب على هذين الهدفين، وذلك فى قوله عند نهاية سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

يبين أن من أهداف نزول القرآن هداية المؤمنين به إلى الطريق الموصل إلى الجنـة، حيث ينالون رحمة الله الباقية التى لا تزول.

ويوضح – هنا – أن الكتاب الذى لا ريب فيه، والذى نزل القـرآن ليبينـه للنـاس يحتـوى على كل شىء؛ فقـال فى آيـة سـورة يـونس: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم قال – هنا – فى سورة يوسف: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فأوضح أن "ذلك الكتاب" الذى نزل القرآن ليبينه (يُفَصِّله) يحتوى على "كل شىء".

(١) سورة يوسف: الآية ١١١.

فهو – إذن – كتاب العلم الإلهى المُدَوَّن فيه كل شىء، والذى سبق للبشر أن علموا ما فيه، ثم نسوه بهبوطهم إلى دار الابتلاء، فجاء القرآن ليُذَكِّرهم به، أى يفصله لهم. فكيف يمكن الادعاء بأن القرآن من كلام البشر؟!

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] .. هنا لم يطلب منهم إجابةً لتحديه إلا سورة واحدة فقط، ولتكن أصغر سورة!! ولكنهم خرسوا ولم ينطقوا بكلمة واحدة، شاهدين على أنفسهم بالعجز عن مجاراة القرآن أو محاكاته ولو فى أصغر سورة. ولذلك كان لابد – فى النهاية – من تحذيرهم وتهديدهم بسوء المصير الذى ينتظرهم إن أصروا على كفرهم بنبوة محمد ﷺ أو ألوهية القرآن.

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

هنا لم يطلب منهم سورة واحدة من القرآن، بل مجرد سورة واحدة من مثل القرآن، يعنى من كلام يمكن أن يقترب من بلاغة القرآن؛ فإن المماثلة الكاملة أو المشابهة الحقيقية مستحيلة، فليأتوا بسورة واحدة من كلام يمكن أن يشبه بالقرآن ولو على سبيل التقريب، وليأتوا بمن يستطيعون من النقاد والحكماء الذين يمكن أن يقرروا تلك المشابهة التقريبية. ثم أعلن متحديًا لهم أنهم لن يستطيعوا القيام بشىء من ذلك؛ ومن ثم فقد وجب عليهم إسقاط دعواهم ببشرية القرآن، أى إمكان صدوره عن بشر، وإلا فعليهم أن يخلدوا فى النار التى أعدها الله لمن كفر بالقرآن، وهم يتساوون فى ذلك مع الحجارة التى جعلها الله مثلهم وقودًا للنار .. فهل رأيت استهزاءً وإذلالًا أبلغ من هذا؟!

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ٢٣، ٢٤.

هكذا أبان الله أن القرآن الكريم هو آيته الكبرى التى أعلن بها عن مجده، وأَيَّد بها أعظم رسله: نبيه الأمى الخاتم ﷺ؛ ولذلك اكتفى بالقرآن وحده ليكون الآية التى تبرهن على صدق نبيه محمد ﷺ.

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

(ح) ألوهية القرآن:

وأعتقد أن – ما أطلق عليه فى تراثنا – بلاغة القرآن؛ والتى اعتبرت – فى ضوء ما أسلفنا – الآية الكبرى، أو البرهان الأعظم على نبوة محمد ﷺ، تتجلى لنا إذا درسنا النص القرآنى من خلال ثلاثة أوجه للنظر:

الأول: وجه الصدق:

ونعنى به صدق محمد ﷺ الإنسان فى اعتقاده بأن القرآن كلام الله الذى يأتيه من خارج نفسه البشرية، والذى لا سلطان له عليه. وهو وجه تنكشف لنا ملامحه من دراسة السيرة النبوية، التى توضح بجلاء أن محمدًا الإنسان كان يتعامل مع القرآن باعتباره حقيقة تتجاوز ذاته البشرية، ولا يمكن إزاءها إلا الإذعان.

الثانى: وجه الحق (الصواب):

ونعنى به احتواء النص القرآنى على حقائق علمية كثيرة بالغة الثراء، وشديدة التنوع والعمق، تنتمى – إذا نظرنا إليها من جهة المعرفة الإنسانية – إلى ميادين (آفاق) علمية، محال على إنسان فرد، فى أى زمان أو مكان أن يحصل عليها. ولا يزال النص القرآنى يبدى – لنا – عجائبه العلمية كلما تقدمت المعرفة الإنسانية، وهذا الوجه تكشف لنا ملامحه دراسة مضمون النص القرآنى من ناحية المعانى العلمية التى

---

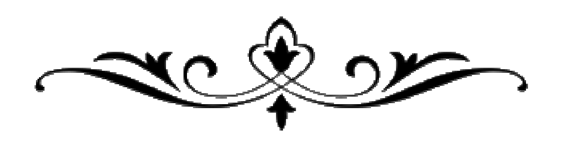
(١) سورة العنكبوت: الآيتان ٥٠، ٥١.

تحملها ألفاظه، وهى ما يعرف – الآن – تحت اسم الإعجاز العلمى للقرآن، ولكن علينا أن نوسع هذا المضمون ليشمل كل مجالات (آفاق) المعرفة الإنسانية، وليس فقط العلوم الطبيعية.

الثالث: وجه الجمال:

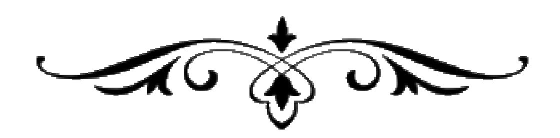
ونعنى به صياغة النص القرآنى البديع على نحو يُشبع - إلى أقصى حد - حاسة الجمال عند الإنسان، فيخلق لدى المستمع إليه ولدى قارئه لذة جمالية، تفوق تلك التى يظفر بها الإنسان عند تذوق أعظم الأعمال الأدبية التى أنتجها عباقرة الأدباء. ومن ثم فلا نتجاوز الحقيقة ولا نبالغ فى مدح القرآن إذا قلنا: إنه المثل الأعلى للجمال الذى عرفه الإنسان فى ميدان التعبير باللسان العربي .. وعن وجه الجمال سيكون حديثنا فى هذا الكتاب.

* * *



الباب الأول

مفهـوم الجمـال فى القـرآن



الفصل الأول

الجمال حقيقة كونية وحق إنسانى

(أ) الجمال فطرة إنسانية:

لا شك فى أن ثالوث القيم (الحق والخير والجمال) يظل هـو الحـاكم المـسيطر على تفكير الإنسان؛ إذ فرض سلطانه على العقل منذ عـرف كوكـب الأرض حيـاة البـشر حتى يوم الناس هذا، فلم تزل الأجيال المتعاقبة منذ أقدم العصور تتساءل دون إجابـة شافية: ما هو الحق؟ وما هو الخير؟ وما هو الجمال؟

كما لا يجادل أحد فى أن سؤال الجمال هو أشدها إلغازًا، وأبعـدها عمقًـا، وأكثرهـا إثارة للحيرة والخلاف، كما يتبين من مطالعة آراء الفلاسفة والنقاد ومؤرخى الفنـون، ومن يُطلَق عليهم علماء الجمال!!

كل ذلك رغم أن "الجمال" قيمة شائعة، بل واسعة الانتشار، شديدة النفوذ فى سـلوك الإنسان، يتـداولها النـاس فى حيـاتهم اليوميـة المعتـادة .. أعـنى فى مختلـف جوانـب معيشتهم، وفى ممارستهم للفنون كثيرة الأنواع؛ إبداعًا وتذوقًا ونقدًا.

لقد اكتشف – نهاية القرن التاسع عشر الميلادى – عدد من الكهوف فى مختلـف أنحاء الأرض، وقد وجدت على جدران هذه الكهوف رسوم عديدة، تمثل - فى الغالـب - صور حيوانات مختلفة، وقد أثبتت الأبحاث العلمية – بما لا يدع مجالًا للشك – أن تاريخ هذه الصور المحفورة على جدران الكهوف يعود إلى العصر الحجرى القـديم، أى ما يزيد على ثلاثين ألف عام من "الآن"، ونحن فى بداية القرن الحادى والعـشرين مـن ميلاد المسيح عليه السلام.

وتبرهن تلك الرسوم على امتلاك الإنسان الفنان القديم – فى عصور ما قبل التاريخ – قدرة رائعة على التصوير، وهى قدرة من المحال أن يكون قد اكتسبها من خلال تلقيه تعليمًا فنيًّا منتظمًا فى إحدى مدارس أو معاهد تعليم الفنون؛ ومن ثم فمن المحتوم – علميًّا – أن نقرر صحة الاعتقاد بأن تلك القدرة على "التصوير" هبة فطرية (طبيعية) مخلوقة فى نفس الإنسان، أعنى فى بعض البشر، وأنها ممنوحة (موهوبة) لهم من خالقهم "البارئ المصور" ﷻ على سبيل الكرم، دون طلب أو جهد بشرى؛ إذ يستحيل – عقلًا – أن يظفر الإنسان بأساس تلك القدرة بمجرد التعليم والتدريب.

ولا شك أن ظاهرة "الفنانين" الفطريين التى تعبر عن نفسها فى أنحاء متفرقة من العالم، تؤكد صحة هذا الفرض أو الاعتقاد علميًّا؛ إذ نرى فيها إنسانًا أميًّا لم يتلق أى تعليم فنى أو تدريب، ينتج لوحات أو تماثيل تظهر قدرة فائقة على التصوير، ويعجز عن الإتيان بمثلها كبار الفنانين الذين أفنوا أعمارهم فى التعليم والتدريب والتأمل والتقليد.

وما نريد أن نلفت إليه النظر – هنا – أن الإنسان منذ وجد على هذه الأرض، وفى كل العصور، قد وجد فى نفسه الرغبة فى تسجيل حياته فى صورة محسوسة أو قالب خارجى؛ ليتمكن من "رؤية" نفسه فى كامل وجودها، مستحضرًا فى نور الشهود – تحت مصباح التأمل – تلك الجوانب الخفية المكتومة أو المكبوتة، التى يعجز عن التعرف إليها أو الإفصاح عنها فى خضم تيار الحياة اليومية – المعتادة الرتيبة – التى تشده فى دوامة تصنعها ضرورات الجسد، وأعباء السعى على تكاليف المعيشة، وقيود الحياة الاجتماعية، فيصبح كالثور المربوط بالساقية مغمض العينين، يلف ويدور فى الحركة التى يبعثها البحث عن لذة الجسد والفرار من الألم.

(ب) الفن معرفة :

إن الإنسان يرغب – من أعماق نفسه – فى أن يتبين القوى الجوهرية والعوامل التى ترتبط بها حياته وتقود مصيره، وفى أن يجد إجابة شافية للأسئلة المحيرة التى

يموج ويضطرب بها فؤاده (عقله) [1]، والتى تلف وتدور حول سؤال واحد: لماذا كان الموت؟ أو لماذا كانت الحياة؟

وقد تيقن الإنسان – بموجب خبرته بنفسه – أن الحقيقة أكبر وأعمق من أن يسبر أغوارها "العقل" وهو يخوض بمفرده فى الأعماق المظلمة ممسكًا بيده المرتعشة مصباح العلم، الذى يهتز كنور شمعة صغيرة، فلا يستطيع شيئًا غير إضاءة بقعة صغيرة من بحر الحقيقة اللجى الذى تغشاه الظلمات، وتتلاطم فيه الأمواج. ولذلك كان حتمًا مقضيًّا على الإنسان أن يلجأ إلى الوجدان؛ يستهديه ويستضىء بنوره؛ لعله يجد طريقه فى ذلك الظلام الدامس الذى يرخى سدوله على عقولنا بسطوة قانون الابتلاء الذى أخفى الحقيقة وراء الحجاب.

وقد قدم الوجدانُ الفَنَّ للإنسان ليستكمل به معرفته؛ إذ يسد بالفن جوانب النقص أو الفراغات التى يعجز العلم – بموجب طبيعته – عن أن يملأها. إذن لقد كانت الرغبة الإنسانية العارمة فى معرفة الحقيقة كاملة، هى الينبوع الذى انفجر منه سيل الفن. ولقد وجدت هذه الرغبة الإنسانية العامة تحقيقها فيما أبدعه الفنانون من بنى الإنسان، أولئك الأفراد الذين وهبهم الخَلَّاق المصور ﷻ القدرة على التصوير، أعنى تجسيم الأحاسيس والمعانى فى قوالب مشهودة، صنعوها بالكلمات والحروف فى الشعر والنثر، وبالخطوط والألوان فى الرسم، وبالألحان والإيقاع فى الموسيقى، وبالكتلة والفراغ فى النحت والعمارة، وبكل ذلك فى المسرح والسينما، وبغير ذلك فيما يبدعه الإنسان الفنان من أشكال التعبير عما يجيش فى صدور الناس من الوجدان.

وفى كل أشكال (أنواع) الفن، يخلق (يصنع) الفنان عالمًا آخر جديدًا، يوازى العالم الذى ندركه بالعقل، ولكن العالم الفنى ليس صورة فى المرآة للعالم العقلى؛ إذ لا

---

(١) نرجو من القارئ الكريم أن يطالع تعريفنا للمصطلحات التى عبر بها القرآن الكريم عن النفس الإنسانية فى الباب الثانى من كتابنا "نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن" الصادر عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م عن دار القلم للنشر والتوزيع – القاهرة. ونحيط القارئ الكريم علمًا بأننا نحاول – هنا – تقديم ملخص وافٍ أو بلورة رؤيتنا للجمال والفن التى قدمناها فى كتابنا سالف الذكر.

معنى ولا جدوى من المحاكاة، وإنما غاية العالم الفنى الذى يبدعه الإنسان أن يضىء الجوانب المعتمة من العالم الواقعى المشهود بالعقل المحبوس فى حدود الحواس، وضرورات النفع والضرر، وقوانين العلم القائم على الاستدلال والبرهان؛ ومن ثم يستطيع الفن أن يكشف لنا ما يخفى على العقل، وأن يظهر ما تبطنه الأشياء من أسرار كامنة فى صورها، وهكذا يعطى الفن الكون مغزى لا يدركه العقل، ويهب الحياة غاية هيهات للعلم أن يصل إليها.

(ج) حاسة الجمال:

ومن ناحية أخرى، فإن التأمل فى تاريخ الحضارات والآثار التى تركها الإنسان خلال العصور، يبرهن – بما لا يدع مجالًا للشك – على أن البشر قد أرادوا دومًا تجميل العالم الواقعى المحسوس المحيط بأجسامهم، والذى تدركه عقولهم، فأخذوا فى تزيين كل شىء يقع تحت أيديهم، ويستعملونه فى معيشتهم؛ فزينوا الأوانى وأدوات الأكل والملابس والنعال والأسِرَّة التى ينامون عليها، والأغطية التى يستدفئون بها، والبيوت التى يعيشون فيها، والدواب التى يركبونها، والطرق التى يمشون فيها، بل لقد زين الناس فى عصور ما قبل التاريخ الرماح التى يصطادون بها فرائسهم، ومقابض السيوف التى يحاربون بها ويقتلون أعداءهم، والدروع التى يحمون بها أنفسهم.

ولقد بدأوا بتزيين أنفسهم، أى تجميل الصورة البشرية، فصففوا الشعور، وكحلوا العيون، وزججوا (رققوا) الحواجب، وصنعوا الحُلى والعطور، وزخرفوا الملابس.

وفى كلمة واحدة لم يترك الإنسان شيئًا يقع تحت سلطانه - لا جسمه ولا شىء فى البيئة من حوله - على حاله، بل حاول دومًا تزيينه (تجميله)؛ وهو ما يعنى تحسين صورته؛ ابتغاء رفع قدرها (قيمتها)؛ من أجل أن تُمَاثِل أو تقترب من "مثل أعلى" موجود فى قلب (باطن نفس) الإنسان، وغير مشهود فى الخارج؛ ومن ثم فإن التزيين (التجميل) يهدف إلى تغيير الواقع؛ من أجل أن يكون متطابقًا أو أكثر توافقًا مع المثل الأعلى الباطن فى نفس الإنسان.

ذلك "المثل الأعلى" الكامن فى القلب (باطن النفس) هو أصل ما يسمى بحاسة الجمال؛ وهى جهاز الإدراك (المعرفة) الكامن فى النفس الإنسانية، والمنوط به طلب الجمال؛ وهو ما يعنى البحث والكشف عن الجمال فى الأشياء، وخلق (صنع) الجمال، سواء بتجميل (تزيين) العالم الخارجى المحيط بالإنسان؛ أى تجميل (تزيين) الأشياء التى يستعملها الإنسان فى حياته اليومية، وهو ما يشار إليه باسم الفنون التطبيقية (النفعية)، أو بإبداع عالم (كون) آخر مكون من الصور الخالصة؛ أعنى الصور التى تجردت (تخلصت) من الأشياء التى كانت تتلبس بها، أو بالأحرى ترتديها فى العالم الواقعى، وهذا العمل هو ما أنتج "الفنون الجميلة"، وهو النشاط الإنسانى الهادف إلى خلق أو بناء عالم آخر، يتكون من مجرد صور؛ أى أشكال مجردة لا تحيط بأشياء واقعية يتعامل معها الجسد، أو مواد يمكن للأيدى أن تمسك بها. وغاية ذلك العالم الفنى (الخيالى) أن يستخلص الجمال الكامن فى الأشياء الواقعية؛ أى يستحضر الجمال فى قالب مشهود، يُمكن للحواس أن تدركه وللعقل أن يتأمله؛ فهو – إذن – يُجَسِّم فى صورة خارجية ظاهرة "المثل الأعلى" الباطن فى النفس الإنسانية، فيضىء الجوانب الخفية من العالم الواقعى المشهود، وبالتالى فإنه يمكن أن يعطى تفسيرًا للوجود ومعنى للحياة، لا يستطيع العقل بمفرده أن يصل إلى أى منهما.

(د) الزينة حق أساسى من حقوق الإنسان :

والإنسان – إذن – فى هذه الحياة الدنيا لا يطلب فقط مجرد إشباع حاجات جسده؛ فهو لا يبحث عما يعود عليه بالنفع فحسب، بل إنه يطلب – فوق هذا – الجمال (الزينة)؛ راغبًا فى أن يرتفع بالواقع المشهود إلى مستوى المثل الأعلى الكامن فى نفسه، أى منفسًا عن رغبته فى الوصول إلى عالم خال من الألم، مملوء باللذة؛ عالم الخلود الذى يفيض بالرحمة.

ولقد احترم القرآن الكريم هذه الرغبة الإنسانية العميقة، فاعتبر الحاجة إلى الجمال (الزينة) حقًّا إنسانيًّا معترفًا به، وَعَّدها ضمن الاحتياجات الإنسانية الجوهرية، التى تكفل الله الرحمن الرحيم بإشباعها، وضمان أسباب الحصول عليها فى الأرض

والسماوات. خاطب القرآن الكريم الإنس والجان، واصفًا ما صنعه الله من أجل خلقه فى الأرض:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ (١).

يبين الرعاية الرحيمة التى يبذلها الرحمن سبحانه وتعالى لحفظ حياة مخلوقاته على الأرض، بإجراء البحرين: الماء العَذب والماء المِلح، ودفعهما إلى الالتقاء فى مواضع مخصوصة من كوكب الأرض، ومنع اختلاطهما التام، بإقامة برزخ يفصل بينهما، ويحول دون امتزاجهما، وهو منطقة من الماء الذى تزداد فيه نسبة الأملاح عن الماء العَذب، ولكنها تقل عن الماء الملح؛ فالبرزخ ماء وسط بين العَذب والمِلح، وهو يمثل حاجزًا فيزيائيًّا وكيميائيًّا، يحول دون زوال الماء العذب؛ لأن امتزاج المائين (البحرين)، معناه ضياع عذوبة الماء، الذى لا يعنى سوى إبادة كل الكائنات الحية التى تعمر وجه الأرض؛ لأنها جميعًا تحيا على الماء العذب.

إذن البرزخ القائم بين البحرين هو الذى يُبقى الحياة على وجه الأرض، وهو – فى ذلك – يشبه البرزخ الآخر (الباطن)، الذى يفصل بين الدنيا والآخرة؛ إذ يحول دون قيام الساعة التى تنهى الحياة الدنيا. هكذا يتبين لنا أن البرزخ بين البحرين (الماءين) آية كبرى ونعمة عظمى، امتن بها الله على جميع مخلوقاته على الأرض من الإنس والجن، فدعاهم إلى الشكر، بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم ذكر نعمة أخرى هى خروج اللؤلؤ والمرجان، ولا جدال فى أنهما لا يستعملهما الإنسان إلا فى الزينة؛ حيث يُرَكِّب منهما قطع الحلى التى تتجمل بها النساء مثل الأساور والقلائد.

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١٩ ـ ٢٣. ونطلب من القارئ الكريم أن يرجع إلى الباب الثالث من كتابنا "الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة"؛ ليحصل على المزيد من الضوء الملقى على هذا النص البديع، ص ٩٩، ١٠٥.

فلننظر كيف ربط نعمة الحياة – عند الإنسان – بنعمة الجمال؛ مشيرًا بذلك إلى أن الزينة حق أساسى وجانب جوهرى من جوانب الحياة عند الإنسان.

يقول الله ﷻ واصفًا نفسه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [1].

ويقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2].

---

(١) سورة النحل: الآية ١٤.

(٢) سورة فاطر: الآية ١٢. ولننظر كيف ختم الآيتين بجملتين متشابهتين، تكادان أن تتماثلا، لولا حرف العطف "الواو"، وتغيير موضع حرف الجر "فى"؛ إذ يقول فى الأولى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النحل ١٤)، ويقول فى الثانية: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (فاطر - ١٢). والتعبير فى الآية الأولى يجعل – باستعمال حرف العطف "الواو" – ابتغاء فضل البحر، أى طلب فضل (رزق) الله المخزون فى البحر، هو أحد مظاهر تسخير البحر للإنسان، فهو إحدى ثمار أمر الله الذى سخر البحر (الماء) للإنسان.

بينما يجعل غياب حرف "الواو" فى الآية الثانية ابتغاء فضل (رزق) البحر؛ ثمرة (نتيجة) مَخْرِ الفلك، أى جرى السفن فيه.

ولقد تكلم فى الآية الثانية عن البحرين؛ العذب والمالح ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾، ولكنه ذكر جرى السفن فى بحر أو ماء واحد، فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، ولم يقل فيهما فجعل البحرين واحدًا؛ للدلالة على أن أصل الماء أو مصدره واحد؛ ولذلك قَدَّم حرف الجر "فى" فى سورة فاطر، فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ﴾، بينما قال فى سورة النحل: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾، فأراد بتقديم موضع "فيه" لفت الانتباه إلى وحدة البحار (المياه) فى نشأتها الأولى من الأرض، مع أن صدر الآية كان يتحدث عن البحرين؛ العذب والمالح.

وأخيرًا وليس آخر، لنتأمل كيف أصر على جعل محمد ﷺ فى مقام الشهادة، ولفت الانتباه بوضوح إلى حضوره الدائم؛ إذ قال فى الآيتين ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ ﴾، رغم أن محمدًا ﷺ الإنسان لم ير البحر ولا الفلك فى حياته

"إن هذا القرآن الحكيم ينظر إلى الزينة باعتبارها إحدى حاجات الحياة الأساسية، التى تَفَضَّل الله بإشباعها، عن طريق تسخير البحر للبشر، وهى تقف على قدم المساواة مع الطعام، والتجارة والسفر وسائر أوجه النشاط الإنسانى التى تمارس فى البحر، والتى ينبغى أن تعد وسائل يشكر الإنسان بها ربه" (١).

(هـ) الجمال حقيقة كونية:

ولقد أفصح القرآن الكريم – بوضوح كاشف للحقيقة – عن أن التزيين (التجميل) كان عملًا إلهيًّا جوهريًّا عند خلق السماوات والأرض وبناء الكون.

ففى سياق تفصيل مراحل خلق السماوات والأرض، يقول الله فى بيان بناء السماوات السبع: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (٢).

ويقول: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

ضمير الغائب: "هن" فى قوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ يعود إلى الأنفس البشرية فى خلقها القديم قبل نزولها بالولادة فى هذه الأجساد إلى هذه الحياة الدنيا للابتلاء.

ومعنى "القضاء" فى النص القرآنى: الحكم والإنزال؛ ومن ثم يصبح معنى قوله ﷻ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾: فأنزل الأنفس الإنسانية أى الأرواح أو النسم (جمع نسمة) فى سبع سماوات؛ حيث أخذت كل سماء منهن نصيبها من الأنفس التى انتظمت فى

البشرية، أعنى فى سيرته العطرة، كما وقعت على هذه الأرض بين مولده من رحم "آمنة بنت وهب" فى مكة ومماته فى المدينة المنورة، فأشار بحضوره فى الآيتين إلى مثوله الدائم فى الحضرة الإلهية قائمًا بالشهادة، وإلى أنه ﷺ يرى بعين "النبى" التى ترى بنور الله ﷻ.

(١) كتاب "نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن"، ص ١٢١.

(٢) سورة فصلت: الآية ١٢.

(٣) سورة النحل: الآية ٨.

منازلها السماوية، على نحو "تقتضيه" الحكمة الإلهية، وهو الترتيب الذى رآه النبى ﷺ فى المعراج؛ حيث رأى "آدم" فى السماء الأولى، وابنا الخالة "يحيي" و"عيسى" فى الثانية.

وأنزل ﷻ اللوح المحفوظ (أم الكتاب) على النبى الأمى القائم فى حضرته، فحصلت بذلك الوحى كل سماء من السماوات السبع على نصيبها (قدرها) من العلم الإلهى المسجل فى اللوح المحفوظ، وانطبعت بذلك فى السماوات صورةٌ (نسخة) من اللوح المحفوظ، تلك الصورة (النسخة) هى "الكتاب المبين"، المشار إليه فى القرآن بـ"ذلك الكتاب"، الذى توزعت محتوياته (مكتوباته) على السماوات السبع، فصار فى كل سماء كتابها.

وهذا هو تأويل قوله ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

﴿أَمْرَهَا﴾: كتابها.

وفى سياق ذلك الوحى القديم، نزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ (أم الكتاب) إلى السماء الدنيا، وهى السماء الأولى القريبة من الأرض؛ حيث استقر فى بيت العزة، فكان ذلك النزول القديم سببًا فى إضاءة السماوات والأرض، واكتساب السماء الدنيا الجمال (الزينة)، التى تجعلها تحلو فى أعين الناظرين إليها، واكتسابها وسائل الحفظ التى تمنعها من تطفل الشياطين المردة، الذين يحاولون اختراق الحرس أو التسلل لاستراق الوحى (السمع)، واختلاس النظر إلى محتويات "ذلك الكتاب"، فى محاولة محمومة للاطلاع على الغيب (المستقبل).

هذا ما أشار إليه بقوله ﷻ فى ختام الآية: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

إن تزيين (تجميل) وجه السماء الدنيا، كان عملًا إلهيًا مقصودًا به جذب أنظار الناس على الأرض؛ لعلهم يتذكرون بزينتها (جمالها) الأيام التى قضوها فى منازلهم السماوية التى أسكنهم الله فيها بجنات عدن، عندما كانت السماء لهم

بناء[١] يحيون فيه، قبل إخراجهم من الجنة، أو بالأحرى طردهم منها، بعدما عصى آدم ربه فغوى، فأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها، فأصدر الله أمره للأنفس الإنسانية كلها بالهبوط: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[٢].

وعندما تلكأ بعضنا – نحن بنى الإنسان – متوهمين أن الأمر بالهبوط لا يخصهم؛ لأنهم لم يخطئوا مثل آدم، كرر الله أمره معلنًا أن الهبوط حكم على الجميع؛ لأن كل واحد منا – نحن البشر – كان سيفعل مثل آدم، لو قدر له أن يكون مكانه، فلا يحق لواحد منا أن يزعم أنه أفضل من آدم: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٣].

هكذا صار الرجوع إلى الجنة مشروطًا بالنجاح فى الامتحان؛ أى بالأداء الحسن فى الابتلاء على الأرض بالإيمان والطاعة فى هذه الحياة الدنيا التى نرتدى فيها هذه الأجساد.

يقول الله ﷻ واصفًا عمله فى السماء: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾[٤].

---

(١) انظر إلى قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)، وقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (غافر: ٦٤).

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٦. ولا شك أن قصة بناء الكون وخلق الإنسان - كما صورها القرآن فى كامل نصه البديع - تحتاج إلى بيان وتفصيل يخرج عن نطاق بحثنا هذا، ولا يحتمله المقام - هنا – وندعو الله (جل فى علاه) أن يمنحنا القوة والقدرة على إنجاز ذلك العمل فى المستقبل القريب، إنه سميع مجيب.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ٣٨، ٣٩.

(٤) سورة الصافات: الآيتان ٦، ٧.

ويقول ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (١).

والمقصود من الزينة أن تجذب – بشعور الإعجاب – أنظار المتطلعين إلى السماء: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٢).

من روعة الجمال المخبوء فى السماء لن يصدق الكافرون عيونهم وعقولهم – إن أتيح لهم رؤيته – عبر باب يفتحه الله من السماء عليهم (٣)، فيتمكنوا من العروج فيه، ومعاينة ما حجبه الله من فيض رحمته وبدائع صنعه. ومن شدة عنادهم وإصرارهم على الكفر سيزعمون – حينذاك – أن أبصارهم قد شربت خمر الجمال، ووقعت تحت تأثير السُكْر، وأن عقولهم قد أصابها السحر، فرأوا ما لا حقيقة له!!

إن الحقيقة أكبر من قدرة أفئدتهم (عقولهم) على المعرفة؛ ولذلك فقد سترها الله عنهم، وترك منها أثرًا على صفحة السماء الدنيا بالأبنية العظيمة التى أقامها فيها والزينةُ التى جَمَّلَ بها وجهها؛ لعلهم بهذه الزينة يتذكرون الجمال القديم الذى عاينوه أيام كانوا عند الله (٤).

---

(١) سورة الملك: الآية ٥.

(٢) سورة الحجر: الآيتان ١٤، ١٥.

(٣) انظر جيدًا إلى هذا التعبير: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾؛ لتتبين أنهم - هم أنفسهم - الذين كانوا مخبوئين فى السماء مغلق "عليهم الباب"، فلما فتح رأوا أنفسهم فى منازلهم القديمة بجنات عدن التى كانوا فيها قبل الهبوط، كما يرى الإنسان صورته فى المرآة، فلم يصدقوا أنفسهم، وكذبوا أبصارهم وأفئدتهم؛ بسبب كفرهم، وبقاء قلوبهم فى الظلمات، فتأمل!!.

(٤) يقول الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (سورة الأنعام: الآية ٢) الخلق – هنا – فى هذه الآية هو الخلق القديم، الذى خرجنا فيه – مباشرة – من الطين، ثم تقلبنا فى صور عديدة حتى اكتسبنا صورة آدم أو الهيئة الإنسانية، وبعد ذلك مر زمن طويل، لا يعلم مداه إلا الله، قضيناه فى السموات التى أنزلنا الله فيها كل حسب مقتضى الحكمة الإلهية. هذا هو المقصود بقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، يعنى: ثم حكم بمرور زمن، وذلك الزمن الذى حكم به=

يقول الله ﷻ داعيًا الناس إلى التذكر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [1].

(و) قوى المعرفة الإنسانية:

ولكن الزينة لا تخاطب العقل؛ لأن الجمال لا يقع فى نطاق ولا تحت سلطان العلم؛ إذ لا يخضع للاستدلال وإقامة البرهان، وإنما تتوجه الزينة بخطابها إلى الوجدان عبر أبواب الحواس، خاصة البصر والسمع.

وقد خاطب الله بالقرآن الكريم جميع قوى النفس الإنسانية الإدراكية، المكلفة بالمعرفة:

١- العقل (الفؤاد) المكلف بالعلم (الحق).

٢- الوجدان المنوط به الإحساس بالجمال.

٣- الضمير؛ حيث تكمن الحاسة الخُلُقِيَّة، أى واعظ الله فى قلب الإنسان، المكلف بتمييز الخير والعمل بمقتضاه، والذى نسميه فى لغتنا الدارجة "الضمير".

وجمع كل ذلك فى آية واحدة من سورة ق؛ حيث عاب على الكافرين غفلتهم عن النظر إلى السماء، وتبلد قوى الإدراك (المعرفة) فى نفوسهم المتكبرة المتمردة بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [2] .. سؤال استنكارى، يذم غفلتهم وتبلدهم، ويدعوهم إلى النظر إلى السماء فوقهم [3]؛ ليروا:

=كان محددًا فى علمه، وقد قضيناه عنده؛ أى كنا فيه عنده. ثم هبطنا إلى الأرض مع أبينا آدم؛ لنعانى حياة الابتلاء التى يقضيها الذين كفروا فى المراء، وقد نسوا ما كان، ورفضوا التذكر برفضهم الإيمان.

(١) سورة الحجر: الآية ١٦، ١٧.

(٢) سورة ق: الآية ٦.

(٣) قوله ﷻ: ﴿فَوْقَهُمْ﴾: لا يهدف إلى بيان مكان السماء؛ فهذا واضح، لا يحتاج إلى توضيح، وإنما المقصود دفع الناس إلى رفع رءوسهم من الأرض إلى السماء، فى إشارة حركية، ترمز إلى الارتفاع بالقلوب=

(١) كيف بنيناها؟!: سؤال موجه إلى العقل (الفؤاد)؛ من أجل أن يقوم بما كلفه الله به، وهو بناء العلم، أى تكوين صورة عقلية للكون داخل النفس الإنسانية، تكون بمثابة مرآة تتجلى على صفحتها حقائق الأشياء المشهودة بالحواس فى السماوات والأرض.

(٢) وزيناها؟!: أى "ولينظروا إلى السماء ليروا كيف زيناها؟، وهذا خطاب إلى الوجدان؛ لاكتشاف "سر" الجمال البادى للأبصار على صفحة السماء؛ ليتذكروا عالم الجمال الخالص الذى كانوا فيه قبل هبوطهم إلى هذه الأرض بمعصية آدم .. فالجمال (الزينة) دعوة إلى تذكر عالم الخلود، والشىء الجميل هو ما يستحضر لنا – من خلال صورته (شكله) – فى لحظة الرؤية الصافية، ذلك العالم القديم من الرحمة الخالصة التى لم تخالطها أية شائبة، والتى طَبَعَتْ فى بواطن نفوسنا (قلوبنا) صورتها، فصارت تلك الصورة المستورة فى أعماقنا هى المثل الأعلى للجمال، أو الحاسة التى نكتشف بها الجمال فى الأشياء.

وهى تلك الصورة التى تبقى مطموسة فى تراب الغفلة، أو مخفية وراء ستار النسيان؛ حتى يأتى الشىء الجميل – فى لحظة الرؤية الصافية أى فى التجربة الجمالية – فيزيل الغفلة أو يكشف الستار، فتتبدى لنا ملامح "المثل الأعلى" خارجة من الظلمات؛ إذ تستيقظ حاسة الجمال من رقدتها أو غفوتها على النور الذى أرسلته صورة الشىء الجميل إلى النفس المتذوقة، فتصعد – بالتذكر – من العالم الأرضى المشهود إلى العالم السماوى المنسى؛ عالم الخلود.

= (بواطن النفوس)، بما تحمله من قوى المعرفة، من الحياة الأرضية المادية (المحسوسة) إلى الحياة السماوية المنسية، والصعود من معرفة الخلائق إلى معرفة الخالق.

كما يهدف ﷻ إلى إشعار الناس بقرب السماء منهم؛ فإنها ليست بعيدة، فها هى فوقهم كأنهم لو مدوا أيديهم - بالمعرفة - إليها للمسوها، كما يهدف إلى حثهم على التساؤل: كيف صارت السماء فوقهم؟ وهل يمكن أن تقع عليهم؟؛ لعلهم يتذكرون قوله واصفًا نفسه ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ (سورة الحج: الآية ٦٥).

(٣) وما لها من فروج: يعنى "ولينظروا كيف أتقنا صنعها وأَحْكَمنا بناءها، فلم نجعل لها أية ثقوب تضعف قوتها، أو تقلل متانتها؛ فإنها بناء متماسك، قد حفظه بانيه الخالق البارئ المصور من التهاوى والسقوط، فحفظ بذلك حياة مخلوقاته على الأرض، وحماهم من الأضرار التى كان يمكن أن تصيبهم لو نفذت الأشعة الكونية ونواتج انفجارات النجوم من تلك الثقوب – لو كانت موجودة – وحماهم أيضًا من الضلال الذى كان يمكن أن يستولى عليهم لو تمكنت مردة الشياطين من النفاذ من تلك الثقوب – لو كانت موجودة – واستطاعت أن تصل إلى كلمات الله المسطورة فى "ذلك الكتاب" المخبوء فى السماء، فتخفيها، أو تفسدها وتُلْقِى بها مشوهة محاطة بالأكاذيب إلى بنى الإنسان، فيضلون بها طريق العودة إلى الجنة، ويندفعون إلى طريق الجحيم.

فلينظروا إلى رحمة الله بخلقه وعنايته بشئونهم، وإتقانه لعمله، وكل هذا خطاب موجه إلى ضمير الإنسان (الواعظ الذى أقامه الله فى قلبه)؛ ليقتدى بالله فى سلوكه، وهو ما يعنى الاجتهاد فى التخلق بأخلاق الله.

* * *

الفصل الثاني

التجــربة الجمـاليــة

(أ) الجمال كشف للحقيقة الباطنة فى صور الأشياء :

لا يقتصر الجمال على السماء، بل إنه يتسع ليشمل الأرض، كلا بل كل شىء على الأرض، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١).

﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: كل ما يحمله وجه الأرض من مخلوقات: تلال وجبال وأودية، وأنهار وأشجار وبحار، وشلالات تتساقط من المرتفعات، ونباتات ودواب ... كل هذه الكائنات قد خلقها الله وأنزلها على وجه الأرض ليجملها فى أعين الناظرين إليها، كما يزينون العروس لتحلو فى عين زوجها، فكل المخلوقات جميلة؛ إذ جعلها الله – بنص القرآن – زينة.

قال رسول الله ﷺ: "كل خلق الله حسن" (٢)، أى جميل؛ لأن الحُسْنَ هو الجمال المشهود.

وهذا ما أدركه كل الفنانين العظام عبر التاريخ فى كل الحضارات، وقد أحسن التعبير عنه المثال (النحات) الفرنسى المشهور "أوجست رودان"، عندما قال فى حديثه للفنانين الشبان، وهو ينصحهم ويعطيهم ثمرة خبرته الطويلة: "لتعلموا أن الطبيعة

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧.

(٢) حديث رقم ٤٥٢٢ فى كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير).

ليست قبيحة على الإطلاق، فحسبكم أن تقصروا كل همكم على الولاء لها. إن كل ما في الوجود جميل فى عينى الفنان؛ لأن بصره النفاذ يستشف فى كل موجود، وفى كل شىء ما فيه من شخصيته (ذاتيته)؛ أعنى تلك الحقيقة الباطنة التى تتبدى من وراء الصورة، وهذه الحقيقة هى الجمال بعينه. فلتكن دراستكم – إذن – بروح الإيمان والتدين؛ لأنكم عندئذ لن تعجزوا عن الاهتداء إلى الجمال ما دمتم – لا محالة – واقفين على الحقيقة" (١).

وقد كان تعليقى: "أليست كلمات هذا المثال (النحات) الفرنسى المشهور موعظة دينية بليغة، وتفسيرًا رائعًا لآية سورة الكهف (التى نحن بصددها)، وعلينا فقط أن نضيف إلى كلمات رودان أن الحقيقة التى تتبدى وراء الأشياء كلها هى الله الرحمن الرحيم؛ الذى وسعت رحمته كل شىء، وأن جميع الأشياء لا تبدو "جميلة" فى عين الفنان فقط (كما يقول رودان)، بل فى عين كل إنسان عندما يراها فى لحظات الصدق مع النفس، مستمعًا إلى النداء الداخلى المنبعث من قلبه، ناظرًا إلى الأشياء، متحررًا من قيود النفع والضرر؛ لأن ما يميز الفنان عن غيره من أبناء الإنسان ليس "الرؤية" الجمالية، بل القدرة على تصوير الجمال الذى يراه بعين الإنسان .. إنها قدرة "المصور" التى وهبها الله له فجعلته مستطيعًا أن يشكل ما يراه أو أن يصوغ ما يجده فى صدره فى قالب خارجى مصنوع من مادة تستطيع أن تحمل ملامح الصورة التى تكونت فى وجدان الإنسان" (٢).

ولقد عبر "بول سيزان" – أعظم المصورين فى العصر الحديث، والذى يعد علامة بارزة فى تاريخ الفن – عن إيمانه بأن وراء المظاهر العديدة للطبيعة إنما تكمن حقيقة واحدة تتمتع بالدوام والاستمرار، وأن ليس على الفنان سوى أن يحاول الكشف عن تلك الحقيقة التى تكمن وراء الظواهر السطحية المتغيرة. وعلينا أن نضيف لما

(١) كتاب "مشكلة الفن"، تأليف الدكتور زكريا إبراهيم، ص ٥٨.

(٢) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن، ص ٤٩، ٥٠.

قاله "بول سيزان" أن القرآن يعلمنا أن هذه الحقيقة الواحدة التى خُلق الفنان من أجل الكشف عنها هى الله الواحد، الذى له وحده البقاء والمجد" (١).

(ب) الجمال ابتلاء (فتنة) لقلب الإنسان :

ولقد أوضح الله ﷻ أن الحكمة وراء تزيين الأرض بكل ما عليها من أشياء هى ابتلاء (امتحان) البشر؛ ليستبين المحسنين منهم، ويتميزون عن المسيئين: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

إذن تذوق الجمال ابتلاء مهم يُمْتحَنُ به إيمان الإنسان وطاعته لله، بل هو أهم وأخطر امتحان يتعرض له قلب الإنسان؛ إذ يبدو – فى نور النص القرآنى الحكيم – أنه جوهر فتنة البشر فى هذه الحياة الدنيا. يقول الله ﷻ واصفًا نفسه فى القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (٢).

إن جوهر الحياة الدنيا هو تزيين الله للأرض بالكائنات، وجوهر الابتلاء هو فى فتنة الإنسان بالأشياء الجميلة: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (٣).

إن أول وأبرز خصائص الشىء الجميل، هو قدرته على الاستيلاء على وجدان المتذوق، ونفاذه إلى النفس الإنسانية واستحواذه عليها، بسلطان يعجز العقل عن فهمه أو تفسيره، ويكون الإنسان المتذوق – فى خضم التجربة الجمالية – فى حال من الوَحْدانية الوِجْدانية، التى من المحال أن يشارك فيها "الجميل" أى شىء آخر؛ مما يضفى على الجميل هالة من القداسة ترفعه – فى وجدان المتذوق – فوق أى شىء آخر من

(١) نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن، ص ٥٣، ٥٤.

(٢) سورة الملك: الآية ٢.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤.

الأشياء المعتادة التى يتعامل معها العقل فى الحياة اليومية أو الوقائع الأرضية، فيصبح للشىء الجميل طابع علوي؛ سماوى أو إلهي. ولذلك وجدنا لدى الإنسان دائمًا ميلًا عارمًا إلى تأليه الكائنات الجميلة، فكانت عبادة الأشياء الجميلة، أو بالأحرى مظاهر الجمال من أعرق الضلالات فى تاريخ البشرية.

وجميعنا نعرف كيف يضفى المراهق على حبيبته الجميلة – عندما يغرق فى لجة الحب أول مرة – هالة من القداسة، ويخلع عليها من الصفات ما يجعلها تشابه فى حسه أو وهمه الذات العلية ﷻ عند المؤمن والعارف بالله.

وتاريخ الآداب الإنسانية – عبر كل العصور – شاهد صدق على أن الشعراء قد ارتفعوا بمعشوقاتهم إلى مقام الألوهية أو قريبًا منه.

نحن – إذن – أمام ميل إنسانى جامح، لا يمكن - بالنظر إلى الواقع البشرى – إنكاره، ولكن المطلوب فهمه وتفسيره. وفى الحقيقة إننا نكون – فى مواجهة التأثير البالغ، أو السلطان النافذ الذى لا يقهر للجمال على نفوسنا – أمام مفترق طريقين: طريق الصعود أو الإعلاء وطريق الهبوط أو الانحدار.

فأما طريق الصعود فهو الارتفاع من الشىء الجميل إلى الله الخالق الجميل واهب الجمال؛ حيث يرى المؤمن – فى نور التجربة الجمالية أى عند تذوق الجمال – أن الجمال هبة من الله الخالق الرحمن، الذى وسعت رحمته كل شيء؛ إذ يتذكر المتذوق - بصورة الشىء الجميل - جنات الخلد التى كنا فيها قبل هذه الحياة الدنيا؛ حيث النعيم المقيم الذى لا تشوبه شائبة من العذاب أو الألم.

والجنة هى العين التى نرى بها الله؛ إذ يتجلى لنا هنالك؛ ولذلك يصدح الإنسان – فى خضم التجربة الجمالية – عندما يشتد إعجابه بشىء صائحًا "الله ... الله"؛ إذ لا يجد كلمة يعبر بها عن الجمال الذى عرفه من خلال التذوق سوى لفظ الجلالة "الله"!! يصدح به عند سماعه لقصيدة رائعة أو لحن شجى، أو عندما يرى مشهدًا خلابًا؛ قد يكون الشمس حين غروبها بالأفق، أو وجه امرأة حسناء، أو طفل يبتسم، أو لوحة قد أُتقن تصويرها.

ونفهم من هذا أن جوهر كل شىء، أو حقيقة جماله هى فى كشفه عن الله؛ الحقيقة المطلقة أو حقيقة الحقائق التى أشار إليها كل الفنانين العظام، وقد استمعنا – آنفًا – إلى كلمات "أوجست رودان"، و"بول سيزان".

ولذلك ليس من قبيل المصادفة أو العبث أن أعظم الأعمال الفنية على مستوى الإنسانية وفى كل العصور، كانت تلك المرتبطة بالدين، والتى تتناول العقائد.

هذه هى حقيقة الحقائق فى تاريخ الفن على وجه الأرض، بدءًا من الحضارة المصرية القديمة وحضارة بلاد الرافدين والشام، ومرورًا بالحضارة الإسلامية، التى قدمت لنا على سبيل المثال أروع الأعمال الفنية فى المساجد: عمارتها وزخرفتها والزجاج الملون على نوافذها، والبُسُط، والسجاجيد المفروشة على أرضها.

وانتهاءً بالحضارة الغربية المسيحية المعاصرة، التى كانت أعظم منتجات الفنانين التشكيليين (المصورين) فيها تدور حول المسيح وأمه وآلامه وقصص الأناجيل.

وأما طريق الهبوط فينحدر بالإنسان عندما يعجز المتذوق للجمال عن أن يصعد به إلى مصدره الحقيقى؛ ومن ثم فلا يجد مفرًّا من تأليه الشىء الجميل أو مظهر الجمال؛ لأن سلطانه النافذ على النفس الإنسانية يتجاوز قدرة العقل على الفهم والتفسير، وهكذا يهوى الإنسان إلى الوثنية والإشراك؛ حيث يعبد تلك الصور التى خلبت لبه، واستحوذت على وجدانه بتأثيرها "السحرى" الخفى.

وبين الصعود والهبوط أو بين التوحيد والإشراك، تتفرق السبل التى تعبر عن حيرة الإنسان أمام فهم الجمال، وإدراك "سر" الشىء الجميل؛ تلك الحيرة التى أفصحت عن نفسها فى الاضطراب الشديد الذى أصاب عقول الفلاسفة والمفكرين، عندما حاولوا – بعقولهم – فهم الجمال وسبر أغواره، وأسفر ذلك عن الاختلافات العميقة، بل التضارب والتناقض بين المذاهب الفلسفية المختلفة التى تناولت الجمال والفن [١].

---

(١) يراجع على سبيل المثال كتاب "مشكلة الفن"، وكتاب "فلسفة الفن فى الفكر المعاصر"، وكلاهما من تأليف الأستاذ الدكتور/ زكريا إبراهيم، ونشر مكتبة مصر بالفجالة، القاهرة.

وهكذا يتبين لنا عمق نظرة القرآن الكريم، وصحة رؤيته، عندما وصف زينة (جمال)[١] الأشياء على الأرض بأنها ابتلاء للإنسان، يُمتحن به الإيمان فى القلب. فكما رأينا قد يكون الجمال طريقًا صاعدًا إلى التوحيد، بقدر ما يكون منزلقًا للتردى فى هاوية الإشراك والوثنية، وبين القطبين المتنافرين تتناثر استجابات مقام الحيرة.

(ج) سر الشىء الجميل:

ويفضى بنا هذا إلى محاولة الكشف عن "سر" الشىء الجميل، وبيان الصفة الجوهرية أو الخاصية التى تهب الشىء الجميل ماهيته.

يقول جورج سانتيانا الفيلسوف الأمريكى ذو الأصل الإسبانى الذى ألف كتابين فى بحث الجمال والفن، هما: "الإحساس بالجمال"، و"العقل فى الفن" .. يقول: "إن أشد الأشياء مادية، حينما نشعر أنه جميل، سرعان ما يفقد طابعه المادى، لكى يعلو على مستوى العلاقات الشخصية الخارجية، ويصبح متركزًا متعمقًا فى صميم وجوده .. أعنى بإيجاز – أنه يخضع لعملية "تصعيد" أو "إعلاء" يستحيل معها إلى ماهية"[٢].

إنه يعبر - بلغة فلسفية اصطلاحية - عن الشعور الإنسانى اللطيف الذى يتولد من تذوق الجمال؛ إذ ينبعث إحساس عميق من القلب (باطن النفس الإنسانية)، بالتوافق مع الشىء المُعَاين موضع التذوق، وهو إحساس جارف، يفضى إلى الرغبة الشديدة فى

(١) عندما يصف الله فى القرآن جمال الأشياء بأنه "زينة"؛ فإنه ﷻ يشير بهذا التعبير إلى أن الجمال صفة أضيفت إلى الأشياء، أو خُلعت عليها من الله الخالق ﷻ؛ فهى صفة حقيقية ذات وجود موضوعى فى الأشياء، ليس كما يتوهم الفلاسفة إضافتها وهمًا أو تخيلًا إلى نفس الإنسان المتذوقة للجمال؛ بل فاض بها الله على الأشياء، فسكن الفيض (السر) الإلهى فى صور الأشياء، ومنحها الجمال الذى يشير – عند التذوق فى التجربة الجمالية – إلى الخالق ﷻ واهب الجمال.

والجمال – إذن – حقيقة موضوعية، موجودة فى الأشياء خارج النفس الإنسانية المتذوقة؛ لأنه يستند إلى فعل إلهى فى الأشياء وليس وهمًا إنسانيًّا تعكسه النفس على الأشياء التى تحكم بجمالها، كما توهم كانط، وغيره من الفلاسفة عبر العصور.

(٢) كتاب "فلسفة الفن فى الفكر المعاصر"، الفصل الثالث.

الاتصال والاندماج، أى فى الذوبان والتوحد مع الشىء الجميل فى عالم أو كون آخر، يتجاوز إطار العالم أو الكون المشهود بالحواس الجسمية والعقل النفعى، وهو ما يعنى أن الشىء الجميل يجذبنا إلى عالم آخر غير الذى نشهده فى معيشتنا اليومية المعتادة.

ولذلك فعندما نريد وصف الأشياء الجميلة – التى تحوز إعجابنا وتُرْضِى وتشبع حاسة الجمال المودعة فى قلوبنا – لا نجد بدًّا من نسبتها إلى السماء؛ أى العالم العلوى الذى يرتفع فوق حياتنا الأرضية. هكذا نجد وسائل الإعلام والعوام يتكلمون عن "نجوم" الفن ونجماته، ويصفون المطربة التى حازت الإعجاب، وأجمعوا على جمال صوتها بأنها "كوكب الشرق". ولا يقتصر الأمر على العوام ووسائل الإعلام، بل إننا نجد أن هذه الحقيقة الوجدانية تفرض نفسها على الفلاسفة والمفكرين، حتى الذين ينكرون الغيب ولا يؤمنون بالآخرة والحياة بعد الموت.

فها هو الشاعر والناقد وعالم الجمال ومؤرخ الفن، وأحد ألمع الوجوه فى الثقافة الفرنسية المعاصرة والأوربية بصفة عامة "بول فاليرى" - يقدم لنا فى دراسته عن فن المعمار تقسيمًا جماليًّا للأبنية إلى ثلاثة أنواع أو ثلاث درجات، طبقًا لمدى تحقيقها للقيم الجمالية، أى لاتصافها بالجمال.

(١) النوع الأول: هو الأبنية الخرساء:

إنها أبنية قبيحة لا تستحق منا إلا الازدراء، إنها الأبنية الميتة التى لا تحدثنا حتى عن وظائفها؛ أى أنها لا تخبرنا لماذا بُنيت؛ فإن بناءها أو تشكيلها لا يتفق مع وظائفها التى أنشئت من أجلها؛ يعنى بعبارة واحدة: لقد بنيت كيفما اتفق!!

(٢) النوع الثانى: هو الأبنية الناطقة:

إنها المبانى التى يتفق بناؤها أو تشكيلها مع وظائفها؛ فهى تحقق بصورتها الغاية التى أنشئت من أجلها، وهى تنطق لنا بهذه الغاية (الوظيفة)، بمجرد أن ننظر إليها متأملين، حتى لو كنا جاهلين بفن المعمار.

(٣) النوع الثالث: هو الأبنية الصداحة، التى تغنى أو تنطق بالشعر:

إنها أبنية الفن وحده، فهى تلك الآثار الرائعة التى تصدح بموسيقى سحرية صافية، كأنما هى أنغام سماوية قد صنعت من حجارة!! فنحن – هنا – بإزاء أبنية لا تحدثنا عن وظائفها، ولا تكاد تثير فى نفوسنا أى إحساس؛ بما لها من فائدة أو منفعة، بل كل ما فيها يصدح بموسيقى خاصة، تمزج الجمال بالجلال.

لننظر – هنا – كيف لم يجد "بول فاليرى" كلامًا يصف به جمال الآثار المعمارية الرائعة سوى قوله "كأنما هى أنغام سماوية قد صنعت من حجارة"، ها هو ينسب الشىء الجميل المصنوع من صخور هذه الأرض إلى السماء. ولنتذكر أن "بول فاليرى" لم يكن رجلًا متدينًا، فضلًا عن أن يكون صوفيًّا عارفًا بالله، ولكنه لم يملك – أمام الحقيقة الناطقة – إلا أن ينسب الجمال إلى السماء، كاشفًا - دون أن يدرى أو يريد - "سر" الجمال الإلهى[1].

وكذلكم فعلت النسوة اللاتى اجتمعن فى بيت العزيز – بدعوة من امرأته العاشقة لعبدها يوسف – حينما أردن وصف جماله فقلن: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾؛ إذ لم يجدن مفرًّا من نسبته إلى السماء، فأفصحن عن اعتقادهن بأنه كائن سماوى يفيض الرحمة، قد ارتدى صورة إنسان.

(د) خصائص التجربة الجمالية :

ولقد ألقى القرآن الكريم نورًا باهرًا كشف أسرار التجربة الجمالية، مبينًا – من خلالها – خصائص الشىء الجميل، فى آية واحدة من سورة يوسف، جمع فيها - بإيجاز معجز لا يقدر عليه غيره – كل الحقائق التى حام حولها الفلاسفة والمفكرون – عبر العصور – وملأوا فى بحثهم عنها آلاف الصفحات. يقول الله ﷻ فى هذه الآية:

---

(١) كتاب "نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن، ص ٣٥، ٣٦.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

والتأمل فى هذه الآية البديعة يكشف لنا عن الحقائق الآتية التى تبين خصائص الجمال والتجربة الجمالية.

(١) الموضوعية:

لقد أيقنت المرأة العاشقة أن جمال (حُسن) يوسف حقيقة موضوعية كامنة فى صورته، أى هى باطنة فى كامل بنيانه، وأن تلك الحقيقة الكامنة فى الصورة - أعنى "الجمال" - قائمة خارج ذاتها العاشقة المتلهفة على الاتصال بهذا الرجل الذى شغفها حبًّا؛ ولذلك فإنها كانت على يقين تام بأن صورة يوسف سوف تُحدِثُ – لا محالة – تأثيرها فى النسوة اللاتى نهشن عرضها، ولُكْنَ بألسنتهن سيرتها، وأنهن سوف يشعرن – مثلها – بجماله، وسوف يخضعن لسحر صورته؛ ولذلك أعدت لهن ذلك المشهد الرائع الذى وصفته الآية القرآنية البديعة؛ لتبرهن على موضوعية الجمال، وأنه ليس كما توهم الفلاسفة والمفكرون الذين أجمعوا على أن الجمال صفة الذات المتذوقة تفيض بها، أو تخلعها على الشىء الجميل، وتتوهم – على حد زعمهم – أنها منبعثة من الشىء الذى جعلته موضوعًا لتجربتها الجمالية.

وجاءت تجربة امرأة العزيز بنتيجة إيجابية بالغة الوضوح؛ إذ أحس جميع النسوة بجمال يوسف، واستجبن له بالطريقة نفسها، وصدر عنهن السلوك نفسه؛ مما يقطع بموضوعية الجمال ووجوده فى الأشياء خارج النفس (الذات) التى تتذوقه.

ولقد اضطربت عقول كبار الفلاسفة أمام حقيقة موضوعية الجمال؛ فبينما نراهم يجمعون – بحق – على أن الحكم بالجمال يجب أن يكون كليًّا أى موضوعيًّا، لا يعود

(١) سورة يوسف: الآية ٣١.

إلى أسباب شخصية أو علاقات خاصة أو منافع تتحقق للذات التى تحكم به، نجدهم ينكصون على أعقابهم أو يُنَكِّسُون رءوسهم، فيدَّعون – فى الوقت نفسه – أن الحكم الجمالى حكم منعكس، لا يقع على الأشياء الخارجية، وإنما يقع على الذات نفسها وما يجرى بها إزاء الأشياء الخارجية، فمصدره الذات لا الموضوع !!

إن مصدر الخطأ يكمن فى أنهم قد بدأوا تفكيرهم من عقل الإنسان فى مواجهة أشياء الطبيعة، وليس من الله الخالق ﷻ الذى صدرت الأشياء عن إرادته وحكمته ورحمته؛ ومن ثم كان لابد أن تحمل الأشياء المخلوقة فى صورتها فيض أسمائه الحسنى، وهذا هو ينبوع جمالها. ولما كان الجمال مفهومًا غير عقلى – إن صح التعبير – إذ يعجز العقل عن إدراكه؛ لذلك طاش صواب الفلاسفة حينما بدأوا منه [(١)].

(٢) الحرية:

عندما أرادت امرأة العزيز أن تُدخل النسوة فى تجربة جمالية حقيقية، فإنها عمدت إلى إعداد الظروف التى تجعل هؤلاء النساء مهيئات لإدراك الجمال، فماذا فعلت؟ ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [(٢)]. قامت بتجهيز غرفة واسعة من غرف قصرها بالأرائك الوثيرة التى يرتاح الجالسون عليها أو يتكئون (يضطجعون)، ووضعت الموائد، وعليها الأوانى الفخمة المزخرفة، التى لا تأمر بخروجها إلا فى المناسبات المهمة، وملأتها بأجود أنواع الطعام والفاكهة ذات الألوان البهيجة والروائح المثيرة للشهية، وبين الصحاف العامرة وضعت الأكواب الرائعة التى تناثرت على الموائد تناثر النجوم على صفحة السماء، وأخرجت أدوات الأكل الثمينة: ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾.

---

(١) انظر كتاب "نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن"، ص ٤١ – ٤٧.

(٢) الترتيب الواقعى العقلى كان يوجب أن يقول "واعتدت لهن متكئًا وأرسلت إليهن"؛ لأن إعداد المتكأ سبق – لا محالة – الإرسال، ولكن الحكيم البديع المتكلم فى هذا القرآن غير الترتيب، فقدم وأخر قائلًا: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾؛ للدلالة على تعجلها الإيقاع بهؤلاء النسوة اللاتى أكلن لحمها بألسنتهن. ولنا بإذن الله مع هذه الآية وسورة يوسف وقفات؛ للدلالة على جمال هذا القرآن البديع، الذى لا يشبهه شىء فى الأرض ولا فى السماوات.

علينا أن نتصور - بعين الخيال - أنها حاولت قدر وسعها أن توفر كل أسباب الراحة فى ذلك المتكأ؛ حتى تتيح للنسوة أن يتفرغن لرؤية "يوسف"، وأن يشحذن حواسهن ويوقظن شعورهن لتلقى فيض الجمال من صورة فتاها الفتان.

إن التحرر من ضغوط حاجات الجسد، ومن أسباب المشقة والألم، شرط ضرورى لإدراك الجمال، "والمتكأ" الذى أعدته المرأة رمز لهذا التحرر الإنسانى ..

فلا يمكن لجائع أو ظامئ أو خائف أو متألم أو مريض أو محصور - يعانى من الحاجة إلى التبول أو التبرز- لا يمكن لأى واحد من هؤلاء أن يتكئ، أى يجلس مرتاحًا، يتأمل فى صور الأشياء، فلا يتكئ إلا الذين أُشبعت حاجات أجسادهم، ونالت شهواتهم ما أرضاها، فلم تعد تضغط على نفوسهم حاجة أو ضرورة.

كان لابد للنسوة أن يكن قادرات على الاتكاء؛ حتى يُمْكِنهن إدراك الجمال، ولذلك وصف الله المؤمنين المنعمين فى الجنة بأنهم متكئون على الأرائك؛ ولذلك يكون بوسعهم تذوق الجمال الذى يفيض عليهم من الجنان التى أعدها لهم الرحمن.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[1].

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾[2].

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾[3].

إن جوهر النعيم فى الجنة التى وعدها الله عباده المؤمنين، أن الإنسان يصبح فيها حرًّا كامل الحرية – بمعنى الكلمة – إذ لا يعوزه شىء، فهو ينال ما يريد بمجرد توجه

---

(١) سورة الكهف: الآية ٣١.

(٢) سورة يس: الآيتان ٥٥ ، ٥٦.

(٣) سورة الإنسان: الآيتان ١٢، ١٣.

مشيئته إليه. وهكذا نفهم أن امرأة العزيز كانت مثل المخرج المسرحى أو السينمائى الذى يقوم بإعداد المشهد أو المنظر الذى يهيئ الجمهور المتذوق لتلقى الجمال، وأنها كانت تحاول أن تستحضر – فى المتكأ الذى أعدته – صورة من عالم يخلو من الألم يُذكر القلوب بجنات عدن التى كنا فيها قبل هذا الابتلاء.

وقد امتن الله علينا – معشر البشر – بأن أودع الجمال فى صور الأنعام التى خلقها من أجلنا وسخرها لنا، وأشار فى القرآن إلى وقتين يمكننا فيهما أن نطلب الجمال، وهما وقت الغدو ووقت الرواح، فقال: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾(١).

﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: هو وقت الرواح، أى العودة إلى البيوت فى المساء، بعد زوال النهار وقرب الغروب، وهو وقت الاستعداد للراحة بعد انقضاء عمل اليوم. ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: هو وقت السراح، أى بدء الخروج إلى العمل فى الصباح الباكر قبل إشراق الشمس، حيث ينبعث الأمل فى يوم طيب ملىء بالرزق الوفير، ولم ينشغل القلب – بعد – بمشقة العمل وأعباء السعى على المعيشة.

والمقصود أن هذين الوقتين يتحرر الإنسان فيهما من الانهماك فى مشاغل تحصيل الرزق؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يجد الجمال إلا حيث يفرغ صدره من مطالب الجسد ومشاغل المعيشة، كما لا يمكن أن يقوم لله عابدًا راغبًا فى وصاله إلا إذا فرغ صدره مما يشغله عنه: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (٢).

وعلينا أن نتذكر – هنا – أن هذين الوقتين اللذين أشار الله علينا بطلب الجمال فيهما هما – على وجه التحديد – اللذين أمرنا فيهما بذكره وتسبيحه.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦.

(٢) سورة الشرح: الآية ٧، ٨.

فقال: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [(١)] .. يعنى سبحوه فى المساء والصباح.

وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[(٢)].

وقال: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [(٣)].

وقال مخاطبًا زكريا عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [(٤)]. والمغزى وراء كل هذه الآيات - وغيرها - أن إدراك الجمال وتذوقه فى الكائنات سوف يُفضى – لا محالة – بالمؤمن إلى معرفة الله وتسبيحه.

(٣) الإدراك الحسى الخالص:

من المؤكد أن النسوة اللاتى اجتمعن حول الموائد، ظللن يفكرن لوقت طويل فيما عساه أن يكون ذلك الفتى العبد الذى بهر سيدته التى تملكه، وكيف "سحرها" حتى جعلها تضرب عرض الحائط بكل الأعراف التى ينبغى احترامها.

ومن المؤكد أن التطلع "لرؤيته" ومعرفة "ما فيه"، كان هو الهدف الذى يستحوذ على إرادتهن؛ ولذلك فعندما استدعته امرأة العزيز: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وأمرته أن يتولى خدمة السيدات فى ذلك المتكأ، فأخذ يتهادى بينهن، ويصب لهن الشراب فى الأقداح الفارغة أمامهن، فإنهن قد أخذن يصوبن عليه نظرات مدققة متأنية غير عجلى، تحاول أن تتبين ملامحه، كأنها مصابيح كاشفة تضىء كل شىء فيه، حتى التفاصيل الصغيرة التى يغفل الإنسان - غالبًا - عن الالتفات إليها فى رؤيته المعتادة الرتيبة، وهو ينظر إلى الأشياء التى يقابلها فى معيشته اليومية.

---

(١) سورة الروم: الآية ١٧.

(٢) سورة ق: الآية ٣٩.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٢.

(٤)سورة آل عمران: الآية ٤١.

لا شك أن النسوة قد أَمْعَنَّ النظر وأطلن التحديق فى صورة يوسف، راغبات فى اكتشاف كل شىء فيه: نعومة شعره، ولون بشرته، وملامح وجهه، ولون عينيه وسعتهما، وطول رموشه، وقوامه ومشيته، وفى كلمة واحدة صورته كلها بجميع تفاصيلها.

ولا شك أيضًا فى أنهن قد أخذن فى مقارنته بغيره من الرجال؛ ابتغاء التعرف على ما يميزه، أى شخصيته، أو ذاتيته الباطنة فى صورته، أو التى تعبر عنها صورته، وهذه هى الرؤية الصافية التى تصبح غاية فى حد ذاتها، ولا يشاركها هدف آخر.

ولا شك فى أن هذه الرؤية الصافية كان يصاحبها تأمل عميق، يحاول الوصول إلى "سر" هذه الصورة، أى الحقيقة الباطنة فى هذا الشكل، ويحاول الإجابة عن سؤال: لماذا هو جميل؟ وهذا هو المقصود بالإدراك الحسى الخالص الذى يمكن به وحده إدراك الجمال فى الأشياء، سواء مخلوقات الله فى الطبيعة، أو مخلوقات الإنسان فى الفن.

ولا شك فى أن موقف أولئك النسوة اللاتى اجتمعن حول الموائد فى بيت العزيز، كان على النقيض من موقف رجال القافلة الذين التقطوا يوسف من الجب: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ (١).

ولذلك فإن أولئك الرجال لم يتطلعوا إلى ملامح وجهه، ولا عرفوا لون عينيه؛ لأنه بالنسبة إليهم كان عبئًا ثقيلًا؛ عليهم إطعامه وحمايته حتى يصلوا به إلى السوق، ثم صار شيئًا نافعًا أو سلعة يمكن أن يبيعوها ويحصلوا على قدر من المال.

والخلاصة أن يوسف كان – بالنسبة إلى رجال القافلة – مجرد وسيلة لتحقيق هدف آخر؛ ومن ثم فلم يكن شيئًا مطلوبًا لذاته، ولم تكن "رؤيته" غاية مقصودة، على العكس من موقف النسوة اللاتى استولت عليهن إرادة الرؤية، أى الإدراك الحسى الخالص، فَتَمَكَّنَّ من إدراك الجمال الكامن أو الكائن فى الصورة.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٠.

وهذه هى خلاصة مذهب الفيلسوف الفرنسى "هنرى برجسون"، الذى أقام مذهبه الجمالى على مفهوم "الإدراك الحسى الخالص"؛ إذ إن الفن – عنده – ينشأ من رؤية الأشياء كما تتبدى فى كامل خصائصها للحواس، التى ننفض عنها غبار ضرورات الجسد ومطالب المعيشة، التى تكون بمثابة أغطية أو كمامات تعمى حواسنا عن خصائص الأشياء وتفاصيلها الدقيقة، وتفردها (تميزها) عن مثيلاتها، فلا تدعها تعرف – فى حياتنا اليومية المعتادة الرتيبة – إلا الجوانب التى تهم العقل النفعى.

ولقد اقتفى "برجسون" فى مذهبه هذا أثر الفيلسوف الألمانى "شوبنهور"، الذى ميز بحسم بين نظرتين، أو بالأحرى رؤيتين للعالم: الأولى تراه أو تدركه كإرادة تطلب تحقيق أهداف، وهذه هى رؤية الغالبية العظمى من الناس، التى ينحبس عقلها فى سجن المنافع والضرورات ومطالب الجسد، والتى ينحصر إدراكها الحسى فى تلك الحدود.

والرؤية الثانية: هى رؤية العالم كفكرة، وهذه هى رؤية الخواص أو العباقرة والفنانين[١].

ولقد ضَرَبْتُ من قبل[٢] مثلًا يوضح الرؤيتين بالفلاحة التى تدخل حظيرة الدجاج لتختار ديكًا تذبحه ليكون طعامًا لزوجها وأطفالها عند العشاء؛ فليس فى وسع هذه المرأة ولا لديها الرغبة فى أن تتوقف عند ألوان ريش الديك، ولا أن تدرك – بالتالى – جمال الألوان وتناسقها؛ لأنها تكون مشغولة بالتفكير فى إعداد طعام العشاء، أى تفكر فى إعدام الديك؛ لأنها تنظر إليه كوسيلة لا غاية.

وذلك على النقيض من موقف الفنان المصور "بيكاسو" الذى أوحى إليه الديك بواحدة من أجمل لوحاته؛ لأنه قد نظر إلى الديك باعتباره غاية مقصودة لذاتها، وليس مجرد وسيلة إلى غاية أخرى؛ ومن ثم فقد أخذ يمعن النظر إلى صورته، ويحدق فيها

---

(١) انظر الفصل الأول من كتاب "فلسفة الفن فى الفكر المعاصر"، وكتاب "مشكلة الفن"، ص ١٨٧.

(٢) ص ١٨ من كتاب "نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن".

ويكشف – بنور الرؤية الصافية أو الإدراك الحسى الخالص – تفاصيلها الدقيقة، وهكذا كان بوسعه أن يكتشف ما فى صورة الديك من جمال، أثار الانفعال فى وجدانه، أو أنار صدره، ووصل النور إلى قلبه فأيقظ حاسة الجمال، وأضاء المثل الأعلى الكامن هناك، وحدثت اللذة (المتعة) الجمالية، التى أحب الإنسان أن يبقيها ويديمها، أى يمنحها الخلود، فأخرجها فى قالب مشهود، هو العمل الفني.

ولما كان الفنان قد أوتى القدرة على تصوير ما يجد فى صدره، مخرجًا إياه فى قالب مادى محسوس، يمكنه الخلود، أى البقاء عبر الزمن، ويمكن تأمله ليعطى اللذة (المتعة) الجمالية كلما طلب الإنسان تذوق الجمال؛ لذلك يندفع الفنان إلى تجسيم رؤيته أو التعبير عما يضيق به صدره ولا ينطلق به لسانه؛ لأن الحقيقة التى كشف عنها تذوق الجمال لا يمكن التعبير عنها بمجرد الكلام؛ لأنها تتجاوز قدرة العقل على الفهم والتفسير؛ ومن ثم يعجز اللسان عن التعبير عنها؛ لذلك يلجأ الفنان إلى الخطوط والألوان – كما فعل بيكاسو عندما صور لوحة الديك – أو إلى الإيقاع والألحان، أو إلى أصوات الكلمات، وغيرها من المواد والوسائل التى يتكون منها العمل الفنى أو الكائن الجمالى الذى يبدعه الإنسان.

إن النفس المتذوقة تضىء صفات الصورة بالإدراك الحسى الخالص أو الرؤية الصافية، فتكشف ما فى الشىء من جمال، وفى الوقت نفسه، فإن الجمال الكامن فى الشىء يضىء المثل الأعلى الكامن فى باطن النفس، وفى هذا التنوير المتبادل بين النفس المتذوقة والشىء الجميل موضع تذوقها، يتم الشعور بالجمال، أو تحدث اللذة الجمالية.

(٤) الدهشة:

ماذا يحدث فى النفس الإنسانية عندما تتذوق الجمال؟

إن الشىء الجميل يخلق لدى النفس المتذوقة حالًا من الاستغراق فى المشاهدة، يصحبها تأمل وجدانى عميق، وتجرى فى النفس كل الحركة التى وصفناها – آنفًا –

حيث يُثَار الوجدان أو يُضَاء الصدر بالانفعال، وتستيقظ حاسة الجمال؛ إذ يخرج المثل الأعلى من الظلمات فى نور الانفعال، وتنساب الذكريات والعواطف والانفعالات الملتفة حولها، وتفور الأفكار والأسئلة، وتنطلق الأخيلة ..

كل ذلك يجرى على مقربة من العقل (الفؤاد الكامن فى مركز النفس)، الذى يقف شاهدًا على ما يحدث، دون أن يستطيع الفهم أو التفسير، فينجلى الموقف عن دهشة عارمة؛ إذ يسفر عن مفاجأة عندما يدرك العقل أن الشىء الذى ينظر إليه ليراه، قد انطوى على ما لم يخطر له من قبل، فيتولد الشعور بالإعجاب والتبجيل، الذى يرفع قدر الشىء موضوع التذوق الجمالى فوق ما كان يُظن أو يُتصور؛ إذ يصبح للشىء طابع إلهى أو علوى مقدس، وهو الشعور الذى وصفه القرآن الكريم بكلمة واحدة هى الإكبار: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾، أى شَعُرْنَ أنه أكبر مما كان يُظن أو يتصور بالعقل؛ ومن ثم لابد أن يرتفعن به ومعه إلى عالم علوى أو كون آخر، يتجاوز ويتسامى فوق هذا العالم المشهود، أو هذه الحياة الدنيا التى نعيشها بالأجساد.

"هل هو إلٰه تجسم فى صورة رجل؟!" .. سؤال أو فكرة تخطر فى سماء النفس المضطربة المفعمة بالانفعال؛ لكن العقل يرفض الوثنية وتعدد الآلهة، وفى الوقت نفسه، فإن الوجدان ينكر أن يكون هذا الجميل مجرد بشر!!

وعبر القرآن الكريم على لسان النسوة عن هذه المعضلة الفكرية أو اللغز الوجودى بقوله: ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (١).

---

(١) هذا القول الذى نطق به الله ﷻ على لسان النسوة، يشير إلى أن روح الإنسان، أى سر الحياة الذى نزل فى الجسد، وأعطاه هيئة آدم أو الصورة البشرية إنما يكون – فى ماهيته أو جوهره – ملكًا (ملاكًا) قادرًا على الحياة فى السماء؛ فهو طائر روحى سماوى، خرج من فم "روح الله" على هيئة نفخة حملت نَفْسَ الإنسان – التى كانت كلمة مودعة فى الكتاب المبين - إلى الجنين المحبوس فى الرحم، فأنشأته خلقًا آخر، ووهبته هيئة آدم أو صورة الإنسان. ونفهم من هنا أن النسوة اللاتى تكلم الله على ألسنتهن فى سورة يوسف لم يتجاوزن الحقيقة، بل أشرن إليها حينما قلن – لتفسير جمال يوسف – إنه فى باطنه ليس إلا ملكًا كريمًا، تسربل فى هذه الحياة الدنيا بصورة الإنسان؛ ومن ثم فإن "الروح" واهب الحياة هو مصدر الجمال فى كل الكائنات.

تنزه الله عن أن يكون له شريك وعن أن يتجسم فى صورة إنسان، ولكن محال أن يكون هذا الجميل مجرد رجل مخلوق من الطين؛ فماذا يكون إذن؟! لم يجدن إجابة إلا برفعه إلى السماء، واعتباره ملكًا يفيض بالرحمة التى تتجلى لنا فى الجمال.

ولا شك فى أن حال الدهشة التى تستغرق النفس الإنسانية عند خوض التجربة الجمالية، تعنى استلاب الشىء الجميل – بمفرده – على النفس الإنسانية – وهو ما أسميناه بالوَحْدانية الوجْدَانية – ودفعها برفق ولطف إلى عالم آخر، يسمو فوق هذا الواقع الذى يعيش فيه الجسد؛ ومن ثم فإن النفس ترتفع فوق هذه الحياة اليومية المعتادة.

وهو ارتفاع يثمر لذة أو ينتج متعة، هى متعة الكشف عن الحقيقة، وتذكر النعيم الخالد القديم؛ مما يجعل النفس الإنسانية تنسى أو تعمى عن الألم الجسدى (المادى)، ويجعل العقل يفقد سيطرته الحاكمة على الجسم إلى حين، وهو المعنى الذى عبر عنه القرآن الكريم أحسن تعبير بقوله: "وقطعن أيديهن"، يصف تقطيع النسوة

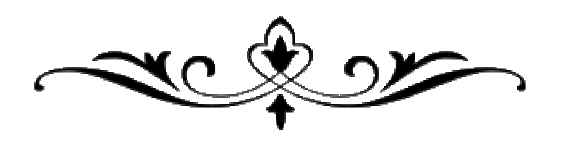
وقد أشارت الشريعة إلى حقيقة أن روح الإنسان ليس إلا ملكًا من الملائكة، بفريضة الصوم، الذى يفرض فيه الله على الإنسان أن يمتنع عن الطعام والشراب والجماع فى نهار رمضان، وهو ما يعنى أن يعيش الإنسان مثل الملك فى صحبة النور؛ لأن الملائكة لا يأكلون ولا يتناكحون.

واللافت للنظر أن الله ﷻ قد فرض الصوم فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن، أى أنزل فيه الوحى (كلام الله)، يحمله الملائكة. ومعلوم من الحديث النبوى الشريف أن وحى الله إلى جميع أنبيائه قد نزل أيضًا فى شهر رمضان، الذى يعد - من ثم - هو الشهر الذى يتصل فيه الإنسان بالملائكة، يتلقى منهم ويفهم عنهم، وهو ما يعنى أنه يصير واحدًا منهم؛ ففى مقام الوحى يظهر الملك الكامن فى الإنسان، الذى يصبح قادرًا على مخاطبة إخوته الملائكة. انظر إلى قوله - تعالى - على لسان مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (سورة مريم: الآية ٢٦)، فإذا كانت عازمة - بموجب الصوم الذى نذرته - على الامتناع عن كلام الإنس، فيكون بمفهوم النص أنها قادرة - بموجب الصوم - على الكلام مع غير الإنس، أى مع الملائكة؛ لأن الصوم قد حرر الملك (الروح) المحبوس - كالطائر - فى قفص الطين، الذى نسميه الجسد.

لأيديهن بالسكاكين دون أن يلتفتن إلى حركة أيديهن وهى تمسك بالسكاكين، ودون أن يشعرن بالألم، أو يرين الدم وهو يسيل من الجروح؛ لأنهن كن مستغرقات فى الدهشة [١].

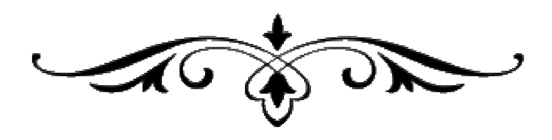
* * *

(١) قد يذكرنا هذا المشهد القرآنى البديع بقول الفيلسوف الألمانى "شوبنهور": إن الفن أداة للتحرر المؤقت من الألم.



الباب الثاني

جمال القرآن



الفصل الثالث

القرآن الكريم أجمل الكائنات

(أ) القرآن هو تجلى الله فى الدنيا :

لقد أعلن الله ﷻ عن مجده، عندما أوفى بعهده، فأنقذ المستضعفين المضطهدين من بنى إسرائيل فى أرض مصر، وأهلك الملك الجبار المتأله وجنوده فى اليم، الذى انشق بيد الله؛ ليبتلعهم فى جوفه المظلم، حين صار فى وسط البحر طريقًا يابسًا، فاندفع بنو إسرائيل يقودهم رسول الله النبى موسى بن عمران عليه السلام، يعدون بأقصى جهدهم على الطريق الذى مهده الله لهم فى قعر البحر، يريدون الفرار من بطش فرعون الذى أسرع وراءهم؛ يريد اللحاق بهم، والقبض عليهم؛ لينتقم منهم أسوأ انتقام؛ عقابًا لهم على تمردهم وإهانتهم لكبريائه، ممنيًا نفسه أن يجعل منهم عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على طاعته.

كان بنو إسرائيل يتدافعون يريدون النجاة، والرعب يملأ قلوبهم أن يتمكن "فرعون" من الإمساك بهم، وفرعون وجنوده يندفعون وراءهم، والماء على الجانبين يقف ثابتًا كالجبل العظيم، حتى دخلت مؤخرة جيش فرعون الطريق فى قلب البحر، وحينئذ تصدع – فجأة – جبل الماء على كل جانب، وتهاوت الأمواج، وأدرك فرعون وجنوده الغرق، وتعالت منهم صرخات الفزع والاستغاثة، ولكنها ضاعت – جميعًا – سدى، فى خضم أصوات الغضب التى زمجر بها جبل الماء، وهو يتصدع منهارًا على فرعون وجنوده بكلمة الله (جل فى علاه)، حين ألقى إليه أمره بإهلاك الظالمين ونجاة المظلومين.

هذه هى الصورة التى يمكن للقلم أن يرسمها بالكلمات، معبرًا عن نهاية فرعون ونجاة بنى إسرائيل من بطشه كما وصفتها آيات القرآن الكريم.

وسرعان ما نسى بنو إسرائيل آيات الله، وانحدروا إلى الوثنية مرة أخرى.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١).

قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا﴾: تنبيه بأنه ﷻ يحمل مخلوقاته على يد قدرته، فهو الذى تجاوز (اجتاز) البحر، حاملًا بنى إسرائيل معه، وهو المعنى الذى لفت إليه الأنظار - بقوله مذكرًا بنى إسرائيل بما وقع فى ذلك اليوم: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (٢) .. يشبه الله بنى إسرائيل بالسيف أو السكين، أمسكها ﷻ بيده، وقَطَعَ (فَرَقَ) بها البحر، فشق فى وسطه طريقًا يبسًا، سار عليه بنو إسرائيل، فأفلتوا من قبضة آل فرعون، الذين حبسهم الماء بقبضة الغرق.

وعندما يطلب من شاهدوا هذه الآية الإلهية أن يكون لهم صنم مثل أصنام الأمم الأخرى، فإن معنى هذا أنهم فى أشد حاجة إلى تعلم العقيدة الصحيحة، التى تمحو الأباطيل من قلوبهم، والشريعة التى تضىء لهم الطريق المستقيم الهادى إلى رحمة الله فى الدنيا والآخرة.

هنالك طلب موسى من ربه أن يعطيه "الكتاب"، الحامل لأوامره ونواهيه؛ حتى يتبين الناس الطريق الذى ينبغى أن يسيروا فيه، ولا يحيدوا عنه، فأمره الله ﷻ أن يهيئ نفسه لتلقى كلام الله، باعتزال قومه، والانقطاع لعبادة الله فى الجبل وحده، وبالصيام شهرًا قمريًّا كاملًا (ثلاثين يومًا وليلة)، يتفرغ فيها لذكر الله؛ ليتمكن من الصعود إلى مقام يسمع فيه كلام الله.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٥٠.

وكانت رؤية هلال شهر رمضان[١] هى إشارة البدء والتهيؤ، ولكن موسى بن عمران ﷺ كان من فرط شوقه عجلًا – شأنه فى ذلك شأن المحبين الذين يغلبهم الحال على علمهم - فأسرع يحث الخطى إلى لقاء الله، ولم ينتظر حتى يبدأ الشهر.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾[٢].

---

(١) من أغرب الأقوال وأبعدها عن التصديق - والتى تناقلها المفسرون دون روية أو تمحيص، بل دون الاستناد إلى أى دليل مقبول - ادعاؤهم أن الثلاثين ليلة التى ذكرها الله فى المواعدة هى ليالى شهر ذى القعدة، وأن العشر ليال الأخرى، التى أتم الله بها الميقات أربعين ليلة، هى العشر الأولى من ذى الحجة، غير منتبهين إلى الأحاديث النبوية الشريفة التى ذكرت أن التوراة (ألواح موسى) قد نزلت فى شهر رمضان، تلك الأحاديث التى أفاضوا هم أنفسهم فى ذكرها عند تفسير قوله ﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ !! كما أنهم – غفر الله لهم – لم ينتبهوا إلى معاتبة الله ﷻ لكليمه موسى ﷺ - فى نهاية الميقات - على تعجله وتركه قومه قبل الموعد الذى ضربه الله، كما جاء فى سورة طه: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ (سورة طه: الآيات ٨٣ - ٨٥).
وهذا نص محكم قاطع الدلالة، على أن موسى ﷺ قد تعجل فى الذهاب إلى الميقات قبل الموعد الذى ضربه الله له؛ مما يفضى – لا محالة – إلى اليقين بأن عشر الليالى التى أتم الله بها الميقات أربعين ليلة هن العشر الأواخر من شعبان؛ لأن شهر رمضان كان الميقات، وهو الشهر الذى اختاره الله ليكلم فيه أنبياءه، أى ليظهر حقيقة الملك الكامن فى قلب الإنسان.
وكان السبب فى هذه الزيادة تعجل موسى – بدافع الشوق – ظنًّا منه أن العجلة إلى اللقاء تُرضى الله.
﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾: ومن هذا البيان ندرك أن الأقوال التى ظل المفسرون يتناقلونها عن بعضهم، مدعين أن سبب الزيادة هو إحساس موسى بخلوف (تغير رائحة) فمه؛ نتيجة الصيام؛ مما دفعه إلى استعمال السواك، فأدى ذلك إلى معاتبة الملائكة له، فأمره الله بصيام عشرة أيام أخرى إصلاحًا لخطئه.. كل هذه الأقوال التى ظلوا يتناقلونها عبر الأجيال وسودوا بها الصفحات، لا أصل، ولا معنى لها، ولا تدل إلا على أنهم لم ينتبهوا إلى كامل النص القرآنى، ولم يستحضروه عند تفسيرهم لآياته؛ ومن ثم انزلقوا إلى كل تلك الأوهام التى ملأوا بها كتب التفسير، وصارت تلك الأقوال حجابًا كثيفًا، يحول بين القارئ وفهم النص القرآنى، بدلًا من أن تساعده على الاقتراب والاتصال بالذكر الحكيم!!.
(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

﴿ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾: هن ليالى شهر رمضان.

﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾: زدنا عليها عشر ليال؛ هن الأواخر من شهر شعبان؛ لأن موسى تعجل اللقاء، فذهب إلى الجبل قبل الموعد الذى ضربه الله له، وهو أول ليلة من رمضان .. ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾: إذ كانت هذه الزيادة وسيلة إلى بلوغ الوقت الذى قدَّره الله – فى كتاب علمه – إلى كماله الذى لا مزيد عليه؛ حيث كان مقداره – هنالك – فى "ذلك الكتاب" أربعين ليلة. فإذا كان موسى – بطبيعته البشرية، وبدافع من حبه لله وشوقه إلى لقائه – قد جاء قبل الموعد المتفق عليه بعشر ليالٍ؛ فإنه – فى الحقيقة – قد حقق بتعجله ما يريد الله فى باطن (غيب) علمه على خلاف الظاهر، والذى أوجب عليه العتاب.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

كلام الرب – ههنا – نور قُذف فى قلب موسى فأضاء فؤاده (عقله)، وتشكل فى سمعه فى صورة ألفاظ، وصاحب ذلك النور رَسمُ (حَفرُ) الكلمات – التى كان موسى يسمعها – على الألواح التى وجدها ملقاة على يديه، دون أن يرى مَن ناوله الألواح، وكتب (رسم) عليها الكلمات.

لقد أحس موسى بقربه الشديد الحميم من الله، فاستغرقه السرور، وفقد صبره، فاقتحم لجة الشوق وصاح – وقد استخفه الطرب: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾.

يطلب رؤية الله، متوهمًا – فى مقام سُكر المحبين الذين شربوا خمر المحبة الإلهية – إمكانية أن ينحصر وجوده سبحانه وتعالى فى شىء يُنظر، أو يُشار إلى الله فيه، فأراد الله سبحانه وتعالى أن

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

يخرجه من وهمه، فأجاب عن سؤاله بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾، وبَيَّن له "السر" فى ذلك؛ عندما طلب إليه أن ينظر إلى الجبل الذى يقف موسى عند سفحه ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ ..

صار الجبل – بتجلى الله له[1] – هباءً منثورًا. لقد تصدع الجبل وتهاوى بنيانه .. ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ .. لقد زال الجبل واختفى أمام بصر موسى ﷺ فجأة، فى أقل من غمضة عين، واندفع النور المنبعث من التجلى إلى قلب موسى، فأحرق فؤاده (عقله)، فتهاوى عائدًا إلى الغيب، أى غائبًا عن شهود الدنيا.

قوله ﷻ: ﴿وَخَرَّ﴾ يدل على سرعة السقوط، وفقدان التمالك (التماسك) إزاء الحقيقة التى تتجاوز قدرة العقل على الإدراك.

﴿صَعِقًا﴾: محترقًا عقله الذى توهج من نور التجلى، فالصاعقة هى النار (الشرارة الكهربائية) التى تندلع – عند حدوث البرق – إذا اقتربت السحابة الركامية فى السماء – بما فيها من شحنات هائلة – من الأرض؛ فيحدث تفريغ كهربائى بين السحاب (السماء) وسطح الأرض، فيحرق كل ما يمسه من كائنات.

قال ﷻ: ﴿صَعِقًا﴾، ولم يقل مصعوقًا؛ للإشارة إلى أن موسى بسؤاله الرؤية، وبباعث من أعماق نفسه المحبة لله والمتلهفة على رؤيته، إنما كان يريد – فى الحقيقة – الصعق، فهو – إذن – فاعل وليس مجرد مفعول به.

ولفظ: ﴿صَعِقًا﴾ يشير ببنائه إلى سرعة الفعل الذى حدث فى أقل من طرفة عين، على خلاف لفظ مصعوقًا، الذى يستغرق وقتًا أطول فى النطق به، فانظر كيف يختار

(١) إذن لقد تجلى الله ﷻ لأحد مخلوقاته، وهو الجبل، الذى يعد - دون أدنى شك - أدنى رتبة من كليم الله موسى بن عمران ﷺ فى مدارج القرب من الله، فتأمل!!.

القرآن الكريم ألفاظه فى دقة بالغة، يستحيل على العقل البشرى أن يقدرها حق قدرها!!.

والتجلى هو الظهور التام بإزالة الحجب أو محو وسائل الاختفاء؛ ولذلك نقول (جلونا السيف) إذا أزلنا الصدأ من فوق سطحه. وقد طلب موسى الرؤية بقوله ﴿أَرِنِيٓ﴾، وأجاب الله طلبه "بالتجلى" عند الجبل، الذى أسفر عن زوال الجبل، فَبَيَّن ذلك أن الأشياء (المخلوقات) هى الحجب التى يستتر وراءها الخالق ﷻ، أو هى الأقنعة الشفافة التى يختفى وراءها وجه الله؛ أى – بالأحرى – هى الصور التى يمكن أن نرى الله من خلالها؛ فإنها النوافذ التى نطالع صفات الله من النظر فيها، ومن ثم فإن طلب رؤية الذات الإلهية لا يعنى – فى الحقيقة – سوى طلب زوال الأشياء، أى احتراق الصور التى يمكن من خلالها – وحدها – رؤية الله، فهو لا يعنى – فى النهاية – سوى طلب المستحيل؛ ولذلك جاءت إجابة الحق ﷻ حاسمة: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾[1]، على النحو الذى توهمته فى طلبك.

وعندما عاد الله إلى الاحتجاب، رجع الجبل إلى الظهور فى الصورة التى كان عليها قبل التجلى، وقام موسى راجعًا من الغياب، حيًّا بعد الموت. ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من السُكر ومن غيبوبة الصعق، قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: أنزهك – رب – عن أن تنحصر ذاتك فى شىء فيشار إليك فيه، وعن أن يحيط علم بصفاتك، وعن أن تدرك كُنهَ (ماهية) ذاتك معرفة.

---

(١) لقد غاب – تمامًا – معنى الآية عن المفسرين، فراحوا يتناقلون أقوالًا أساءوا فيها فهم حديث رسول الله ﷺ، الذى قرأ هذه الآية، وأراد أن يفسرها بلغة الإشارة، فلم يملك – وهو يخاطب جمعًا من الناس، أغلبهم من العوام – إلا أن وضع طرف إبهامه على المفصل الطرفى من الخنصر، يريد أن يقول بلغة الإشارة أن نور الله قد نزل على الجبل – نزول إبهامى على خنصرى، فأخفاه، ولكن أسىء – كالعادة – فهم إشارة النبى ﷺ، فتناقل المفسرون قولًا شاذًّا معيبًا، يدعى أن الله قد تجلى بقدر أنملة !! متوهمين أنه ﷻ لم يظهر من ذاته إلا مقدار أنملة!!.

﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾: نـدمت على جهـلى بحقيقتـك، وعزمـت على أَلَّا أطلـب المحـال، وعذرى فى ذلك الطلب شدة شوقى إليـك، وسرورى بقـربى منـك، وفقـد صـبرى على احتجابك عنى.

﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: بالبعث بعد الموت، فقد عاينت بنفسى سلب روحـك مـنى بالصعق، وذقت رجوعه إلىَّ، فعاينت أن روحـك هـو سر الحيـاة، وهـو وسـيلة حـضور (وجود) كل شىء[١].

لقد كان تجلى الله سببًا فى تصدع الجبل، الذى وقف موسى - كليم الله - عند سفحه يطلب رؤية ربه. وكذلك يكون نزول القرآن الذى قال الله ﷻ فيه: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

﴿خَٰشِعٗا﴾: خامدًا هامدًا بلا حركة.

فلننظر أولًا كيف أشار إلى حقيقة حركة الجبال بهذا الخشوع المضروب مـثلًا على تأثر الحجارة بكلام الله لو نزل عليها، والمعـنى المـشار إليـه أن الجبـال تتحـرك على الدوام حركة مستمرة لا تتوقـف، ولكـن لـو افترضـنا أن الله أنـزل على جبـل منهـا القرآن، فإن هذا الجبل سيخشع (سيخمد ويتوقف عن الحركـة) فى الحـال مـن شـدة تأثره.

---

(١) ربما كانت معاينة موسى عليه السلام للحياة بعد الموت (الصعق)، هى السر فى تعجله بالاعتراض على ملك المـوت عندما جاءه في صورة رجل يدعوه إلي إجابة أمر ربه بالرجوع إلى الغيب – مرة أخـرى – كمـا جـاء فى الحديث النبوى الشريف، الذى ذكر ﷺ فيه أن موسى عليه السلام، قد ضرب ملك الموت على وجهه، ففقأ عينـه، معترضًا على دعوته إلى الموت؛ لأنه عليه السلام كان قد مات – قبل ذلـك – بالـصعق، فكيـف يطلـب منـه أن يموت مرة أخرى؟! "فلا يموت مرتين إلا الكافر؟!"، فظن لذلك أن ملك الموت قد أخطأ فى نقل الرسالة!!.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢١.

وقد صرح الله بحقيقة حركة الجبال التى تخفى على بصر الأعين الظاهرة بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (١).

﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾: تتحرك كما يتحرك السحاب محمولًا على الهواء (يدفعه الريح)، وكذلك تتحرك الجبال على الأرض، التى تلف وتدور حول نفسها، وحول الشمس، وحول مركز المجرة، وفى سياق حركة اتساع الكون .. يشبه حركة الجبال بحركة السحاب؛ لأن كلًّا منهما يحمله غيره، فالأرض تحمل الجبال، فتتحرك الجبال بحركة الأرض، والسحاب يحمله الهواء.

﴿مُّتَصَدِّعًا﴾: متشققًا متفتتًا، يتهاوى بنيانه.

وتصدع الجبل هو النتيجة الحتمية لخشوعه؛ أى توقفه المفاجئ عن الحركة؛ لأن الأرض التى تحمله ستستمر فى جريها؛ ومن ثم فإن ذلك الخشوع (الجمود) سيؤدى – لا محالة – إلى اقتلاع الجبل من جذوره، أى انخلاع الجبل من قشرة الأرض التى ينغرز فيها كالوتد، كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٢)، فخشوع الجبل يؤدى حتمًا إلى تصدعه؛ كنتيجة ضرورية لاستمرار الأرض التى تحمله فى حركتها، فلننظر كيف أشار إلى حقيقة حركة الأرض بخشوع الجبل وتصدعه لو أنزل عليه القرآن !!

﴿مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾: يبعثه على الخشوع والتصدع خوفه من لقاء الله فى يوم آت لا ريب فيه، حين يتجلى الله لكل شىء، فتزول السماوات والأرض بكل ما فيهن من مخلوقات.

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٢) سورة النبأ: الآية ٧.

والـ ﴿خَشۡيَةِ﴾: هى الخوف القائم على العلم؛ ولذلـك قـال الله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (١).

والخشية – فى القرآن – تعنى الخوف من لقاء الله عند القيام للحساب، أى خـوف المقام بين يدى الله يوم القيامة بعد البعث من الموت.

والآية تشير - بهذا - إلى أن رسالة القرآن هى التعريف بالله، وبيان أن لقاءه محتوم فى يوم آت لا ريب فيه، وهو يوم القيامة الذى يتجلى الله فيه، ومـن هنـا فـإن القـرآن يولد الخشية فى قلب كل من يستمع – منصتًا – إليه حتى الجبال.

وإذا كان الجبل قد دُكَّ حين تجلى الله له عندما طلب موسى الرؤية، فإنـه سـيدك أو يتصدع أيضًا حين ينزل القرآن عليه، كما قال الله ﷻ فى المثل المضروب فى هذه الآية.

والمعنى المشار إليه بهذا المثل هو أن القرآن يعد تجليًا لله فى هذه الحياة الدنيا، نـزل على قلب النبى محمد ﷺ، فهو الكتاب الذى أنزله الله ﷻ؛ ليعرف به نفسه، فإنه – إذن – بمثابة المرآة التى نرى بها الله، تتألق صـور وجـوده على صـفحتها المـصقولة حيـث نطالع فى السور والآيات تجليات أسمائه الحسنى، ونرى ما صنعه بالخلائق.

(ب) القرآن المثل الأعلى للجمال:

"وسر" جمال الشيء يَكْمُن – كما بينـا مـن قبـل – فى قدرتـه على تـذكيرنا بعـالم الخلود؛ الذى كنا فيه قبل هذا الوجود فى هـذه الحيـاة الدنيـا، وفى إشـارته إلى الحقيقـة الكلية الباطنة، التى تتبدى لنا وراء الـصور مـن خـلال التجربـة الجماليـة، أى عـبر التذوق الجمالى بالإدراك الحسى الخالص، وتلـك الحقيقـة المطلقـة ليـست إلا الذات

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨. راجع معانى الألفاظ التى تدور حول "الخـوف"، مثـل الخـشية والرهبـة والخيفـة فى كتابنا "الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة"، ص ٨٣ - ٨٥.

الإلهية التى تعالت على الوصف، بدليل أننا لا نملك إلا النطق باسم "الله" عندما نعبر عن إحساسنا وإعجابنا بالشىء الجميل، قائلين: "الله .. الله".

ويفضى بنا هذا الفهم إلى تقرير أن القرآن الكريم هو أجمل الكائنات، أى أعظم النصوص المكتوبة والمسموعة باللسان العربى على وجه الإطلاق؛ لأنه أفضل تعبير عن الله.

ولا يستند هذا التقدير إلى العقيدة الدينية، أى إلى الإيمان بنبوة محمد، وأن القرآن هو كلام الله؛ بل إلى التجربة الإنسانية الجمالية؛ فإنه الكتاب أو النص الذى أجمع كل من أنصت إليه من العرب والعجم - سواء الذين آمنوا به أو كفروا - على الإعجاب به، وتقدير جماله. بحيث يمكننا القول – بيقين علمى تام – إن القرآن ظل المثل الأعلى للتعبير باللغة العربية، الذى اعترف جميع البشر بعلو مكانته فوق كل ما أنتج الإنسان من روائع الأدب، وبالعجز عن الإتيان بمثله. هذه هى الحقيقة العلمية المؤكدة التى اتخذت فى التاريخ اسم بلاغة القرآن.

ولقد بَيَّن القرآن – نفسه – أنه ينفذ إلى النفس الإنسانية عبر الوجدان، مثيرًا فيها الإحساس بالجمال، شأنه فى ذلك شأن الأعمال الفنية العظيمة.

يقول الله واصفًا القرآن: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ (١).

﴿نَزَّلَ﴾: كرر الإنزال مرة بعد أخرى. يشير – هنا – باستعمال لفظ ﴿نَزَّلَ﴾ إلى تعدد مرات النزول – فى هذه الحياة الدنيا – حيث ظل القرآن ينزل على مدى ثلاث وعشرين سنة فى ظروف جد مختلفة؛ فى المكان والزمان والحدث والحالة النفسية للنبى المخاطب بهذا القرآن المصاحبة للنزول. ورغم كل ذلك، فإن هذه الأجزاء المتفرقة التى

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

تناثر ظهورها فى الزمان والمكان تُكَوِّنُ – فى مجموعها – ﴿كِتَٰبًا﴾ واحدًا، يمتاز بصفتين جوهريتين، هما: التشابه والتثنية؛ فلقد ظل – رغم اختلاف المنازل: ﴿مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾.

(١) ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: تتشابه أجزاؤه مع بعضها البعض؛ فهى متجانسة متآلفة متكاملة، ليس فيها تفاوت أو تنافر أو تناقض؛ إذ تشكل – فى مجموعها – وحدة حيوية، تجعله متميزًا عما عداه من الكلام؛ فهذه الأجزاء بمثابة أعضاء فى كائن حى واحد؛ فإنها تحمل فى كل جزء أو قطعة منها من الخصائص أو السمات المشتركة ما يؤكد وحدتها الكلية الشاملة والجامعة لكل الأجزاء أو القطع فى سياق بناء كائن واحد له شخصية متميزة أو ذاتية باطنة، تميزه عن غيره، وهى تقوم وراء كل الأجزاء، أو بالأحرى تحمل جميع القطع، وتمسك بها فى يد حقيقة واحدة قائمة بذاتها.

ولا شك فى أن الأخطاء الفادحة التى وقع فيها المفسرون عند تناولهم للقرآن، إنما نتجت من نظرتهم الجزئية التى وقفت عند كل آية بمفردها، عاجزين عن رؤية النص القرآنى فى كامل وحدته.

وهذه الوحدة الكلية هى أول سمات العمل الجمالى أو الكائن الجميل، الذى ينبغى أن تتجانس وتتآلف أجزاؤه مع بعضها، أى – بتعبير القرآن – تتشابه ولا تختلف .. كما أقر بذلك كل علماء الجمال ومؤرخو الفن[١].

وإذا نظرنا إلى كثرة الموضوعات التى تناولها القرآن وتنوعها الشديد، وإلى اختلاف الظروف البشرية التى نزل فيها، إذا نظرنا إلى كل ذلك، وتأملنا فيه جيدًا، نجد أن احتفاظ نص القرآن الكريم بتشابهه (تجانسه وتآلفه)، هو أسطع برهان على ألوهيته وجماله، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[٢].

---

(١) انظر على سبيل المثال كتاب "مشكلة الفن"، للدكتور زكريا إبراهيم.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٢.

يدعو الناس إلى "تدبر" القرآن؛ ليكتشفوا بأنفسهم مصدره الإلهى، ويعاينوا - من خلال تدبرهم - استحالة صدوره عن بشر تختلف أحواله وظروفه من وقت آخر؛ مما كان يحتم ظهور الاختلاف فى النص القرآنى لو كان قائله بشرًا، ولكن القرآن – كما يبرهن تدبره – يظل محتفظًا بتشابهه (تجانسه وتآلفه) رغم تنوع موضوعاته واختلاف منازله بالنظر إلى أحوال وظروف الإنسان النبى الذى تلقاه؛ مما يقطع بصدوره عن كائن يتعالى على الزمان ويتجاوز المكان، ولا تغيره الأحداث.

"والتدبر" هو تكرار القراءة مرة بعد أخرى، مع إعادة النظر وإطالة التأمل فى الشيء؛ ومن ثم فإن الدعوة إلى التدبر لا تعنى – فى الحقيقة – سوى الدعوة إلى إدراك القرآن إدراكًا حسيًّا وعقليًّا خالصًا، منزهًا عن طلب النفع أو توقى الضرر، وهذا هو الطريق الوحيد لاكتشاف حقيقته. والإدراك الحسى الخالص يعنى التأمل الجمالى فى نص القرآن؛ فهو إدراك لأسلوب القرآن أو صياغته اللفظية. والإدراك العقلى الخالص يعنى التأمل فى مضمونه أو محتواه الذى يخاطب العقل.

والاختلاف هنا هو نقيض التشابه، ويعنى التفاوت والتضارب (التنافر) والتنازع (التناقض). وقد تنزه القرآن عن أن يكون فيه أى اختلاف بهذا المفهوم، سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، فليس فى القرآن أى اختلاف فى أسلوبه أو محتواه.

وقوله ﷻ: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ لا يعنى أن فى القرآن – حاشاه – اختلاف قليل؛ بل معناه: ما كان فى وسع بشر أن يتناول الموضوعات الكثيرة التى تناولها القرآن بالكلام مع تنوعها الشديد، إلا ويكون فى كلامه تفاوت من حيث الأسلوب (الشكل) وتضارب (تنافر)، وتنازع (تناقض) كثير من حيث المعنى (المضمون)؛ لأن البشر يخضعون لزمانهم ومكانهم وتتغير أحوالهم، ولكن النص القرآنى – على اتساع مجالات موضوعاته، وطول زمن تنزله واختلاف منازله – ظل محتفظًا بتشابهه؛ مما يقطع بأن المتكلم به - فى كل السور صغيرها وكبيرها - واحدٌ ومتعالٍ عن التأثر بما يتأثر به البشر فى كلامهم.

وبفضل تشابهه، ظل القرآن أصيلًا، لا يشبهه شيء من كلام البشر؛ فهو نسيج وحده، يدرك القارئ والمستمع إليه أصالته، واختلافه عن كل ما أنتجه البشر من كلام بمجرد الإنصات إليه. وإنه يختلف – جذريًّا – عن كلام الرسول محمد ﷺ الوارد فى الأحاديث النبوية الشريفة والأحاديث القدسية، ويستطيع القارئ والمستمع إليه أن يتعرف عليه بمجرد أن ينصت إليه، فيدرك بحسه – على الفور – أنه القرآن الذى لا يشبهه شىء من كلام البشر، حتى الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ، وادعوا أنهم يستطيعون الإتيان بمثل القرآن .. حتى هؤلاء الكافرين لم يأتوا بشىء فى محاولاتهم البائسة سوى تقليد القرآن، ومحاكاة أسلوبه. حدث هذا من المتنبئين القدامى الذين أعلنوا عن أنفسهم، فى نهاية حياة النبى محمد ﷺ، مثل مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي. وكذلك مع المتنبئين المعاصرين لنا – فى القرن الخامس عشر الهجرى الحادى والعشرين الميلادى - الذين أخرجوا لنا ما أسموه "الفرقان الحق".

فى ذلك المصحف المزعوم، يحاول المؤلفون إبطال العقيدة الإسلامية وتغيير أحكام الشريعة، ولكنهم – رغمًا عنهم – يقدمون نصوص آيات مزورة، تخالف آيات القرآن فى المضمون، ولكنها تحاول – يائسة – محاكاة أسلوب القرآن المجيد؛ مما يقطع باعتراف المنكرين لنبوة محمد ﷺ، أى المكذبين بألوهية القرآن بأن القرآن – فى نظرهم – هو المثل الأعلى فى التعبير الجمالى (الفنى)، الذى يستعمل اللغة خامة لصنع (خلق) الكائنات أو الأعمال الأدبية[1].

---

(١) انظر بعض آيات ذلك المصحف المزور، التى أوردتها جريدة "الأسبوع" القاهرية فى عددها رقم ٤٠٢، الصادر فى ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٤، مثل: "إنما صلبوا عيسى المسيح بن مريم جسدًا بشرًا سويًّا، وقتلوه يقينًا"، و"نحن الله الرحمن الرحيم، ثالوث فرد كلٌّ في واحد، لا شريك لنا فى العالمين"، وغيرها من النصوص التى تحاول هدم العقائد الإسلامية، وتجاهد – عبثًا – فى محاكاة القرآن الكريم؛ مما يبرهن - بدليل قاطع - على اعتراف الجميع بسمو القرآن الجمالى (البلاغى)، واعتباره المثل الأعلى الذى يجب أن يحتذى، حتى من الذين ينكرون نبوة محمد ﷺ!!.

(٢) ﴿مَّثَانِيَ﴾: يتشكل من ثنائيات؛ أى من أشـياء متقابلـة متنـاظرة، تتكـرر على الدوام فى نظام محسوس، وهو ما يعنى أن آيات القـرآن تتحقـق فيهـا سـمة "الإيقـاع" Rhythm، أى أن الألفاظ والجمل والمعانى تتردد بانتظام فى ترتيب مخصوص.

"والإيقاع" هو أظهر سمات العمل الجمالى، أو بكلمات أخرى: "إن وجود الإيقـاع هو الذى يضع العمل فى نطاق الفن؛ فالإيقاع هو عنوان الجمال".

ولما كان القرآن الكريم عملًا جماليًّا، فإنه يؤثر فى وجدان متلقيـه، مثـيرًا فى نفـسه الانفعالات التى تصبغ سلوك الإنسان بلونها وتطبع عليه أثرها؛ ولذلك وصف القرآن الكريم تأثيره فى نفوس المستمعين إليه بقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، موضحًا أنه ينجح – باقتداره الجمالى أو قدرته البلاغية – على إثارة فزع مـن يؤمنـون بالحساب عند الله يوم القيامة، ويثمر ذلك الفزع فى القلوب رعدة تصيب الأجـسام، أى ارتعـاش واهـتزاز، وقـشعريرة الجلـود الـتى تـصبح خـشنة الملمـس؛ لانتـصاب الشعيرات التى تغطيها، وذلك عند سماع الآيـات الـتى تـصف أهـوال يـوم القيامـة وعذاب جهنم: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لهم عندما يستمعون إلى آيـات الرحمة التى تصف ما ادخره الله فى جنات النعيم لعبـاده المـؤمنين الطـائعين، فتـصبح جلودهم ناعمة وقلوبهم لينة طائعة إلى أمر الله؛ إذ يحل الأمـن والأمـل محـل الفـزع، ويعلمون أن ربهم سبحانه وتعالى يذكرهم برحمته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحديث الذى نزله الله هو ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾: البيـان والإرشـاد الذى أباحـه الله – من فيض علمه – لكل الناس، ثم إنه ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، أى يعين به مـن جعلته المشيئة السابقة أهلًا للرحمة؛ ليسير على الصراط المستقيم إلى الجنة.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ..

من أجل هذه الطبيعة الجمالية للقرآن وصف - بالحق – بأنـه ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾: أى أجمل الكلام؛ فالحُسنُ هو الجمال المشهود.

يقول القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾(١).

هنا يتحدث القرآن عن "الصدق"، وهو النطق أو التعبير عن الحق، والحق هو ما يُعتقد بصحته (صوابه)، أى موافقته للحقيقة، وخلوه من الخطأ. ومفهوم "الصدق" يختلف عن معنى "الحق" بالنسبة إلى الإنسان؛ فقد يعتقد البشر بصحة (صواب) شىء، لكنه قد يكون خاطئًا، أى مخالفًا للحقيقة العلمية كما يقررها العقل. ولذلك فعندما يعبر البشر عما يعتقدون بصحته (صوابه) أى موافقته للحقيقة؛ فإنهم يكونون صادقين، لكنهم – فى الوقت نفسه – قد يكونون خاطئين (جاهلين) – رغم صدقهم – إذا أثبت العلم خطأ ما يعتقدون بصحته؛ لأن الحكم بالحق (الصواب) يرجع إلى العلم، أى هو حكم العقل.

أما بالنسبة إلى الله ﷻ فإن مفهوم الصدق يتوحد مع مفهوم الحق؛ لأنه ﷻ يتنزه عن الخطأ، ولا يقع فى الأوهام، فعندما يتكلم بالوحى مع الأنبياء فإن حديثه هو الحق والصواب أو العلم؛ لأنه لا يخطئ، وهو الصدق؛ لأنه لا يكذب، ومحال – بالعقل – تصور أن يوجد كلام أصدق من كلام الله؛ لأن علم الله هو الحقيقة التامة.

ولما كان القرآن الكريم هو كلام (حديث) الله الذى تعهد الله بحفظه من الضياع ومن تسرب الأخطاء إليه؛ لذلك يتساءل القرآن مؤكدًا صوابه، ومنكرًا على الكافرين تكذيبه قائلًا: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾. أما فى آية سورة الزمر، فإنه يتحدث عن حُسن (جمال) القرآن؛ إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾.

ويصف القرآن المجيد تأثيره فى المؤمنين به المنصتين إليه من أهل العلم، فيقول: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا

(١) سورة النساء: الآية ٨٧.

﴿١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (١).

ولا شك أننا – هنا – أمام تـأثير كلام جميـل بليـغ، ينفـذ إلى أعمـاق نفـوس مـن يصغون إليه ولا يتمالـك المتـذوقون له أنفـسهم مـن شـدة تـأثرهم بـه .. ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾، ﴿سُجَّدًا ﴾، ﴿يَبْكُونَ ﴾، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ ﴾، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾: يسقطون بسرعة، لا يتمالكون أنفسهم من التأثر (الانفعـال) فى مواجهة الحقيقة التى تجلت لهم عند تلاوة القرآن، كما خَرَّ موسى بن عمران عنـد تجلى الله للجبل؛ ولذلك فإنهم لا يملكون أن يضعوا بهدوء جبـاههم على الأرض عنـد السجود؛ لأنهم يفقدون إرادتهم عند تجـلى الحقيقـة الـتى تتجـاوز قـدرة العقـل على الإدراك؛ ومن ثم فإنهم يسقطون سقوط المغشى عليهم، لأذقانهم أى على أذقـانهم – لا على جبـاههم – على الأرض كـأنهم صـعقى. فـانظر كيـف كـرر التعبـير ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ مرتين؛ ليلفـت الأنظـار إلى المعـنى الذى لـم يلتفـت إليـه أحـد مـن المفسرين!!

عندما ذهب أبو الوليد "عتبة بن ربيعة" إلى محمد ﷺ، فى محاولة أخيرة لعقد الصلح بين الرسول وقومه، عارضًا عليه بعـض المغـانم الدنيويـة، فى مقابـل أن يكـف عـن دعوته، فإن النبى ﷺ لم يرد على "عتبة" بشىء غير أن قرأ عليه صـدر سـورة فـصلت: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢).

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٠٧ - ١٠٩.

(٢) سورة فصلت: الآيات ١ - ٤.

ومضى محمد ﷺ يتلو بصوت مشرق حزين، حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (١)، فلم يملك "عتبة" نفسه، فاندفع يهوى بيده على فم محمد ﷺ؛ يريد إسكاته، وهو يصيح مستغيثًا: "ناشدتك الرحم يا ابن العم"؛ إذ أحس أن الصاعقة – التى يهدد بها – توشك أن تخترق سمعه وهى تدمر كل شىء فى طريقها.

وأزاح النبى ﷺ يد "عتبة" برفق، وواصل التلاوة دون أن يلتفت إليه، فألقى "عتبة" يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما فى جلسته، يرفع رأسه نحو الوجه الذى يزداد تألقه كلما مضى فى التلاوة، ينصت مشدوهًا، لا يملك فكاكًا من أسر هذا البيان المدهش، حتى وصل النبى ﷺ إلى موضع السجدة عند قوله ﷻ: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ (٢)، فخر النبى ساجدًا، فأطال السجود، وعتبة ينظر إليه مذهولًا، ثم رفع النبى وجهه وقد علته مهابة لا يُستطاع اقتحامها، فقال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك". لقد تركه أمام القرآن – وحده – وجهًا لوجه وطلب منه أن يحكم بنفسه.

ولذلك عاد "عتبة" إلى قومه مهمومًا. جلس واجمًا شاردًا، يتحاشى النظر إلى عيونهم المتفحصة، قالوا: "ما وراءك يا أبا الوليد؟"، وقالوا لأنفسهم: "نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به".

قال عتبة: "إنى سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط ؟.

يا معشر قريش أطيعونى واجعلوه إلى ..

---

(١) سورة فصلت: الآية ١٣.

(٢) سورة فصلت: الآيتان ٣٧، ٣٨.

خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ..

فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به".

قالوا له، وهم يتفجرون غيظًا: "سحرك، والله، يا أبا الوليد بلسانه".

فرد عليهم: "هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم" (١).

هذا رأى "عتبة بن ربيعة" فى القرآن، وهو الرجل الذى ظل على الكفر ومات مقتولًا فى غزوة بدر، وهو يحارب الرسول النبى الذى أتى بالقرآن!!

ولم يقتصر الإعجاب بالقرآن على العرب، سواء الذين آمنوا منهم أو ظلوا على الكفر، بل لقد شمل الإعجاب كل البشر الذين أتيح لهم الاطلاع عليه فى نصه العربى، أو فى ترجمة لمعانيه بلغة أخرى.

يقول جاك. س. ريسلر - وهو باحث فرنسى وأستاذ بالمعهد الإسلامى بباريس: "لا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروة القرآن اللغوية، وإذ يذبل جمال اللغة فى الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها، ولذلك يجب أن يقرأ القرآن فى نصه الأصلى" (٢).

ويقول سير "هاملتون ألكسندر جب": "والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسى، كما هو الحال بالنسبة للشعر الرفيع؛ إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنون القرآن باللغة العادية، ولا يمكن أن يُعَبَّر عن صوره وأمثاله؛ لأن كل حرف عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلًا قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. والقرآن كذلك له جمال ونظم بديع لا يمكن تحديدهما؛ لأنهما يعدان – بسحرهما – أفكار

---

(١) انظر كتابنا "القرآن معجزة كل العصور"، ص ٦ - ١٠.

(٢) القرآن معجزة كل العصور، ص ١٢؛ وقد نقلنا فى كتابنا ذلك بعض الأقوال التى جمعها الأستاذ الدكتور/ عماد الدين خليل تحت عنوان: "قالوا عن القرآن"، وأضيفت كملحق بكتاب "إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز"، للأستاذ/ سعيد النورسى. وكل النقول المذكورة هنا مأخوذة من هذا المصدر.

الشخص الذى يصغى إلى القرآن لتلقى تعاليمه، ولا شك أن ترجمة كلمات القـرآن إلى لغة أخرى لا يمكن إلا أن تشوهها وتحول الذهب النقى إلى فخار" [١].

ويقول "روم لاندو" - وهو فنان نحات وناقد إنجليزى: "إن بين آيـات قـصار الـسور ترابطًا باهرًا له تأثيره الوجدانى، برغم أنه ليس ثمة أى نظام وزنى، وفى الحق إن سـماع السور تتلى فى الأصل العربي كثيرًا ما يُخَلِّفُ فى نفس المرء تأثيرًا بليغًا" [٢].

وأخيرًا وليس آخرًا، تقول الباحثـة الإيطاليـة "لورافيـشيا فـاغليرى": "الأثـر الذى يحدثه القرآن فى نفس البشرية، إنما يتم من غير أى عون عَرَضِى أو إضافى (خـارجى) بل من خلال سموه الذاتى"[٣].

إذن، لقد أجمع كل الذين أتيح لهم أن يقرأوا القرآن أو يستمعوا إليه - سـواء أكـانوا من العرب أو العجم، من المؤمنين أو الكافرين، ومهما كانـت انتمـاءاتهم التاريخيـة أو الجغرافية أو الثقافية (الدينية) - على أنه معجزة لغوية جمالية؛ فهو يعد أعظم الأعمال الجمالية التى عرفها الإنسان فى ميدان التعبير باللغة.

فما هى ملامح جمال هذا القرآن؟

❊ ❊ ❊

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

الفصل الرابع

موسيقى القرآن

(موسيقى الروح روح الموسيقى)

(أ) القــرآن ظـاهــرة سمعيــة :

ما أن يشرع القارئ المجود[1] فى تلاوة القرآن الكـريم، وتنـساب فى الهـواء آيـات الذكر الحكيم، حتى تنجذب الأسماع لهذه الأصـوات القادمـة مـن الـسماء، ويـدرك الإنسان أنه أمام عمل موسيقى هائل، بالغ الروعة وشـديد الترويـع، ينفـذ إلى أعمـاق النفس، فيضىء لها الحقائق البعيـدة الموغلـة فى الغمـوض، ويثـير فى الوجـدان أقـوى الانفعالات.

---

(١) إن علم التجويد الذى يضم القواعد والأحكام التى ينبغى الالتزام بها عند تلاوة القرآن لـيس إلا إقـرارًا شرعيًّا (دينيًّا) بالطبيعة الموسيقية للقرآن؛ لأن كل تلك القواعد والأحكام تتعلق بطريقـة النطـق؛ بغيـة إخراجه فى أجمل صورة صوتية؛ لإحداث الأثر السمعى المنشود، أى إشباع حاسة الجمال. وقد أكد النبى ﷺ هذه الحقيقة بقوله: "ما أَذِنَ (استمع) الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهـر بـه" (حديث رقم ٥٥٢٥)، وقوله: "ليس منا من لم يتغن بالقرآن" (حديث رقم ٥٤٤٢)، وعندما مـر ﷺ على أبى موسى الأشعرى ﷺ، ووجده يتلو القرآن، وأعجبته طريقة تلاوته الجميلة، فقال له: "يـا أبـا مـوسى لقـد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود" (حديث رقم ٧٨٣١). وكل هـذه الأحاديـث واردة فى صـحيح الجـامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) للأستاذ ناصر الدين الألبانى. ولماذا نـذهب بعيـدًا والله نفـسه (جـل فى علاه) قال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ (سورة المزمل: الآية ٤). والترتيل يعنى تقسيم النص القرآنى إلى أجزاء أو مقاطع صوتية، تحدث الأثر السمعى الجمالى المنشود الذى يؤثر فى نفس الإنـسان، كاشـفًا الحقـائق الـتى يعجز العقل بمفرده عن رؤيتها والوصول إليها.

يدرك كل إنسان هذه الطبيعة الموسيقية للقرآن بمجرد الاستماع إلى "ترتيله" بصوت قارئ متمكن من أحكام وطرق التلاوة[1]، حتى أولئك الذين لا يعرفون اللغة

(١) علينا أن نميز بين فعل "التلاوة" وفعل "القراءة"؛ إذ إن القراءة تعنى النطق بكلام مكتوب، أى التكلم بألفاظ مرئية مرسومة على الصحف أو الأوراق أو الألواح، وكل ما يكتب عليه، أما التلاوة فتعنى النطق أو التلفظ بالمحفوظ فى الصدور؛ ولذلك أمر الله رسوله (ﷺ) بتلاوة ما أوحى الله إليه بقوله: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ (الكهف: ٢٧)، يطلب منه أن يتعبد ربه بتلاوة ما أوحاه إليه، أى النطق بما سبق إنزاله إليه من القرآن وحيًا، والتدبر فيه؛ ابتغاء العلم بأوامر الله ونواهيه، ومعرفة الحقائق الكامنة فيه، والكشف عن مراد الله من خلقه، والرسول (ﷺ) أمي، لا يقرأ ولا يكتب؛ لذلك كان الأمر الإلهى بالتلاوة.

بينما كان الأمر بالقراءة حين جاءه الوحى أول مرة قائلًا له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق: الآيات ١-٥). ومعنى الأمر بالقراءة، أنه كانت توجد – حينذاك – صحف مبسوطة أمام بصر النبى ﷺ، مكتوب عليها كلمات القرآن، ولكنه ﷺ كان أميًّا، لا يستطيع قراءة نص مكتوب؛ ولذلك اعتذر للملك جبريل - الرسول السماوى الذى نقل إليه أمر الله بالقراءة – عن عدم استطاعته قراءة النص المكتوب، المبسوط أمام بصره عند الوحى؛ لأنه أمى، لا يعرف القراءة قائلًا: "ما أنا بقارئ"، يعنى: لست قارئًا. وكان الحل لهذه المعضلة هو أن يقرأ جبريل النص المكتوب على الصحف المنزلة، والتى تمسك بها أيدى الملائكة حملة الوحى، كما وصف الله ﷻ كلمات القرآن بأنها: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ (سورة عبس: الآيات ١٣-١٦).

فكان جبريل ﷺ يقرأ النص المكتوب، والنبى ﷺ يسمع ما ينطق به جبريل، ومن هنا تعلم النبى ﷺ قراءة القرآن، أى استطاع أن ينطق بالكلمات المرسومة أمام بصره على الصحف التى بأيدي الملائكة؛ ومن ثم فإنه ﷺ كان بوسعه بعد الوحى إليه أن يقرأ النص القرآنى فقط الذى تم تعليمه إياه، فكان في ذلك مثل الإنسان الأمي الكبير فى السن، الذى يتم تعليمه على الكبر كيف يكتب اسمه؛ لكى يتمكن من التوقيع على الأوراق الرسمية المهمة المتعلقة بشئون معيشته، فمثل هذا الإنسان يستطيع إذا نظر إلى حروف اسمه مكتوبة على الورق أن يقرأها، فينطق بها لسانه، لكنه يعجز – بكل تأكيد – عن قراءة غيرها من الكلمات؛ لأنه لم يتعلم كيف ينطق لسانه بحروفها المرسومة على الصحف المبسوطة أمام عينه.

كذلك كان حال النبى مع القرآن، ومع غيره من الكلام، فكان بوسعه ﷺ أن يتعرف ببصره على النص القرآنى المكتوب، وأن يقرأه؛ لأنه يشبه النص المكتوب الذى رآه – هنالك عند الوحى – مكتوبًا على الصحف بأيدى الملائكة السفرة الكرام البررة، ولكنه يعجز عن قراءة غيره. وينبغي الإقرار بأن النبى ﷺ كان

العربية، وهو ما يعنى أنهم لا يعرفون "معانى" الألفاظ التى تتكون منها الآيات؛ ومن ثم فإنهم محال عليهم أن يصلوا إلى المضمون أو المحتوى "العقلى" الذى تحمله

قادرًا على قراءة النص القرآنى المكتوب، وإلّا فكيف يكون بوسعه ﷺ أن يراجع كتبة الوحى، الذين كان يملى (يتلو) عليهم ما أنزل إليه، ويتأكد من صحة ما كتبوه، وأنه مطابق للنص الذى قرأه في الصحف التى نزل بها الملائكة السفرة الكرام البررة. كيف يكون النبى ﷺ المرجع فى صحة النص المكتوب لو لم يكن قارئًا باسم الله له؟!

وكان ﷺ فى أول عهده بالوحى يتعجل قراءة كلمات القرآن المبسوطة أمام بصره، عند نزول الملائكة بها محمولة على الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة؛ فكان يتطلع بعينيه إلى النص المرسوم عليها فيما وراء ما كان جبريل عليه السلام يقرأه عليه، أعنى أنه كان يمد بصره ناظرًا إلى كلمات أخرى غير التى يقرأها (ينطق بها) جبريل عليه السلام، مما كان يجعله غير منتبه – بالقدر الكافى – إلى قراءة رسول السماء؛ ولذلك جاءته النصيحة من ربه عبر الوحى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤). يأمره بالتريث، وينهاه عن المسارعة إلى قراءة النص القرآنى قبل أن ينزل إليه وحيه، أى قبل أن يسمعه مقروءًا من جبريل عليه السلام، ويرشده - بدلًا من العجلة - أن يطلب من الله زيادة العلم؛ فإنه (ﷺ) لن ينال من العلم إلا ما أذن الله له به، أى بالقدر الذى يبيحه الله فقط!!

وقال ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ (سورة القيامة: الآية ١٦-١٩).

وهو ما يعنى أن رسول الله النبى محمد ﷺ كان يتعجل النطق بالكلمات التى يراها مكتوبة على الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة المبسوطة أمامه قبل أن يقرأها عليه جبريل عليه السلام، فنهاه عن ذلك، وطمأنه على أنه ﷻ قد تعهد بحفظ (جمع) القرآن له فى صدره؛ حتى لا ينساه، وقراءته حتى يعرف كيف يتلوه بعد ذلك، ولذلك فعليه أن يستمع منصتًا إلى قراءة جبريل، وأن يكرر وراءه القراءة محاكيًا الأصوات التى يسمعها.

هذا هو معنى قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، يأمره باتباع (متابعة) قراءة جبريل، وطمأنه على إيضاح ما غمض عليه منه بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾؛ حتى لا يشغل نفسه – عند الوحى – بالتفكير فى الآيات التى يصعب عليه فهمها حتى يكشف له الله عن حقيقتها.

إذن فواجبه ﷺ الصمت والإنصات، ثم محاكاة الأصوات، ويترك الحفظ والبيان، متوكلًا على الله ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فلننظر كيف ذكر القلم الذى تكون به الكتابة، أى رسم الكلمات حين أمر بالقراءة، ولنتذكر أن قارئ القرآن الماهر به، إنما يحاكى قراءة جبريل – رسول السماء – التى نقلها إلينا محمد ﷺ – رسول الأرض – ومن ثم فإنه يستحضر بالقراءة (التلاوة) الحسنة لحظة الوحى، ويكون – إذن – مع السفرة الكرام البررة، كما ذكر النبى ﷺ فى حديثه الشريف.

الكلمات.. فهم لا يدركون منها إلا "الأصوات" التى تصل إلى أسماعهم، وتخلق لدى وجدانهم شعورًا بالجمال، يرفعهم فوق مستوى العالم "الواقعى" الذى يعيشون فيه بأجسادهم، ويدلف بهم إلى عالم آخر، أو حياة أخرى تسمو فوق هذه الحياة الدنيا، التى تبدو – هنالك – صغيرة، قليلة الشأن زائلة بإزاء الوجود اللانهائى الذى أوقفتهم الموسيقى عند حافته، يطالعون بأبصار قلوبهم – فى دهشة وانبهار – حقائقه الغامضة البعيدة، وهى تقترب على أمواج النغمات.

يحكى الدكتور زكى نجيب محمود قصته مع القرآن بقوله: "كانت السور القصار هى أول ما التقى بسمعى من القرآن الكريم، وأقول "سمعى"، ولا أقول "عقلى"؛ إذ كيف كان لصبى فى الخامسة أن يدرك ما احتوى عليه اللفظ القرآنى المعجز من معانى اقتضته بعد ذلك عمرًا طويلًا ملأه بالدرس والتأمل لفهمها الفهم الصحيح، أو ما ظنه الفهم الصحيح؟! .. لكن صبى الخامسة – مع ذلك – قد أرهف أذنيه للنغم[1].

ويتذكر الأستاذ الدكتور/ زكى نجيب محمود كيف كان يصعد دَرَجَ السلم، وهو يصيح عند كل درجة بآية من آيات سورة العاديات.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [2].

---

(١) جريدة الأهرام فى ٢٣ / ١٠ / ١٩٧٨، نقلًا عن كتاب "نحو فقه جديد" تأليف الأستاذ/ جمال البناء، الجزء الأول، ص ١٦٧.

(٢) سورة العاديات: الآيات ١ ـ ٥.

إن الطفل الصغير لا يعرف معنى هذه الكلمات، ولا يفهم عما تتحدث الآيات، ولكنه أحس – بسمعه – أنها تصور حركة اندفاع متسارع، وقد خلقت لديه هذه الأصوات – بتآلفها وانتظامها – شعورًا بالجمال، فعبر عن إعجابه بها، بتحريك جسمه على نحو مماثل أو مواز للحركة التى تصورها الآيات بأصواتها، فأخذ يقفز على درجات السلم صائحًا أو مغنيًا بآية مع كل درجة يصعدها. هكذا صارت الآيات بالنسبة إلى سمعه جملًا موسيقية، وصار الدَّرَجُ كأنه سلم موسيقى، يتحرك عليه جسمه مع تصاعد النغمات.

(ب) سورة العاديات (الخيول الجامحة):

الآيات الأولى تصور عَدْوَ (جرى) الخيول عند قيام الفرسان بالإغارة والتحام الجيشين فى القتال، تقول: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ (١).

أقسم بالخيول التى تعدو مسرعة محدثة ﴿ضَبْحًا﴾، وهو صوت أنفاسها عند اشتداد عدوها، ليس صهيلًا ولا حمحمة.

إن مجرد النطق بلفظ ﴿ضَبْحًا﴾ يُخرِجُ من فم الإنسان عند نهاية اللفظ "(حًا)" صوتًا يحاكى صوت خروج نفس الخيل عند اشتداد عدوها. فهذا اللفظ ﴿ضَبْحًا﴾ يصور – صوتيًا – أنفاس العاديات، ويبين لنا أن موسيقى القرآن تنبعث من داخل (باطن) الحروف التى تسمى الأصوات، ومن تآلفها وتجانسها عندما تشترك مع بعضها فى تكوين كلمة أو لفظ واحد.

﴿فَٱلْمُورِيَـٰتِ قَدْحًا﴾ (٢): فالمشعلات النار بقدح حوافرها للأحجار.

يصور شدة عدو الخيول وقوة طرقها للأحجار بحوافر أقدامها؛ حتى أنها توقد النار من الأحجار. هكذا أرانا النار وأسمعنا صوت طرق الأحجار (القَدْحَ)، وبَيَّنَ لنا عبر

---

(١) سورة العاديات: الآية ١.

(٢) سورة العاديات: الآية ٢.

هذه الجملة الموسيقية أو الصورة الصوتية اندفاع الخيول العادية، وزيادة سرعتها كلما اقتربت من هدفها فى ساحة القتال.

إذن، الآية الثانية خطوة تالية – بعد الآية الأولى – فى حركة الخيول العادية نحو الحرب.

وقد ألمح إلى ظلمة الليل أو غبشة الفجر بذكر إخراج النار من الأحجار بالقدح، فأشار بذلك إلى وقت بدء الهجوم، واقتراب الصبح؛ الموعد المضروب للإغارة على الأعداء (ضوء النهار).

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ [١].

تقدم لنا هذه الآيات الثلاث نموذجًا للموسيقى القرآنية الرائعة: ظاهرة وباطنة. فنجد فيهن وحدة الوزن والقافية أو الفاصلة، التى تعنى الكلمة الأخيرة من الآية: ﴿ضَبْحًا﴾، ﴿قَدْحًا﴾، ﴿صُبْحًا﴾، وتعطى مثلًا لما أسماه القدماء من أهل البديع بالسجع المرصع[٢]؛ حيث اتفقت الآيات فى الوزن، والفواصل فى الحرف الأخير (السجع)، وهذه هى الموسيقى الظاهرة.

ونجد فيها تآلف وتجانس الحروف (الأصوات) فى بنائها للكلمات، ثم انتظام الكلمات معًا لتكوين جملة موسيقية، أو بناء نغمى يعطى معنى عقليًّا وصورة فنية. ونجد فيها التحام الآيات (أو الجمل الموسيقية) معًا؛ من أجل المشاركة فى تشييد بناء عقلى / جمالى؛ حيث تؤدى الآية أو الخطوة الأولى، إلى الثانية إلى الثالثة .. فى حركة حرة، لكنها محكومة أو مضبوطة من داخلها. فلقد رأينا الخيول الجامحة تعدو مسرعة محدثة صوت الضبح، وتورى – عند اشتداد عدوها – النار من الأحجار بالقدح، ثم تتمكن من الإغارة على الأعداء عند قدوم الصبح.

---

(١) سورة العاديات: الآية ٣.

(٢) كتاب "معجزات القرآن"، الأستاذ الدكتور / شوقى ضيف، ص ٥٣، ٥٤؛ حيث ذكر أنواع السجع فى فواصل الآيات.

ولذلك فقد ربط القرآن الكريم كل آية (جملة موسيقية) بسابقتها بحرف الفاء الذى يفيد التعاقب والتسارع .. وتلك هى الموسيقى الباطنة.

والحقيقة الجديرة بإلقاء المزيد من الضوء عليها – هنا – هى أن موسيقى القرآن لا تفرض على النص من الخارج؛ بل هى نابعة من قلب (باطن) الألفاظ والسياق والبناء، بمعنى أن الشاعر أو الساجع يكون لديه عروض الشعر والقافية ماثلة أمامه مثل قوالب أو أوانٍ إيقاعية (موسيقية) فارغة، فيأخذ فى ملئها بالمعانى؛ أى يصب ألفاظه فى تلك الأوعية الخالية؛ ولذلك يحس القارئ متذوق الشعر أو السجع دومًا بانفصال المعنى عن الصوت فى ألفاظ الشعر والسجع، وهو ما يعنى ظهور أثر الصنعة، أو بالأحرى التصنع فى تلك المصنوعات الأدبية البشرية.

أما فى القرآن، فمحال – بموجب حكم التذوق الجمالى أو الذوق الفنى – الإحساس بتلك المفارقة بين المعنى والصوت فى ألفاظه، وهو ما يعنى انعدام أثر التصنع أو الافتعال فى خلق موسيقاه، التى تنبعث من قلب ألفاظه ونظمه وسياقه، كموج البحر الذى يستحيل فصله عن الماء، كما يستحيل فصل الروح عن الجسد فى أجسام الأحياء[١].

ولذلك نجد النص القرآنى البديع يلون تلقائيًّا موسيقاه، مغيرًا الوزن أو القافية (الفاصلة)، أو كلاهما حسبما يقتضيه المقام.

فعندما وصلت العاديات إلى ساحة القتال والتحم الفرسان، يتدافعون فى صراع عنيف مرير، يبغى بعضهم القضاء على بعض، وجدنا القرآن الحكيم يغير الحرف الأخير من الفاصلة (القافية)؛ لتصوير هذا المشهد الجديد الذى يسوده الاضطراب ويمتلئ بالتراب.

---

(١) الجسد هو المادة الحية أو الخامة التى يصنع منها الجسم، الذى هو الشكل أو الصورة التى تظهر بها المادة. فإذا ضربنا مثلًا للتوضيح نقول إن الجسد يعد بمثابة الخشب الذى يصنع منه المقعد (الكرسى) أو المائدة أو السرير أو ... إلخ. فكل هذه الأشياء صور أو أشكال تظهر فيها المادة الخام.

﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾ [(١)] ..

﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ [(٢)] ..

يصور تصاعد وهياج (ثورة) الغبار فى ذلك الصباح، تبعثه حركة الخيول عند احتدام الحرب، وتشتد إثارة الغبار حتى يمتلئ الجو بالتراب، ويصبح كالدوامات تحيط بالجمع المتقاتل.

والضمير فى الآية الرابعة: ﴿فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا﴾ يعود إلى الصُبح، بينما يشير الضمير فى الخامسة: ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ إلى النقع (الغبار) الذى التف حول الملتحمين فى القتال؛ حيث صاروا جميعًا فى وسط دائرة هائلة من الغبار، تثيره أقدام الخيول العادية.

لقد غطى الغبار جمع القتال، أى الجمع المتقاتل، واستحالت الرؤية، فكأن المتحاربين كلهم قد صاروا موتى مدفونين فى التراب الذى تثيره أقدام خيولهم. نعم أَلاَ يعدون جميعًا فى عداد القتلى؟!

فما الذى دفع بهم إلى هذا المصير؟

وما هو سر القتال والصراع المرير؟

وتأتى الإجابة من لدن حكيم خبير.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾ [(٣)].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة العاديات: الآية ٤.

(٢) سورة العاديات: الآية ٥.

(٣) سورة العاديات: الآية ٦.

(٤) سورة العاديات: الآية ٧.

إن الإنسان شديد الجحد (الإنكار) لنعم ربه؛ فإنه ينال من ربه ما لا يحصى من النعم، ولا يُنبت فى أقواله وأفعاله شكرًا، مثل الأرض الجدباء العقيم التى تحصل على الماء الكثير ولا تُنبت زرعًا.

وأعظم وأفظع مظاهر الكُنُود (الجحود) التكذيب بوحى الله، ومحاربة رسل الله والمؤمنين به؛ فهذا هو المعين الذى لا ينضب للحرب والقتال على وجه الأرض؛ لأن الكافرين المجرمين لا يريدون سماع كلمة الله، ولا يريدون لغيرهم أن يطيعوا ربهم!!

ولا يمكن للإنسان أن يبرئ نفسه من ذلك الكُنُود؛ لأن ربه على ذلك لشهيد؛ حيث يشهد الإنسان بذلك فى يوم الحساب على نفسه. ومن أجل تلك الحقيقة التى قد تغيب عن الإنسان فى هذه الحياة الدنيا، فيتوهم أن بوسعه تبرئة نفسه من كفره، من أجل ذلك أكد تلك الشهادة بأداتين من أدوات التوكيد، هما: "إن" "ولام التأكيد": ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾.

ويكون ضمير الغائب "الهاء" مشيرًا – هنا – إلى الله، بقدر إشارته إلى الإنسان؛ لأن شهادة الله هى فى الحقيقة شهادة الإنسان على نفسه. وقد أكد كنود الإنسان لربه بوسيلة أخرى، هى وضع لفظ "ربه" ملاصقًا للفظ الإنسان، فلم يقل: "إن الإنسان لكنود لربه"، بل قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، جاعلًا بهذا النظم (الترتيب) الإنسان فى مواجهة مباشرة مع ربه بالكنود؛ لأن حرف اللام فى لفظ "لربه" يعطى معنى: "عند" ومعنى: "متجهًا"، أو مستقبلًا، أى فى مواجهة، فالإنسان عند ربه وفى مواجهته "لكنود"، شديد الجحود للنعمة، فهو لا يعلن عن تمرده على ربه وجحوده لنعمه غافلًا عن حقيقة عمله، بل هو شهيد: عليم بما يعمل، ناطق به فى يوم آت لا ريب فيه حين يشهد على نفسه. فانظر إلى حكمة النظم البديع!!

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (١).

(١) سورة العاديات: الآية ٨.

﴿ٱلْخَيْرِ﴾: هنا هو المال .. يقول: إن الإنسان لشديد الحب للمال، قوى الرغبة فى تحصيله، وعظيم الحرص على جمعه واكتنازه. وهذا أصل للضلال والفساد فى الأرض. ههنا يبين المصدر الثانى للنزاع والقتال فى الأرض. فإن الحب الشديد للمال هو الذى يبعث الإنسان على شن الحروب من أجل الاستحواذ على مصادر الثروة، ونهب أموال الآخرين.

اللافت لنظر المتأمل فى هذا النظم البديع، اتصال اللام – وهى أداة التعلق – بالحب وليس بالخير؛ فلم يقل مثلًا "إنه لشديد الحب للخير (المال)"، بمعنى: إنه لعظيم الميل للمال يجمعه ويكتنزه، بل قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، مبينًا أن سبب الضلال والفساد هو تعلق القلب بالمال: أى وجود حب المال فى قلب الإنسان، وليس مجرد الإقبال الشديد على المال، ولذلك وَصَل اللام - وهى أداة التعلق – بالحب، وليس بالخير (المال).

هكذا نرى النظم القرآنى الذى تنبعث منه الموسيقى، ليس حيلة أو صنعة، أو مجرد براعة لغوية، تصب الألفاظ فى القوالب الإيقاعية الفارغة؛ من أجل إحداث الأثر السمعى المنشود كما يصنع الشعراء أو السُّجاع، ولكنه قدرة إلهية تفوق قدرة البشر على استعمال اللغة من أجل التعبير عن علم إلهى يحيط بكل شىء.

ونرى السياق القرآنى الذى يتم فيه الانتقال من آية أو جملة موسيقية إلى أخرى، يعبر عن حكمة إلهية بالغة، تتطلب من الإنسان إدراكًا حسيًّا وعقليًّا خالصًا، أعنى تجردًا وإخلاصًا؛ من أجل الظفر بالحقيقة الكامنة فى النص البديع، الذى لم ينسج على منوال سابق، وليس له مثيل لاحق.

وهكذا نسمع الموسيقى القرآنية تتلون من موضع إلى موضع، دون أن تفقد تأثيرها على حِس المستمع المنصت، أو تفقد وحدتها الباطنية، أى تشابهها وهى تنتقل من مقام إلى آخر.

لقد تغير الوزن (الإيقاع)، واختلفت الفواصل عند تحول السياق من وصف حركة الخيول – فى الآيات الخمس الأولى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ – إلى تفسير أسباب الحروب – فى الآيات من السادسة إلى الثامنة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾؛ مما يبرهن - بدليل ذوقى - على أن الموسيقى القرآنية موسيقى تصويرية، تعبر عن، وتبلغ التمام فى إجادة تصوير المشاهد المتنوعة التى ينتقل بينها النص الحكيم لوصفها[1].

ثم انتقل السياق فى لحظة واحدة، بل فى أقل من طرفة عين، من الدنيا إلى الآخرة؛ ليبين أن المقاتلين المستورين وراء الغبار (المحاطين بالنقع)، يماثلون الموتى المدفونين فى التراب، الذين سيبعثون يومًا ما، ويخرجون من التراب شاهدين ومشهودين بعد غياب، كما يخرج المحاربون بعد انجلاء غبار المعركة بين قاتل وقتيل، وفائز ومهزوم، فقال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾[2].

إيقاع جديد وفواصل جديدة، تلائم ذلك الخلق الجديد.

قوله: ﴿بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ إشارة إلى شدة زلزلة الساعة التى ستضرب الأرض، والتى سينتفض على أثرها الموتى أحياء، يتناثرون فى الهواء تناثر الغبار الذى أثارته أقدام العاديات وهى تضرب الأرض.

---

(١) ونعتقد أن القرآن الحكيم يقدم بهذا الصنيع الأساس المتين لتطوير أو تحديث القصيدة العربية؛ حتى تتحرر من القيود الشكلية المتزمتة التى يفرضها القدماء والتقليديون على الشعر العربى العمودى؛ مما أفقده الكثير من الإبداع والحيوية والإنسانية فى الكثير من عصوره التاريخية. لقد سبق القرآن الكريم المجددين فى العصر الحديث، الذين طالبوا بتحرير الشعر العربى من قيود وحدة البحر (الإيقاع) ووحدة القافية.

(٢) سورة العاديات: الآيات ٩ - ١١.

وقوله: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يشير إلى إخراج وجمع كُتُب (صُحُف) الأعمال من صدور العباد بعد بعثهم؛ تمهيدًا لحسابهم.

والمقصود بيان أن المال الذى حرص الإنسان - أشد الحرص - على تحصيله، وقاتل فى سبيله، قد زال مع زوال الدنيا، ولم يبق للإنسان إلا عمله مجموعًا فى صدره؛ مسجلًا فى كتابه الذى سيجده يومئذ منشورًا أمامه؛ ليحاسب به الإنسان نفسه.

إذن جمع الأعمال الصالحة خير للإنسان من جمع المال، الذى يقضى الإنسان حياته فى القتال من أجله.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ بيان أن الله ﷻ يسبق علمه علم خلقه، فهذا هو معنى اسمه الخبير؛ لأن الخبرة هى سبق العلم. وسيشهد الإنسان هذه الحقيقة التى كانت تغيب عنه فى الدنيا، أى سيعرف معنى هذا الاسم الإلهى يوم القيامة، عندما يرى كتابًا يخرج من صدره مدونة فيه أعماله، فيعلم – يومئذ – أن الأعمال التى قام بها فى الدنيا، كانت معلومة من الله، ومكتوبة فى اللوح المحفوظ قبل خلق الإنسان؛ ومن ثم فقد كانت فى علم الله قبل أن يعلمها الإنسان.

لم يقل: "إن ربهم لخبير بهم يومئذ"، أو "إن ربهم يومئذ لخبير بهم"، بل قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فألصقهم بربهم دون فاصل من الألفاظ؛ ليشير بهذا النظم الفريد إلى حضور الله عندهم؛ لأن حرف الباء يفيد الصحبة أو المعية، وهو ما يعنى حضورهم عند الله، فلم يجعل فاصلًا بينهم وبين ربهم بأى لفظ، بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾، الذى يعنى إن ربهم عندهم، أى فى صحبتهم، حاضر لديهم بحضورهم لديه.

فأنى يقول هذا غير الله؟!

فسبحان من كان هذا القرآن كلامه!!

(ج) شهادات العجم والعرب على موسيقية القرآن:

ومن المؤكد أن الدكتور/ زكى نجيب محمود ليس حالة فريدة لا تتكرر، فكلنا يشهد الأطفال الصغار، وهم يتمايلون بأجسامهم، ويهزون رءوسهم إلى الأمام والخلف، جيئة وذهابًا، وهم يحفظون القرآن ويتلونه فى "الكتاتيب".

ولدى شخصيًّا فى هذا الصدد قصتان لا تنسيان:

الأولى: تخص طفلًا رضيعًا كثير البكاء والصراخ، فكانت أمه – وهى موظفة زميلة لنا فى العمل – تضعه بجوار المذياع، وتضع المؤشر على محطة القرآن الكريم، فما أن يشرع القارئ فى الترتيل حتى يتوقف الطفل عن الصراخ والبكاء، كأنما ينصت إلى الأصوات التى جذبت سمعه واستأثرت به، ثم يأخذ فى هز جسمه، مستجيبًا للنغمات التى يتلقاها حسه الجمالى.

والثانية: هى قصة ابنتى – عندما كانت تبلغ من العمر ستة أعوام - إذ كنت أتلو عليها ذات مساء فى شرفة المنزل سورة البينة، محاولًا تحفيظها إياها، فإذا بالطفلة الصغيرة وقد استخفها الطرب تقول لى: "حلوة جدًّا هذه الكلمات يا أبى كأنها أغنية"!! فقلت لها: "أيها تقصدين؟"

فأعادت عَلَيَّ التلاوة وهى تتمايل برأسها: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (١).

ومن المؤكد أنها لم تكن تعرف معنى هذه الكلمات، ولكنها أحست بالموسيقى، وما قالته طفلتى الصغيرة، قاله أيضًا علماء الحملة الفرنسية التى غزت مصر عام ١٧٩٨م؛ حيث انبهروا بالألحان المرسلة بلا إيقاعات أو آلات، وظنوا أن تلاوة القرآن ليست إلا نوعًا من الغناء، وكتبوا: "ليس لهذا الغناء سُلَّم نغمى محدد أو مميز، ومع ذلك فإن

(١) سورة البينة: الآيات ١-٣. انظر كتابنا "القرآن معجزة كل العصور"، ص ٢٥-٣١.

نغماته تـنهض على أسـس تخطـى بـاحترام يكـفى كى يجعـل منهـا نغمـات يمكـن تمييزها"[١].

وحاول علماء الحملة الفرنسية تدوين سورة الفاتحة بالعلامات الموسيقية. ويصف أحد الباحثين الفرنسيين ما "سمعه" من القرآن الكريم بقوله: "إنه بالغ العذوبة، مثـير للعاطفة ولكل المشاعر الحية والباعثة على الشجن"[٢].

بل لقد قدم "إدوار وليم لين" فى كتابه "المصريون المحدثون" "النوتة" الموسيقية الـتى وصفها لسورة الفاتحة كما سمعها[٣].

وتكلم - أيضًا - كثير من الكتاب العرب عن موسـيقى القـرآن، مثـل الأسـتاذ / مصطفى صادق الرافعى فى كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، الذى قال فيه: "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه فى كلماته وكلماته فى جمله ألحانًا لغوية رائعة، كأنها - لائتلافها وتناسبها - قطعة واحدة، قراءتها هى توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين فى عجزهم؛ حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح فى خرافاته إلى ما حسبه نظمًا موسيقيًّا، أو بابًا منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف فى اللغة وأساليبها ومحاسنها، ودقائق التركيب البيانى، كأنـه فطـن إلى أن الـصدمة الأولى للنفس العربية، إنما هى فى أوزان الكلمات وأجراس الحروف دون ما عـداها، ولـيس يتفق ذلك فى شىء من كلام العرب إلا أن يكون وزنًا من الشعر أو السجع"[٤].

والأستاذ/ سيد قطب فى كتابه "التصوير الفنى فى القرآن" خاصة فى بـاب "التناسـق الفنى" الذى تحدث فيه عن ألوان الموسيقى فى النظم القرآنى.

---

(١) كتاب "نحو فقه جديد" للأستاذ جمال البناء، الجزء الأول، ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦١.

(٤) كتاب "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية"، ص ٢١٤.

ولعل أهم ما لفت نظر الأستاذ/ سيد قطب، هو ما يمكنني تسميته بالتشكيل الموسيقى للألفاظ القرآنية، وأعنى به اختيار القرآن الكريم ونحته للألفاظ، التى يعطى نطقها الأثر السمعى الموسيقى المعبر أو المصور – صوتيًا – لمعناها العقلى؛ أى مدلولها اللغوى (المعجمى)، وضرب لذلك الأمثال التى نختار منها:

(١) ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١).

قوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: يشير ببنائه (تشكيله) وطريقة نطقه إلى مدى المعاناة التى يكابدها الإنسان للارتفاع والصعود من قبضة الغرائز الجسدية التى تشده إلى الأرض، فهذا اللفظ يصور - بصوته - الجسم المُثَّاقل، يرفعه الرافعون فى جهد، فيسقط من أيديهم من ثقله.

ولو أنك قلت "تثاقلتم" لخف الجرس، ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التى رسمها هذا اللفظ بصوته واستقل برسمها(٢).

(٢) ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾:

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾(٣).

يصور تباطؤ المنافقين عن الدخول فى الحرب خشية القتل، ولكنهم لا يستطيعون المجاهرة بالقعود والتخلف؛ خشية اللوم والعقاب، وطمعًا فى اقتسام الغنائم المحتملة؛

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٨.
(٢) كتاب "التصوير الفنى فى القرآن"، ص ٩١.
(٣) سورة النساء: الآية ٧٢.

ولذلك فإنهم يتظاهرون بالاستعداد للقتال، ولكنهم يتباطئون ويتعمدون التباطؤ؛ حتى تنتهى المعركة ويعرفون النتيجة، فإن كانت الهزيمة للمؤمنين – كما يتمنون – أعلنوا عن شكرهم لله لنجاتهم من الهزيمة وغيابهم عن الجهاد!!

وصف تعمد التباطؤ أو التلكؤ بلفظ ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾، فترتسم صورة التبطئة فى جرس العبارة كلها، وفى جرس: ﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ خاصة، وإن اللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها حتى يصل – ببطء - إلى نهايتها[١].

(٣) ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾:

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [٢].

يحكى ما قاله هود عليه السلام لقومه لما رأى إعراضهم عن دعوة الله لهم وإصرارهم على الكفر، فسألهم: ألا تفكرون فى أننى أستند إلى دليل ثابت، أقامنى ربى عليه، ومنحنى رحمة من عنده، هى رسالته إليكم ... فأُخِفيَت عنكم حقيقتها، فهل نلزمكم إياها؟!، هل نفرضها عليكم، وأنتم لها كارهون؟!

انظر إلى قوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، الذى أَدمَجَ فى لفظة واحدة السؤال التقريعى بالهمزة التى تعنى "هل"، والفعل والفاعل والمفعولين، وهما: القوم المخاطبون والرسالة التى خوطبوا بها، فأصبحت عسيرة النطق، ثقيلة على اللسان .. "فتحس أن كلمة ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ تصور - بمجرد النطق بها، أعنى بأثرها السمعى أو صورتها الصوتية إن صح التعبير - جو الإكراه، بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق، وشد بعضها إلى بعض، كما يُدمجُ الكارهون مع ما يكرهون، ويُشَدُّون إليه، وهم منه نافرون"[٣].

---

(١) كتاب "التصوير الفنى فى القرآن"، ص ٩٢.

(٢) سورة هود: الآية ٢٨.

(٣) كتاب "التصوير الفنى فى القرآن"، ص ٩٢.

وانظر إلى قوله: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، الذى أشار بصيغة التشديد إلى غلظة الحجاب الكثيف الذى حال بين الكافرين وبين رؤية الرحمة الكامنة فى الرسالة الإلهية، حتى صارت هى عمياء عنهم، لا تراهم ولا تصل إليهم، وصاروا هم عميانًا عنها، لا يرونها ولا يجدون إليها سبيلًا، رغم أنها واقفة عليهم قائمة لديهم، ولكنها تغطيهم، فتعميهم، ولا تكشف لهم عن أنفسهم ليروها، فهى عليهم لا لهم!!

(٤) ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1].

لم يقل لفظ "يصرخون" الذى يعطى صوتًا حادًّا، بل قال: ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾، مضيفًا إلى لفظ الصراخ حرف الطاء، الذى أضفى عليه خشونة وغلظة، "فيخيل إليك جرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تلقى إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذى لا يجد من يهتم به أو يلبيه[2].

ولنتأمل – نحن – فى النظم الحكيم، الذى قال: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا ﴾، ولم يقل مثلًا: "وهم فيها يصطرخون ربنا"؛ لأن النظم القرآنى الحكيم أعطى معنى حبسهم واحتباس أصوات اصطراخهم فيها، لا تستطيع الخروج منها، واضعًا لفظ

(١) سورة فاطر: الآيتان ٣٦، ٣٧.

(٢) كتاب "التصوير الفنى فى القرآن"، ص ٩٢.

﴿فِيهَا﴾ حائلًا بينهم وبين ربهم، يحول دون وصول أصواتهم إلى رحمته ﷻ؛ فهم محجوبون فيها عن رحمة ربهم.

ولم يقل: "فقال لهم ربهم، أو فأجابهم ربهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ بل ذكر رد الله على اصطراخهم، الذى يأتيهم فى محبسهم المحجوبين فيه، دون أن يشير إلى توجيه الخطاب الإلهى إليهم؛ للدلالة على احتجابه ﷻ عنهم، وهو ما يعنى احتجابهم عنه، كما صرح بذلك فى قوله ﷻ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [٢].

(٥) ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [٣].

يبين شدة تشبث اليهود بالحياة الدنيا، وغفلتهم التامة عن الحياة الآخرة، فيؤكد أنهم أشد الناس حرصًا على الحياة الدنيا، حتى أنهم يكونون أشد حرصًا عليها من الوثنيين، وأن الواحد منهم يتمنى أن يعيش ألف سنة. ولكن طول العمر – مهما طال - لن يستطيع أن يبعدهم عن العذاب الذى أعده الله لهم؛ جزاء على أعمالهم التى يراها على حقيقتها، ويحصيها عليهم.

انظر كيف أشار إلى شدة جذب جهنم للكافرين، حتى أنهم لا يستطيعون منها فكاكًا، وهى تقبض عليهم؛ لتقذف بهم فى قلبها المستعر .. إنهم يتمنون من أعماق

(١) سورة البقرة: الآية ١٧٤.

(٢) سورة المطففين: الآية ١٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٩٦.

نفوسهم لو أن أحدًا أو شيئًا يستطيع أن "يزحزحهم" إلى خارج العذاب الذى يمسك بهم، ولا يريد أن يفلتهم.

إن لفظ: ﴿بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ ليصور بصوته شدة المعاناة التى يكابدونها بأملهم المستحيل فى الخروج من العذاب. كما أن العمر الطويل الذى عاشوه فى الدنيا وتمتعوا فيه بنعيمها، لا يعوضهم ولا يقدم لهم عزاءً عن العذاب الأبدى الذى يعانونه فى الآخرة، ولا يساعدهم فى تخفيف ألمهم.

ولننظر إلى تنكير لفظ "حياة" فى قوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾، الذى يدل على شدة تشبثهم بالدنيا، مهما قلّت قيمة، أو رخص ثمن حياتهم فيها، ومهما نالوا من إهانة وإذلال.

(٦) ﴿فَكُبْكِبُوا۟﴾:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ (١).

اسمع كيف يصور لفظ "الكبكبة" صوت تدافع أفواجهم وهى تلقى فى جهنم، فوجًا بعد فوج، فيرتطمون ببعضهم.

(٧) ﴿يُدَعُّونَ ... دَعًّا﴾:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ (٢).

"فلفظ الدع يصور مدلوله بجرسه وظله جميعًا .. ومما يلاحظ هنا أن الدع هو الدفع فى الظهور بعنف، وهذا الدفع فى كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتًا غير

(١) سورة الشعراء: الآية ٩٤.

(٢) سورة الطور: الآية ١٣.

إرادى، فيه عين ساكنة هكذا "أعْ"، وهو فى جرسه أقرب ما يكون إلى جرس "الدع"[(١)]!.

حقًّا إن هذا القرآن لا يخلق على كثرة الرد!!

(د) القرآن ليس شعرًا :

ومن الآيات البينات على موسيقية القرآن إدخاله بعض التعديلات على نطق (صوت) وبناء (رسم) الكلمات، بالحذف أو الإضافة؛ حتى يحافظ على الوزن (الإيقاع) والقافية (الفاصلة).

ومن أمثلة ذلك حذف "الياء" فى قوله على لسان إبراهيم ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [(٢)]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [(٣)].

والمتذوق لهذا النص البديع لا يحس بأى اضطرار أو اضطراب اعترى الناطق به، مما أجبره على إدخال التعديل المطلوب على بناء أو رسم الكلمات من أجل الحفاظ على الموسيقى، فهو بالقطع ليس من نوع الضرورات الشعرية التى تجبر الشاعر على مخالفة قواعد اللغة من أجل المحافظة على البناء الموسيقى للنص؛ لأننا نحس فى القرآن – مع الترتيل – بانسياب الموسيقى وتدفق المعانى والصور البلاغية (الجمالية) فى حرية تامة، وانطلاق بلا قيود؛ فالوقوف عند النهاية التى اختارها النص الفريد للآيات أو الجمل الموسيقية يبدو – لوجدان المتذوق – تلقائيًّا لا تعسف فيه.

---

(١) كتاب "التصوير الفنى فى القرآن"، ص ٩٥.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٤٠.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ٧٨ ـ ٨١.

والمتأمل - صاحب التجربة الدينية والمعرفة الخاصة - يظفر فى هذا الحذف بإشارات ذات مغزى إلى مقام الفناء، الذى وصفه العارفون من أهل التصوف، ويعنى معاينة العبد زوال رسوم الخلق فى طريق ظهور الحقيقة التى تمحو الأغيار.

ففى الآية الأولى (الأربعين من سورة إبراهيم)، لم ينسب إبراهيم الدعاء إلى نفسه ولا إلى ذريته؛ لأن الدعاء – فى الحقيقة – عمل إلهى لا شريك لله فيه؛ لأنه ﷻ هو الذى استدعى عبده إلى حضرته، وألقى الكلام على لسانه، ثم استجاب للنداء بفيض رحمته، فلو لم يأذن الله للعبد بالدعاء ما كان دعاء.

وفى المجموعة الثانية (الآيات ٧٨ - ٨١ من سورة الشعراء)، نجد أن النص الحكيم يصف على لسان إبراهيم عليه السلام بعض منازل سير العارفين بالله فى معراج الوصول إلى الحقيقة، الذى ينتهى بزوال المخلوق فى الخالق بفناء المعرفة فى المعروف.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ ..

الهداية من الله وإليه، وتمامها بمحو العابد فى المعبود، فناسب ذلك حذف "الياء" الدالة على المخلوق، الذى هداه خالقه إليه، فلم يعد لرسم المخلوق وجود مشهود، فانتفت الإشارة إليه.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾ ..

الطعام والماء هنا ليسا للجسد (كتلة الطين النابتة من قشرة الأرض)؛ لأن المقصود طعام وماء الهداية التى ذكرها فى الآية السابقة وعلقهما بها أو عطفهما عليها بحرف الواو الذى نطق به فى مفتتح الآية التالية.

إذن، هما طعام وماء القلب، الذى هو مستودع الروح الذى تكون به المعرفة، فهما طعام العلم وماء المحبة المنبت للمعرفة التى تفضى بصاحبها إلى زوال وجوده.

وانظر كيف كان ظهور الله الذى أشار إليه بلفظ ﴿هُوَ﴾ مفضيًا إلى اختفاء المخلوق العابد، الذى أشار إليه بحذف الياء التى تدل عليه؛ فشروق شمس الله الخالق

هو غروب العابد المخلوق، وفى مقام العلم – المشار إليه بالطعام – يبقى رسم العابد المخلوق؛ ولذلك أشار إبراهيم عليه السلام إلى نفسه، فقال ﴿يُطْعِمُنِى﴾. أما فى مقام المعرفة النابتة بماء المحبة – وهى مقدمة الفناء – فإن رسم العابد المخلوق يبدأ فى الزوال؛ ولذلك حذف الإشارة إليه، فقال ﴿وَيَسْقِينِ﴾!!

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ..

المرض – هنا – ليس مرض الجسم، بل مرض القلب، الذى يعنى رؤية غير الله، والمقصود: وإذا مرض قلبى برؤية غيره، فإنه يشفينى بحضوره الذى يمحو الأغيار؛ فإن حضور الله يعنى غياب ما سواه؛ لأن الحقيقة تُنسِى الأوهام، فكيف يذكر نفسه فى ذلك الشفاء المفضى إلى محو ما سوى الله، فحذف حرف الياء الدال على نفسه!!

﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ ..

"يميتني": يسترد نفسى عائدًا بها إلى غيبه، ثم يحيينى بروحه، فلا أرى ولا أجد سواه؛ لكل ذلك كان حذف "الياء" التى تشير إلى ذات المخلوق.

وكذلك أضاف حرف "الهاء" إلى بعض الكلمات، كما جاء على لسان عبده السعيد، وقد أيقن من النجاة، متناولًا عمله بيمينه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (١).

وعلى لسان العبد الشقى الذى أيقن بالهلاك بعد أن أخذ كتابه بشماله:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾(٢).

(١) سورة الحاقة: الآيتان ١٩، ٢٠.

(٢) سورة الحاقة: الآيات ٢٥-٢٩.

أضاف "الهاء" إلى "كتابى، وحسابى، ومالى، وسلطانى". وإذا تأملنا المواضع (الكلمات) التى أضيفت إليها الهاء – التى سماها القدماء هاء السكت – نجد أنها كلهـا تـشير إلى رؤية الأشياء عند انتقالها بين الغيب والشهادة.

فإن الكتاب (صحيفة الأعمال) والحساب كانا فى الغيب، ثم صارا يـوم القيامـة فى الشهادة، بمجرد أن تلقى العبد كتابه فى يده، ولم يستغرق ذلك الانتقال من الغيب إلى الشهادة إلّا مجرد لحظة، بل أقل من لمح بالبصر؛ مما يسفر عـن دهـشة عظيمـة تـصيب العباد وهم يطالعون تحول الغيب إلى شهادة فى أقل من طرفة عين.

والإنسان يعبر عن دهشته عند رؤية الشىء العجيب – الذى يتجاوز قدرة عقلـه على الإدراك حتى يوشك ألَّا يصدقه – بانطلاق شـهقة مـن صـدره، تظهـر فى خـروج حرف "الهاء" من فمه المفتوح إلى آخر مداه .. هآ.

فإذا تكلم وهو على هذه الحال من الدهشة، فلابد أن تخالط الهاء الكلمات الخارجة من فيه؛ لأنه يتكلم وهو يلهث؛ مما يضطره إلى التوقف المفاجئ عند بعض الكلمات؛ فهو مضطر إلى السكوت فى بعض المواضع أثناء كلامه؛ بسبب لهاثة الناتج عن دهشته.

لهذا جاءت هاء السكت فى تلك المواضع من نص القرآن البديع.

ولكن دهشة المؤمن السعيد يمتزج بها سرور عارم، يزيد من لهاثه عنـد الـكلام؛ لمعاينته أن الله ﷻ قد أخفى (كَفَّر) سيئاته من كتاب عمله، ولم يُبْق (يُثْبِت) فيه إلّا الحسنات، فيستخفه السرور، ويقوم يدعو جميع الخلق المحتشدين فى موقع الحـساب؛ ليروا كتاب عمله الملىء بالحسنات والخالى من السيئات، قائلًا:

﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾.

بدأ كلامه بـ "هـآ" الدهشة الممتزجة بالسرور والفخر، وسكت على "الهـاء" فى نهايـة كل جملة من كلامه؛ من شدة تأثره.

أما الكافر الشقى فإن دهشته العظيمة يغزوها فزع شديد وغم ثقيل، يزيدان من تأثره ولهاثه، حتى أنه يكاد لا يستطيع مواصلة الكلام، فيضطر للسكوت على "هـآء" السكت عدة مرات، قائلًا:

﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾﴾.

يتمنى لو ظل ميتًا ولم يُبعث؛ حتى لا يُؤتى صحيفة عمله التى امتلأت بالمعاصى، ولا يواجه الحساب الذى يفضى به إلى الخلود فى النار.

ويتمنى لو كانت صيحة (نفخة) القيام التى ابتثعته حيًّا فى جهنم، هى صيحة (نفخة) الصعق التى قضت عليه وأنهت عذابه من قبل.

إنه الآن – بعد نفخة القيام – يعانى من شدة الافتقار إلى شىء يدفع عنه العذاب، وقد أيقن عدم جدوى المال، الذى ضيع حياته الدنيا فى جمعه وكنزه؛ فإن ماله لا يقيه العذاب ولا يخفف من ألمه .. وقد ضاع الآن ماله.

ويعانى من زوال سلطانه؛ فقد غادره إلى الأبد، وصار هو بلا حول يدفع عنه الضرر، ولا قوة تجلب له النفع.

إنه الآن - بعد نفخة القيام – يعانى ضياع المال وزوال السلطان وخروجهما من يده – حيث كانا موضع شهادته – إلى ظلمة الغيب، حيث لا سبيل إلى استردادهما، فيعبر عن دهشته الممزوجة بالفزع والألم، فتخرج الهاء لتجبره على السكوت أثناء الكلام ..

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾.

هكذا نرى أن "الهاء" فى كل تلك المواضع قد عبرت عن حركة الانتقال بين الغيب والشهادة؛ وهو الأمر الذى يتأكد لنا إذا تأملنا فى الموضع الآخر الذى جاءت فيه "هاء"

السكت – التى ينبغى أن تُسمى "هاء" الغيب – بسورة القارعة، التى يقول القرآن فيها: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾[١].

يخاطب نبيه ﷺ قائلًا ما معناه بكلماتنا: وكيف يتأتى لك أن تعرف ماهية الهاوية قبل أن نكشف لك عنها؟! أو من أين لك أن تعرف حقيقة الهاوية قبل أن نخرجها – بالنور – من الغيب إلى الشهادة؟! ههنا فى موضع الكشف عن الغيب والخروج إلى نور الشهود، جاءت "الهاء" مرة أخرى؛ لتعبر عن الدهشة فى ذلك المقام.

إن النطق بالهاء فى تلك المواضع لا يمثل – فى العالم المحسوس – أكثر من خروج قبضة من الهواء تنطلق من الحلق، مصاحبة للنَّفَسِ الملازم للصوت؛ فهى مجرد "نفخة" تخرج من فم المتكلم، ولكنها تعبر – كما بينا – عن الدهشة المتولدة من معاينة حركة الانتقال بين الشهادة والغيب أو الحياة والموت.

إذن يمكننا أن نقول إن النطق بالهاء يحاكى صوتيًا - بلساننا - خروج الكلمة الإلهية "كن" التى يأتمر بها الكون، وتتحرك بها الأشياء بين الحضور والغياب؛ فإن الكلمة الإلهية "كن" ليست أكثر من نفخة من الله سبحانه وتعالى.

فانظر الآن إلى قول القرآن: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾[٢] ، الذى يبين أن الوعد الإلهى يتحقق: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾، وهو ما يعنى أنه يخرج من الغيب إلى الشهادة، على نحو يماثل خروج الكلمات من فم الإنسان، أى نفخات الهواء التى تنطلق من الأفواه عند النطق، كما تخرج "الهاء" عند شعور الإنسان بالدهشة؛ لأن الله يخلق الشىء بقول "كن"، فلا يملك الشىء الذى تلقى الخطاب إلا أن يكون.

انظر إلى هذا القرآن الذى لا تنقضى عجائبه!!

---

(١) راجع تفسير سورة القارعة فى كتابنا "القرآن معجزة كل العصور"، ص ٩٣-١٠١.

(٢) سورة الذاريات: الآيتان ٢٢-٢٣.

وتقدم لنا السورتان: الحاقة والقارعة أسلوبين آخرين من أساليب الموسيقى فى القرآن، وهما: ١- تكرار بعض الألفاظ أو المقاطع لإضفاء الإيقاع؛ أى تحقيق صفة التثنية التى أشرنا إليها من قبل. فنجد أن سورة "الحاقة" تبدأ بهذه الآيات التى تشبه الضربات أو الطرقات التى يبدأ بها القاضى جلسة المحاكمة: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ (١).

ثم ذكر الجريمة والعقاب.

وتبدأ سورة "القارعة" بالآيات التى تشبه دقات أو قرعات الطبول التى يبدأ بها الجيش سيره إلى القتال وأهوال الحرب.

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ (٢)، ثم يبدأ وصف الأهوال يوم القيامة.

وكذلك تتكرر فى القرآن بعض الآيات التى تمثل مقاطع فى السياق تضبط الإيقاع، مثل قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فى سورة الرحمن، وقوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فى سورة المرسلات.

٢- تعاقب الآيات، التى تصور معانى متناقضة ومشاهد متناظرة، على نحو يماثل تعاقب الليل والنهار فى مسيرة الزمن، فنجد مشاهد العذاب تتعاقب مع مشاهد النعيم، وكذلك مصائر المؤمنين مع مصائر الكافرين.

وكل ذلك يضفى على النص القرآنى موسيقى أخرى باطنة (داخلية)، تقابل الموسيقى الظاهرة التى وصفنا آنفًا بعض ملامحها.

ومن أجل الموسيقى العالية التى يصدح بها النص القرآنى، التبس أمره على العرب. فوصفوه أو قارنوه – دومًا – بالشعر؛ لأن الموسيقى المنبعثة منه تقطع صلته بالنثر. ﴿بَلِ

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ١ - ٣.

(٢) سورة القارعة: الآيات ١ - ٣.

قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ (١)، يعبر عن تضاربهم فى شأن القرآن الذى أذهلهم ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٢).

فهو ﷺ شاعر – فى نظرهم – لأن فى قرآنه موسيقى تشتبه عليهم مع ما فى الشعر، وهو مجنون (حاشا لله)؛ لأنه يأتيهم بأقوال تصادم عقولهم، ويصف لهم أشياء لا تخطر لهم على بال.

ورد عليهم قائلًا: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (٣). فالقرآن حق، وليس شعرًا .. إنه تعبير عن علم الله، يكشف عن المكنون فى الغيب الذى احتواه كتاب الله المسمى باللوح المحفوظ، وهو إعلان وتأكيد لصدق الأنبياء المرسلين من الله من قبله.

وقد اتهموه أيضًا بالكهانة؛ لأن فى القرآن ما يشتبه عليهم مع سجع الكهان، فدافع عن نبيه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (٤).

ونفى الله ﷻ عن القرآن – نفيًا قاطعًا لكل شك – أن يكون شعرًا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٥).

وهى قضية أعتقد أننا – فى ضوء ما بيناه فى هذا الفصل – قادرون على الحكم – علميًّا – بصحتها، بغض النظر عن إيماننا الدينى بها، خاصة أننا لا نجد فى القرآن الكريم الحياة الشخصية الذاتية (الداخلية) للإنسان النبى (محمد بن عبد الله) ﷺ

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥.

(٢) سورة الصافات: الآية ٣٦.

(٣) سورة الصافات: الآية ٣٧.

(٤) سورة الطور: الآيتان ٢٩، ٣٠.

(٥) سورة الحاقة: الآيات ٤٠ – ٤٣.

فليس فى سور القرآن أحزانه على موت رفيقة حياته .. المرأة التى آمنت به حين كفر الناس، وأعانته بمالها حين حرمه الناس، ولا أحزانه على فراق أولاده الذكور الذين اختطفتهم يد الموت فى طفولتهم الباكرة؛ فإن المتكلم بالقرآن يتجاوز - بكل تأكيد - شخص محمد الإنسان.

ولقد صدق الوليد بن المغيرة – وهو الرجل الذى حارب الإسلام ومات على الشرك بالله والكفر بالقرآن – حين حكم بحكم الله بنفى الشعر عن القرآن، فقال لقريش، وهم يستحثونه على سب القرآن: "فوالله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذى يقوله شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته"[١].

ولقد أكد التاريخ صحة الحكم الإلهى؛ حيث عجز الشعراء العرب – فى كل العصور – على معارضة القرآن، أو الإتيان بمثله، أو بسورة من مثله؛ لأنهم قد عجزوا - وسيعجزون - عن اكتشاف "سره"، أو الوصول إلى "منواله" الذى عليه نسجت آياته وسوره.

يقول الدكتور "مارديل" - المستشرق الفرنسى الذى كلفته الحكومة الفرنسية بترجمة بعض سور القرآن الكريم: "أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق عز وجل؛ ذلك أن الأسلوب الذى ينطوى عليه كنه الكائن الذى صدر عنه هذا الكتاب لا يكون إلا إلهيًّا، والحق والواقع أن أكثر الكُتَّاب ارتيابًا وشكًّا قد خضعوا لتأثيره وسحره"[٢]. ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [٣].

---

(١) كتاب النبأ العظيم – للدكتور/ محمد عبد الله دراز، ص ٩٣.

(٢) كتاب "القرآن معجزة كل العصور، ص ١٨.

(٣) سورة يس: الآية ٦٩.

فإذا لم يكن القرآن نثرًا ولا شعرًا، فماذا يكون؟ يخبرنا النص القرآنى بمجرد تلاوته أنه نسيج وحده، ليس له "منوال"، يمكن نسج مثله عليه، ويستحيل تصنيفه؛ فهو يقف فريدًا فى نوعه، بأسلوبه الفذ الذى لا يتكرر، وخير إجابة عن السؤال هى إجابة "القرآن"؛ إذ يصف نفسه بقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [١].

* * *

(١) البروج: الآيتان ٢١، ٢٢. انظر كتابنا "القرآن معجزة كل العصور"، ص ٣١.

الفصل الخامس

المجـاز

(حقيقة المجاز مجاز الحقيقة)

(أ) أقـلام الله وكلمـاتـه :

تقوم "الرؤية الإبداعية" فى القرآن الكريم على النظر إلى الأشـياء باعتبارهـا آيـات إلهية، يدلل بها الخالق على نفسه، أى يعرف بها ذاته ويكشف عن غيبه؛ ومن ثم فإن الأشياء تعد رموزًا لحقائق أكبر منها، والتدبر فيها حسيًّا (جماليًّا) وعقليًّا، لابد أن يفضى إلى الحقيقة الكبرى التى تكمن فيها أو تقوم وراءها، وهى الحقيقة الـتى نـشير إليها بقولنا "الله أكبر".

هكذا تصبح الأشياء علامات على الطريق إلى الله، وهذا هو "سر" الأمر بـالنظر إلى الأشياء بعين التأمل، أعنى بروح الإدراك الحسى والعقلى الخالص؛ ابتغـاء الوصـول إلى حقيقتها، أى ابتغاء وجه الله القائم خلفها؛ فإن الأشياء تعد بمثابـة نوافـذ مغلقـة إذا فتحناها بنور الإدراك الحسى والعقلى الخالص، أى بنور "المعرفـة" طالعنـا – هنالـك – وجه الله: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١).

﴿وَٰسِعٌ﴾: يحيط بكل شىء، ﴿عَلِيمٌ﴾: يتبين ويبين حقيقة الأشياء لمن يريد أن يتعرف إليه.

---

(١) سورة البقرة – الآية ١١٥.

فى نور هذا الفهم تصبح المخلوقات "أمثلة" يضربها الله؛ ليشير بها إلى الحقائق الباطنة، وهو ما يعنى أنها فى حقيقتها كلمات يصوغها الله بروحه؛ ليكشف بها عن ذاته ﷻ.

المخلوقات إذن – فى جوهرها – كلمات إلهية، عبر بها ﷻ عن نفسه، كاشفًا بها عن غيبه. وهى الحقيقة التى أشار إليها فى المثل الذى ضربه القرآن فى قوله:

﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴾ (١)
الكلمات – هنا – هى المخلوقات، وليست ألفاظ الرسالات الإلهية التى أوحاها إلى أنبيائه؛ لأن كلمات الكتب التى حملها رسل الله محدودة، ولا تستغرق ماء البحر فى تدوينها؛ فإن كتابة (نسخ) كلمات الكتب السماوية لا تستهلك إلّا كمية صغيرة من الحبر (المداد)، لا يمكن مقارنتها أو تشبيهها بماء البحر!!

والآية الحكيمة تقول: لو افترضنا أن الماء الكثير الذى أودعه الله فى البحر قد صار حبرًا تكتب به مخلوقات (= كلمات) الله فى كتاب العلم الإلهى المسمى باللوح المحفوظ، فإن البحر سينفد (سُيستَهلك) ماؤه فى الكتابة، قبل أن ينتهى من تسجيل كل مخلوقات الله على اللوح، حتى إذا أتينا بقدر البحر مدادًا يضاف إلى المداد المستهلك فى الكتابة. والآية "كناية" عن حقيقة كثرة مخلوقات الله التى لا يحصيها عد. وقد سمى المخلوقات كلمات؛ لأنها وسائل عبر بها عن نفسه، كاشفًا عن غيبه، كما يعبر الإنسان عن مكنون نفسه بالألفاظ التى ينطق بها.

وقال: ﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾ (٢).

والمعنى المشار إليه بهذا المثل هو: لو افترضنا أن جميع ما تحمله الأرض من أشجار قد تحول خشبها إلى أقلام، وأن كل ما فى الأرض من ماء قد صار مدادًا لكتابة

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

مخلوقات (كلمات) الله على صفحة اللوح المحفوظ، وأن سبعة أبحر قد صُبّ ماؤها فى البحر - الذى جعله الله موضعًا للكتابة - بعد أن نفد ماؤه، وتحول كل ذلك الماء الكثير إلى مداد، فإن مخلوقات الله أكثر عددًا من أن يكفى كل ذلك الماء المتحول إلى مداد لكتابتها.

هذه صورة بلاغية (جمالية) أو تعبير مجازى (بلاغى)، أريد به التعبير عن حقيقة كلية، تشمل الكون كله، وهى كثرة مخلوقات الله التى تملأ الأرض والسماوات؛ حيث يعجز العقل الإنسانى – المخاطب بهذا القرآن – عن أن يحصى عددها، أى لا يقدر على إدراك مقدار كثرتها. ولكن هذه الصورة الجمالية أو التعبير البلاغى لا يتضمن أى قدر من الخيال غير الحقيقى، بمعنى أنه لا يحتمل أى مبالغة أو كذب، ولا يناقض العقل أو يتعارض مع العلم، أو يستحيل تصور حدوثه (تحققه)؛ فإنه لا يتجاوز الحقيقة الكُلية التى يعجز الإنسان عن الإحاطة بها أو إدراكها فى لغة أخرى غير لغة البلاغة أو الجمال. فهو – إذن – تعبير يُقَرِّبُ الحقيقة التى تتعالى على الوصف العلمى المحدود. فلا يمكن أن تجتاز الحقيقة الكلية الكبُرى الطريق إلى معرفتنا إلا عبر التعبير الجمالى أو التصوير الفنى، وبذلك نفهم أن حقيقة المجاز فى القرآن هى أنه مجاز الحقيقة إلى الإنسان.

إن القرآن يطلب منا أن ننظر إلى المخلوقات، التى يعدها العقل حقائق محسوسة مشهودة باعتبارها مجازًا؛ أى مجرد "أمثال" أو صور تعبيرية تشير إلى الحقائق التى تغيب عن العقل .. إنها أمثال (صور أو رسوم) يضربها (ينزلها) الله فى الشهادة؛ ليكشف بها عن الغيب.

واختار فى المثال (المثل المضروب) الماء ليكون مدادًا تكتب به كلمات (أنفس) المخلوقات؛ ليشير بذلك إلى أن "الروح" كان هو الأداة، أى القلم الذى كُتبت به أنفس المخلوقات فى اللوح المحفوظ .. إنه "اليد" الإلهية التى خرجت بها الكائنات من الغيب إلى الشهادة؛ لأن الماء هو وعاء الروح، أى الشىء الحامل لسر الحياة.

واختار الرقم سبعة فى قوله: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾؛ ليشير إلى السماوات السبع التى ارتقى (استوى) إليها الروح، ناشرًا فى كل سماء منها قدرًا أو جزءًا من مجموع النفوس، ثم تَنَزَّلَ بينهن ناشرًا فى سماء قسمًا أو جزءًا من علم الله المودع فى اللوح المحفوظ، موحيًا فى كل سماء أمرها (كتابها، أى نصيبها من كتاب العلم الإلهى)، ملهمًا كل نفس فيها فجورها وتقواها.

كان ذلك فى بدء التكوين، أو الخلق الأول القديم، الذى سبق يوم الدنيا هذا الذى نعيش فيه.

(ب) العمل الصالح سنبلة الخلود:

انظر إلى قول القرآن: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هو الإسلام؛ لأن عقيدته وشريعته هما الطريق المؤدى بمن يسير عليه إلى الله.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هم المؤمنون الذين يبذلون ما يملكون من أجل نشر الإسلام، وبسط سلطانه على الأرض؛ فهم بذلك الإنفاق يعلنون مجد الله، وبذلك يستحقون أن يجزل لهم العطاء بما يتفق مع كرمه ﷻ؛ نظير عطائهم فى نشر رسالة الإسلام، بتجهيز الدعاة الذين يبلغون كلام الله إلى الناس، وإعداد القوة التى تحمى الدعوة من أعدائها، الذين يحولون بين الناس وبين سماع القرآن، ويقفون حجر عثرة يمنع عبادة الله.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦١.

فما جزاء هؤلاء المؤمنين الكرماء الذين ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ ما هى حالهم عند الله؟ أو ما هى "الهيئة" التى يتمثلون بها يوم القيامة؟ أو بتعبير القرآن ما هو "مَثَلُهم" (صورتهم فى علم الله)؟

سؤال لا يمكن الإجابة عنه بألفاظ تصف فى دقة وعلى سبيل التحديد أو التعيين حالهم وجزاءهم عند ربهم؛ فإن اللغة البشرية التى تخاطب الإنسان لا تستطيع حمل تلك المعانى (الحقائق) الإلهية الغائبة عن علم الإنسان، فكان لابد من التشبيه بشىء مشهود فى العالم المحسوس، يكون بينه وبين ذلك المثل (الحقيقة القائمة فى علم الله) مماثلة، تقرب إلى عقل الإنسان ووجدانه تلك الحقيقة الغائبة؛ ليكون هذا الشىء المشهود المضروب مثلًا مرآة، تتجلى للإنسان على صفحتها صورة تلك الحقيقة الكامنة عند الله.

ولذلك شبه الجزاء (الثواب) الوفير الذى ينتظر المنفقين بحبة قمح واحدة، توضع فى تربة الأرض؛ أى تعود إلى أصلها الذى خرجت منه فى البدء، فتنتج ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ .. هكذا أصبح الواحد سبعمائة، أو يصير القليل كثيرًا عندما تعيد الأشياء صلتها بأصلها الذى أنشأها أول مرة، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ الأجر ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَٰسِعٌ﴾ – هنا – تعنى جزيل العطاء، يكافئ بالكثير على القليل.

﴿عَلِيمٌ﴾ – هنا – تعنى أنه يتبين حقيقة نوايا عباده.

وهكذا يتبين لنا أن قوله ﷻ ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هنا (فى الآية ٢٦١ من سورة البقرة)، يتميز فى مضمون إشارته عن موضعه هناك فى الآية ١١٥ من سورة البقرة.

إن حال وصفة المنفقين فى سبيل الله تشبه حال وصفة حبة القمح التى تنبت سبعمائة حبة، فتلك الصورة الكامنة فى غيب علم الله يمكننا – فقط – أن نقترب من

معرفتها بالنظر إلى شيء يشبهها أو صورة مشهودة فى هذه الحياة الدنيا، وهى حبة القمح التى تضاعف نفسها سبعمائة مرة بفضل الله.

وإذا كان هذا التشبيه يقرب إلينا الحقيقة الغائبة عنا، فإنه يدعونا إلى الصعود من الشهادة إلى الغيب، بالنظر إلى الأشياء الموجودة فى العالم المحسوس، أى مكونات هذه الحياة الدنيا؛ باعتبارها مجرد أمثلة مضروبة، أو صور "مجازية" تعبر عن حقائق أكبر منها، وتتجاوز قدرة العقل البشرى على الإدراك. وهذه هى وظيفة المجاز، أى الصورة البلاغية فى القرآن.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (١).

يشبه حال المنافق – الذى أنفق ماله طلبًا للسمعة والوجاهة عند الناس دون إيمان حقيقى بالله واليوم الآخر – عند القيامة بحال حجر أملس يغطيه تراب، فنزلت عليه مياه مطر غزير، فأزالت ما عليه من تراب، وتركته عاريًا صلبًا شديدًا، لا يستطيع أن يمسك بالماء الذى ينزلق عليه مسرعًا، ولا يقدر - بالتالى - أن ينبت فيه زرع.

كذلك يكون حال المنافق يوم القيامة، عندما يعاين بطلان أعماله التى قام بها فى الدنيا رياء الناس، وليس ابتغاء مرضاة الله؛ إذ تزول عنه أعماله، ويبرز قلبه القاسى كالحجر الصلد عاريًا مكشوفًا، قد امتلأ بالكفر، لا يستطيع الإيمان أن ينفذ إليه، ولا العمل الصالح أن ينبت فيه. وعلى مرآة هذه الصورة الجمالية (البلاغية) نستطيع أن نرى:

- قلب المنافق فى صورة الصفوان (الحجر الأملس).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٤.

- العمل الباطل، أى المال الذى أنفق ابتغاء الرياء، فصار هباءً فى صورة التراب الذى أزاله ماء السماء.

- أهوال يوم القيامة فى صورة الوابل (المطر الغزير).

- الإيمان الذى به حياة القلب، فى صورة الماء النازل من السماء فى هيئة المطر، الذى تكون به حياة الأرض.

- العمل الصالح فى صورة الزرع النابت بماء المطر.

- نزول القرآن (الوحى) فى صورة نزول المطر من السماء.

- بطلان الأعمال التى لم يُبْتَغَ بها وجه الله، فى صورة زوال التراب من فوق الحجر الأملس شديد الصلابة، دون أن يترك أثرًا باقيًا مفيدًا. وبالتأمل فى هذه الصورة الجمالية (البلاغية) الرائعة، نكتشف أنها مفعمة بالمعانى الروحية العميقة، وأنها تشير - فى بلاغة فريدة - إلى حقائق قائمة فى غيب علم الله ﷻ.

قوله: ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ" يذكر القارئ المتدبر بقوله ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾[١].

قوله فى سورة البقرة واصفًا حال المنافقين يوم القيامة: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾، يشير إلى معنى عجزهم عن الإمساك بأى شىء من أعمالهم (كسبهم)، وعن الاحتفاظ به حتى يوزن لهم بميزان الأعمال الصالحة (الحسنات)؛ فهم يعانون من ضياع الأعمال التى توهموا أنها يمكن أن تنقذهم من عذاب الآخرة؛ إذ كانوا يعيشون فى الدنيا وهم يحسبون أنهم: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[٢].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٩.

إنهـم: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ (١).

أما قوله فى الآية الثامنة عشرة من سورة إبراهيم: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾، فيشير إلى معنى عجز الكافرين عن القيام بأى شىء ينقذهم من العذاب فى الآخرة؛ بسبب أعمالهم السيئة فى الدنيا؛ حيث أعلنوا الكفر، وجاهروا بالمعصية، فاختاروا - عامدين - الطريق المؤدى إلى الهلاك، ولا يتصور – عقلًا – وجود من يكونون أبعد فى الضلال ممن يختارون طائعين (راضين) غير مستكرهين الطريق المفضى إلى الخلود فى العذاب، ولذلك ختم الآية: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾.

ههنا – مرة أخرى فى سورة إبراهيم – نرى الأعمال غير الصالحة رمادًا (ترابًا)، تذروه الريح الشديدة هباء منثورًا فى يوم عاصف، يهتز فيه كل شىء بعنف.

(ج) المؤمنون بستان الرحمة الإلهية :

وننتقل إلى الصورة الأخرى المناظرة. قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢).

الوابل: المطر الغزير.

الطل: الماء المعلق فى الهواء الذى يسمى "الندى".

على مرآة هذه الآية القرآنية تتجلى لنا الصورة الإلهية للمؤمنين المنفقين فى سبيل الله، أعنى حقيقتهم القائمة عند الله، على هيئة أشجار تُكوِّن بستانًا، يقوم على بقعة

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٥.

عالية من الأرض، ترتفع فوق السطح، مقتربة من السماء، فينزل عليها المطر الغزير – الحامل للروح، سر الحياة – فيمنحها البركة التى تجعلها تعطى ضعف المحصول المنتظر منها، فإن لم يكن من نصيبها نزول الوابل عليها، فإنها ستحصل – بفضل مكانها العالى – فى جميع الأحوال على الندى، وهو قطرات الماء السابحة فى الهواء، التى تمدها بسر الحياة، وتضمن لها محصولًا وافيًا كافيًا على الدوام.

على صفحة هذه المرآة نرى البستان القائم على ربوة صورة مشهودة لأنفس المؤمنين الصادقين المنفقين فى سبيل الله، ونرى نفس المؤمن شجرة طيبة من أشجار الفاكهة، ونرى الربوة صورة مشهودة للعمل الصالح، الذى يرفع المؤمن فوق الأرض إلى السماء، ويقربه إلى الله.

ونرى الوابل (المطر الغزير) صورة لرحمة الله النازلة على عباده المؤمنين، والتى تتجلى فى أعظم صورها فى وحى الله (القرآن الكريم)، الذى تتلقاه قلوب (أوعية) المؤمنين بالقبول (التصديق)، فيمنحهم البركة (دوام الحياة). ونرى نزول الماء من السماء (المطر)، صورة لنزول القرآن، الذى يختلف تلقى الناس له، فيحصل المقربون على وابل منه، بينما يكتفى المؤمنون من أهل اليمين بالطل الذى يمنح الحياة، ولكنه لا يمنح رؤية العَيَان؛ لأنه يكون ضبابًا يشبه الغمام أو الظِل.

أما الكافرون - سواء أعلنوا أو أبطنوا فصاروا منافقين - فإنهم جميعًا تكون قلوبهم مثل الصفوان (الحجر الأملس)، ينزلق عليه الماء (القرآن)، دون أن يترك فيه أثرًا، أو ينبت فيه زرعًا، بل يتركه صلدًا.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .. يرى حقيقة الأعمال؛ إذ يعاين ما فى القلوب من نوايا، ويعرف قدر ما فيها من إخلاص.

قوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ يشير إلى معنى أنهم يبذلون أموالهم طلبًا لتثبيت أنفسهم على الصراط؛ حتى لا يهتزوا عند سيرهم، فيتردون فى الهاوية: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾[(١)].

لكن ذلك التثبيت الذى يطلبونه لأنفسهم إنما يأتيهم ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، يشير بهذا التعبير ﴿أَنفُسِهِمۡ﴾ إلى ذواتهم الحقيقية أو "أمثالهم" القائمة فى علم الله، أى "أعيانهم الثابتة" الحاضرة عند الله على الدوام؛ فإنها الحقائق الخالدة التى تتبدى فى هذه الحياة الدنيا، أى على مرآة هذا العالم المشهود فى شتى الصور (الرسوم) المختلفة، التى يتشكل (يتركب) فيها الإنسان كلما شاء الله له الظهور.

من تلك الأنفس الخالدة (الأعيان الثابتة أو الأمثال القائمة فى علم الله)، يستمد البشر المؤمنون القوة التى تساعدهم على السير على الصراط المستقيم، المفضى بهم إلى رحمة الله ورؤيته ﷻ .. فهم يستمدون التثبيت من أنفسهم، والحقيقة المشار إليها بهذا التعبير أن الإنسان يجاهد من أجل أن يظفر بحقيقة نفسه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾[(٢)].

إن غاية جهاد الإنسان فى حياة الابتلاء فى هذه الدنيا، أن يظفر - فى النهاية - بمعرفة حقيقة نفسه، وحينذاك سيعرف أنه كان مجرد صورة لظهور ربه، أى وسيلة تحققت بها إرادة الله ﷻ فى التعريف بذاته (جل فى علاه).

وفى مثل "جنة بربوة" إشارة إلى عدة حقائق علمية، تبوح بسر اختيار الله لمكان الجنة أن يكون بربوة؛ وذلك لأن أشجار البساتين التى تكون فى مكان مرتفع عن سطح الأرض، يتاح لجذورها أن تجد المتسع الذى تضرب فيه وتتعمق؛ مما يؤدى إلى نمو

(١) سورة القارعة: الآيتان ١٠، ١١.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦.

وقوة وكثرة تفرع المجموع الجذرى للأشجار، والذى يتيح لها أن تحصل على غذاء أكثر وأفضل من مثيلاتها النابتة فى مستوى أسفل على سطح الأرض.

ومن ناحية أخرى، فإن التربة على الربوة تكون فى منجاة – بارتفاع مستواها عن سطح الأرض – من المياه الجوفية الكامنة فى الأرض، حيث تغمر التربة وتعوق تغذية وتهوية الجذور؛ مما يؤثر سلبًا على نمو وازدهار الأشجار.

وهذه الحقيقة العلمية يعرفها أهل الزراعة، الذين ينصحون دومًا بالحرص على أن تكون تربة بساتين الأشجار أعلى من مستوى المياه الباطنة (الجوفية) فى الأرض بما لا يقل عن متر ونصف المتر؛ حتى يضمنوا نموًّا كافيًا للمجموع الجذرى؛ ومن ثم للشجرة كلها، فتؤتى أكلها مضاعفًا بإذن الله. والخلاصة أن الربوة تضمن ثبات الجذور (الأصول) وقوتها؛ ومن ثم تضمن نمو الأشجار وبركتها.

وفى "الوابل" أيضًا إشارة إلى حقائق علمية يعرفها أهل الزراعة؛ لأن الرى بالمطر الغزير الذى يهطل من السماء على الأرض أفضل من الرى بالمياه السطحية؛ وذلك لأن هطول المطر الغزير (الوابل) فوق الأشجار يغسلها، ويزيل التراب وسائر المواد العالقة والملتصقة بالأوراق الخضراء، التى تعد الجهاز التنفسى والإخراجى للأشجار؛ ومن ثم فإنه يؤدى إلى تحسين عمليات النتح، والتنفس، والبناء الضوئى، التى تقوم عليها حياة الأشجار، بل حياة كل الكائنات على وجه الأرض.

ويؤدى هطول المطر الغزير إلى نفاذ قطرات الماء إلى أعماق أبعد فى التربة؛ مما يحث الجذور على الضرب فى أعماق التربة، باحثة عن الماء، فيؤدى ذلك إلى نمو وقوة الجذور (الأصول)، التى تعتمد عليها الأشجار فى غذائها. فضلًا عن أن الوابل يذيب فى طريقه من السماء إلى الأرض الكثير من العناصر والمركبات العضوية وغير العضوية العالقة بالهواء، فينتج عن ذلك تنقية الهواء، بالإضافة إلى أن تلك المركبات تنفذ معه إلى أعماق التربة، وهى مركبات بالغة الفائدة، تزيد من خصوبة الأرض، فتوفر للأشجار أفضل طعام. كما أن نفاذ قطرات الماء النازلة من السماء، والمندفعة بقوة خلال التربة، يؤدى إلى تخلخلها وتهويتها؛ مما يحسن وظيفة التنفس عند الجذور.

فانظر كيف اختار القرآن الحكيم الربوة لتكون مكانًا للجنة (البستان)، التى شَبَّهَ بها نفوس المؤمنين المنفقين أموالهم فى سبيل الله، وكيف اختار الوابل النازل!! من السماء ليكون وسيلة الرى، أى سقى الأشجار بدلًا من الماء المنبعث من الأرض!!

انظر وتأمل فى هذا الذكر الحكيم.

إن أَمثالَ القرآن تحتوى على حقائق علمية، فضلًا عن كشفها لحقائق الغيب فى تعبير أو تصوير جمالى (بلاغى)، وهذا هو فيصل التفرقة بين مجاز القرآن ومجاز غيره من أساليب البشر فى الشعر والنثر؛ ولذلك فقد طلب منا القرآن أن نتدبر فى أمثاله بعين العقل، بالإضافة إلى تذوقها بحس الوجدان؛ لأنها تتضمن العلم والمعرفة الذوقية تحت ثوب الجمال، الذى تجذب به الأسماع والأبصار.

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[١].

(د) المؤمن شجرة طيبة :

ويفضى بنا مَثَلُ "جنة بربوة" إلى اعتبار أن الإنسان يعد فى العلم الإلهى بمثابة شجرة؛ لأنه نبت فى البدء من تربة الأرض؛ حيث خرج فى الخلق القديم – الذى يسبق هذه الحياة الدنيا – كما تخرج الأشجار.

تلك نشأة أولى قديمة، نسيناها فى هذه الحياة الدنيا التى تبدأ بولادتنا من الأرحام، فجاء القرآن ليذكرنا بها عبر الأمثال، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[٢].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٣.

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤، ٢٥.

روى الشيخان - البخارى ومسلم - وغيرهما من أصحاب الحديث الشريف أن النبى ﷺ قد تلا قول الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾، ثم قال ﷺ: "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مَثَلُ المسلم (أو المؤمن)، فحدثونى ما هى؟"، فخفى على القوم علمها، وجعلوا يذكرون أنواعًا من شجر البادية، ولكنهم لم يصلوا إلى الشجرة المقصودة، فقال النبى ﷺ: "هى النخلة".

وكان ابن عمر حاضرًا معهم، عاشر عشرة، هو أحدثهم سنًّا، وفيهم أبو بكر وأبوه عمر بن الخطاب (رضى الله عن الجميع). وفَهِم ابن عمر أنها النخلة، ولكنه لم ينطق بما عرف.

فلما انصرفوا ذكر ابن عمر لأبيه ذلك، فلامه أبوه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لومًا شديدًا أن سكت عن إعلان ما فهمه؛ لأنه كان يريد التفاخر بابنه أمام الرسول ((ﷺ وذلك الجمع من الأصحاب الأجلاء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[1].

لقد أَوَّلَ الرسول ﷺ الشجرة الطيبة المذكورة فى الآية بأنها النخلة، وهو تأويل صحيح دون أدنى شك، ليس فقط لصدوره عن النبى ﷺ، بل أيضًا لأن القرائن الواردة فى الآية تؤيده.

فهذه الشجرة الطيبة وصفت بأن: ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾، والأصل هو الجذر الذى يضرب فى الأرض ويُثَبِّت الشجرة فى مكانها. ولا شك فى أن جذر (أصل) النخلة هو أشد الأصول (الجذور) ثباتًا؛ لأنه ينزل فى التربة إلى عمق بعيد، لا يصل إليه جذر أى شجرة أخرى. ولا شك – إذن – أن أصل النخلة يُضرَبُ به المثل فى الثبات، وكلنا يعلم - علم اليقين - أن اقتلاع نخلة من الأرض بجذورها يكاد يكون

(١) لعل من أهم ما يجب لفت الأنظار إليه - هنا في هذه القصة - هو وجود النص القرآني مصاحبًا لكلام النبي ﷺ في المقام نفسه؛ ليتضح الفرق المبين بين كلام الله وكلام البشر.

عملًا مستحيلًا؛ ولذلك فإن البشر عندما يريدون إزالة نخلة من المكان، فإنهم يفضلون اجتثاثها من فوق الأرض، أى قطع جذعها قريبًا من سطح الأرض، تاركين أصلها فى باطن التربة؛ حيث لا يتيسر نزعه أو استئصاله. فالنخلة هى أجدر الأشجار بوصف ﴿أَصۡلُهَا ثَابِتٞ﴾ فى الأرض لا يمكن نزعه أو اقتلاعه.

و"الفرع" هو الرأس، أى الطرف الآخر المقابل للأصل (الجذر)، ولا شك فى أن النخلة شجرة عالية القامة مرفوعة الرأس، يصل فرعها (رأسها) إلى أعلى من أسقف أغلب البيوت فى ذلك العصر الذى شهد نزول القرآن فى هذه الدنيا؛ ومن ثم فإنها أحق الأشجار بوصف: ﴿وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.

ولقد أول الرسول ﷺ الكلمة الطيبة الواردة فى الآية الكريمة بأنها المسلم (أو المؤمن)، بقوله ﷺ: "وإنها مثل المسلم (أو المؤمن)، يعنى: وإنها الصورة المشهودة فى عالم الحس على الأرض التى تشبه أو تقرب إلينا معرفة نفس الإنسان المسلم، أى عينه الثابتة أو "مثله" القائم فى علم الله، ويقصد به حقيقته الدائمة الحاضرة عند الله؛ حيث كانت نفس الإنسان كلمة من كلمات الله المودعة فى كتاب علمه ﷻ عند العرش، والتى يواصل إظهارها كلما شاء فى شتى الصور[1].

---

(١) انظر إلى قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ (الانفطار: ٦ – ٨).

قوله: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ يعنى فى أى صورة إن شاء ركبك؛ فإن "ما" فى القرآن الكريم تستعمل بمعنى "إن".

والمقصود أنه ﷻ يخاطب الإنسان يوم القيامة عندما تكشف الحقيقة كاملة، مبينًا أنه ﷻ قد أخرج الإنسان من الغيب، بإظهاره فى كثير من الصور (الرسوم) التى تقلب فيها منذ بدء الخلق، حتى انتهى إلى صورة آدم التى كانت موضع التكريم.

ولفظ "ركبك" يدل على أن الجسم (الصورة)، يتكون من أجزاء يتم تركيبها، أى ضمها معًا (تأليفها) بقوة الروح (سر الحياة)؛ من أجل أن تخرج النفس من الغيب إلى الشهادة؛ ومن ثم فإن الصورة (الجسم) بمثابة ثوب تلبسه النفس بقوة الروح؛ لتظهر في هيئة مشهودة، أو دابة مُركبة من تراب الأرض، تَرْكَبُها النفس، لتنتقل عليها من الغياب – حيث كانت كلمة مودعة فى ذلك الكتاب - إلى الحضور.

وبهذا الفهم (التأويل) النبوى، نعلم أن قول الله ﷻ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ يشير إلى نفس العبد الصالح، أى الإنسان المؤمن، وأنه يُشبه بالنخلة - التى استحقت وصف "شجرة طيبة" - لوجود أوجه شبه كثيرة بين المؤمن والنخلة.

ومن تلك الأوجه: أن أصل (جذر) كل منها ثابت. ويشير ذلك إلى ثبات قلب العبد الصالح على دين الله، أى على الإيمان، ويصبح الإيمان هو الأصل (الجذر)، الذى يعتمد عليه الإنسان فى بقائه حيًّا على الدوام؛ لأن الإيمان هو الذى يمد القلب بنور الحياة، كما يمد الجذر الشجرة بالغذاء؛ وذلك لأنه وسيلة اتصال الشجرة بمصدر الرزق وأصل الحياة، أى بالأرض التى نشأت منها كل الكائنات الحية، والتى تطعم كل ما عليها من مخلوقات، وكذلك فإن الإيمان هو وسيلة اتصال القلب بروح الله واهب الحياة.

(هـ) الملكــوت:

ويفضى بنا هذا الفهم إلى رؤية الأرض - أو بالأحرى التربة - باعتبارها مثلًا أو صورة محسوسة للملكوت، أى للشىء الذى خرجت منه جميع المخلوقات، والذى يعد أصلًا لكل شىء؛ ولذلك سماه القرآن "ملكوت كل شىء"، فهو الكائن الذى صدرت عنه كل الكائنات، أى الشىء الأول – روح الله - الذى انبعث منه السماوات والأرض، وكل ما فيهن من مخلوقات، كما نشأت كل النباتات والحيوانات من تربة الأرض. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1].

والمعنى المشار إليه بقوله "وكذلك" هو: وبعد أن أرينا إبراهيم أن الآلهة ينبغى أن تئول إلى إله واحد، وأن الأصنام التى يعبدها أبوه وقومه ليست إلا أوهامًا من صنع خيالهم، فعلى نحو مماثل لرؤية وحدة الخالق، أخذنا نريه (نكشف له) أن المخلوقات

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٧٤، ٧٥.

جميعًا ينبغى أيضًا أن ترجع فى البداية إلى مخلوق واحد، يعد أصلًا للجميع؛ فهو النَفْسُ التى تحتوى فى باطنها على كل شىء: السماوات والأرض وما فيهن.

وإذا تمكن من رؤية ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، سيكون بوسعه أن يصير أحد المشاهدين للغيب، أى واحدًا من الذين تحول الغيب عندهم إلى شهادة، وهؤلاء هم الموقنون؛ لأن اليقين يعنى صيرورة الغيب إلى شهادة بالعلم أولًا (علم اليقين)، وبالرؤية أو العيان ثانيًا (عين اليقين)، ثم أخيرًا بالتحقيق (حق اليقين).

إن واحديه الإله الخالق، أو بالأحرى أحديته، تفضى – فى الحقيقة – إلى وحدة الخلائق، بوجوب صدورها كلها عن النور المعبر عن إرادة الله فى الظهور (الكشف عن نفسه)، أعنى محبته التعريف بذاته، حيث تكون المخلوقات جميعًا مرايا تتجلى عليها صفاته.

يقول الله ممجدًا نفسه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١).

إذن فقد كنا – نحن الخلائق جميعًا، بموجب نص الآية – فى الملكوت الذى ينسب إلى كل شىء، أو ينسب إليه كل شىء، وإليه – لابد – أن نعود، عندما يرجعنا الله إليه فى يوم القيامة (٢).

ونعرف بذلك أن نفس العبد الصالح - مثل كل المخلوقات - كانت كامنة فى الملكوت، كما تكمن البذرة فى التربة، وأن الإنسان ظهر، أى خرج من الغيب بالنور، الذى انبعث (نزل) إلى الملكوت، كما تخرج الشجرة من البذرة الكامنة فى التربة بالماء الحاوى للروح (سر الحياة).

---

(١) سورة يس: الآية ٨٣.

(٢) انظر القسم الفريد الذى اختص به النبى ﷺ إذا كان يحلف قائلا: "والذى نفس محمد بيده"، وهو يشير بذلك إلى أن "نفس محمد" هى الملكوت الذى بيد الله ﷻ، والمقصود بكلمة نفسه - هنا - حقيقته القائمة عند الله، أى العين الثابتة التى كانت أصلًا لكل شىء، ومصدر كل معرفة.

فذلك النور المنبعث إلى الملكوت هو من "روح الله"، الذى وهب الأنفس الحياة، فأخرجها من الظلمات ومنحها المعرفة. والعبد الصالح (أو النفس المؤمنة) هو الذى قد أفلح فى تثبيت صلته بالملكوت، عبر جذر الإيمان بالوحى، الذى صاحب انبعاث النور (الروح)، كما تنجح الشجرة (النخلة) فى تثبيت نفسها فى الأرض (التربة) عبر جذورها الضاربة فى الأعماق.

وعلى مرآة النخلة، نرى فى استقامة جذعها نحو السماء مثلًا أو صورة لاستقامة العبد المؤمن فى سفره، حتى يصل فى نهاية سيره إلى الله؛ حيث يتخذ الهيئة أو يتشكل فى الصورة التى يظفر فيها بالحياة الدائمة أو الخلود، ويثبت للرؤية عند تجلى الله (جل فى علاه)، عندما تدهم السماوات والأرض أهوال القيامة؛ إذ يتهاوى بناء الكون، ولكن يبقى العبد الصالح - بفضل إيمانه - ثابتًا لمعاينة الحقيقة كما تثبت أوراق النخلة فى السماء.

انظر إلى قوله ﷺ: "شجرة لا يسقط ورقها"، الذى يشير إلى معنى ثبات المؤمن وبقائه سليمًا حيًّا فى أهوال البعث والقيامة؛ حيث تزول الجبال، وتتحطم الأرض، وتسقط السماء، وتنطفئ نجومها ... وتبقى نفس المؤمن، التى هى الكلمة الطيبة؛ لاحتوائها على الحقيقة فى نفسها؛ بفضل احتفاظها بنفخة روح الله، وبقائها متصلة بالملكوت.

وقوله ﷻ: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ يشير إلى معنى ظفر المؤمن بالحياة الأبدية الباقية، التى تمنحه الخلود فى رحمة الله برضى ربه عنه. ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ .. نشأتهم الأولى من الأرض حيث نبتوا من التربة كما تنبت الأشجار؛ إذ أخذت بذورنا – نحن البشر- من طينة آدم، ونُثرت (ذُرِئت) فى التراب، ثم تَنُقلَّ كل واحد منا فى شتى الصور حتى خرج فى النهاية على هيئة أبيه آدم، التى هى أجمل صورة، أو أحسن تقويم[١].

(١) يحتاج بيان مراحل خلق الإنسان في سياق خلق السماوات والأرض إلى تفصيل وتوضيح، فى نور ما فهمنا من آيات القرآن، ولكن المقام هنا لا يسمح بالمزيد، ولعل الله ﷻ يمنحنا فتحًا قريبًا.

(و) النشــأة الأولى :

تلك هى النشأة الأولى القديمة التى ذكرها الله صراحة على لسان نـوح ﷺ، حـين قــال الله ﷻ على لــسانه لقومـــه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾(١).

قال "نباتًا"؛ ليؤكد النشأة المباشرة من الأرض، التى تشبه نشأة الأشجار؛ لأن "نباتًـا" مفعول مطلق مؤكد!! ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ بالموت حـين تـدفن الأجـساد فى الـتراب حـتى تتحلل وتزول، ولا يبقى منها إلا "البذو" التى ينبت منها الإنسان مرة أخـرى، خارجًـا من قبره أو مدفنه عند البعث يوم القيامـة، ولذلـك خـتم الآيـة بقـوله: ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ .. يشير إلى البعث من القبور، وقد أكده بقوله: ﴿إِخۡرَاجٗا﴾؛ لأن الحياة بعد الموت موضع شك فى قلوب الكافرين.

وبهذا الذكر الحكيم نرى تماثلًا بين النشأة الأولى – قبل هذه الحيـاة الدنيـا، الـتى نشهدها بجماع الذكر والأنثى والولادة من الأرحام – وبين النـشأة الآخـرة بعـد هـذه الحياة الدنيا التى تنتهى بالموت. وقوله: ﴿يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ يدل - دلالة قاطعة - على أننا كنـا مدفونين فى الأرض قبل هذه الحياة الدنيا!!

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾(٢).

---

(١) سورة نوح: الآيتان ١٧، ١٨.

(٢) سورة الحج: الآية ٥.

يخاطب جميع البشر قائلًا: إذا كنتم تشكون فى البعث أحياء مرة أخرى بعد الموت؛ لأنكم تستبعدون – بعقولكم – نشأتكم مرة أخرى من التراب، فاعلموا أن الله قد خلقكم بالفعل على ذلك النحو منذ زمن بعيد، فى خلق قديم، نبتم فيه من التراب كما تنبت الأشجار.

ثم خلقكم فى هذه الحياة الدنيا المشهودة ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ يودعها فى الأرحام، وتشهدون بعلمكم مراحل تخلقها (تركيبها)، حتى يتكون الطفل المولود من الرحم.

انظر كيف فصل بين الخلق الأول من التراب وبين الخلق المشهود الآن - والذى يبدأ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ - بحرف ﴿ثُمَّ﴾؛ ليدل - دلالة قاطعة - على سبق الخلق من التراب على الخلق الحاضر الآن من الأرحام.

ثم يعطى - فى ختام الآية - دليلًا مشهودًا على الخلق الجديد بعد البعث من القبور بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ ميتة خامدة بلا حركة: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ﴾ الحاوى للروح (سر الحياة) ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ فرحًا برحمة الله الكامنة فى الماء ﴿وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾.

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ (٢).

ونشأتنا الآخرة ستكون من تراب، بهطول الوابل (المطر الغزير) عند البعث. وكذلك بدأ خلقنا الأول فى زمن قديم قبل ولادتنا من الأرحام. ففيم التعجب من البعث بعد الموت وقد خُلِقْنَا – من قبل – على النحو نفسه؟!

---

(١) سورة ق: الآية ١٥.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٢٠.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (١) .. يبين - بصريح العبارة - أننا قد نشأنا من الأرض قبل أن نصير أجنة فى بطون أمهاتنا.

ولنتذكر ما قاله موسى بن عمران عليه السلام لفرعون وملئه، متحدثا بلسان روح الله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (٢) .. يبين أن الخلق يعنى الإخراج، أى الإظهار، وأننا قد خرجنا من الأرض من قبل، ثم نعود لندفن فيها بالموت، ثم نخرج منها مرة أخرى عند البعث فى يوم القيامة. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بيان وتأكيد لحدوث "تارة" (مرة) أولى!!

ولنتذكر ما قاله الرجل الصالح لصاحبه الكافر وهو يحاوره: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ (٣).

وأخيرًا وليس آخرًا قال لنا جميعًا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٤).

يدعونا إلى تذكر تلك النشأة الأولى، التى نسيناها بنزولنا إلى الأرض مولودين من الأرحام، وكنا قد علمنا تلك النشأة الأولى - فى حياتنا السابقة - من الوحى القديم. وحتى لا يتوهم أحد – كما فعل المفسرون – أن المقصود بكل ذلك هو خلق آدم أبى البشر، قال لنا - ليرفع هذا الوهم الشائع الذى وقع فيه أكثر الناس: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٥).

---

(١) سورة النجم: الآية ٣٢.
(٢) سورة طه: الآية ٥٥.
(٣) سورة الكهف: الآية ٣٧.
(٤) سورة الواقعة: الآية ٦٣.
(٥) سورة الأعراف: الآية ١١.

يبين أننا كنا قد خُلقِنا، ومر علينا زمن عبر عنه بحرف "ثم"، اكتسبنا بعده هيئة آدم أى صورة الإنسان، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ﴾.

إذن، فقد شهدنا أمر الله للملائكة بالسجود لآدم، ولكننا ننسى ذلك الآن فى هذه الأجسام، فجاءنا القرآن ليذكرنا بتلك الأيام ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) حياتهم القديمة عند الله فى جنات عدن، قبل أن يعصى آدم ربه. وقد ذكر الله ﷻ تلك الأيام التى قضيناها عنده قبل هذه الحياة؛ حيث يقول فى القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (٢).

﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: أخرج المخلوقات من الغيب، حيث كانت كلمات مسطورة، فأنزلها من كتاب علمه إلى السماوات والأرض. وسمى المخلوقات "ظلمات"؛ لأنها تُخفِى بصورها الحقيقة الكامنة فيها، وأنزل بعدها (وراءها) " النور" (الوحى)؛ ليكشفها ويُعرِّفُ المخلوقات بحقيقتها؛ ولذلك عطف النور على الظلمات.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (٣) ..

﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ﴾: حكم بمرور حين من الدهر، أنزل مدة من الزمن، وذلك الحين أو تلك المدة محددة معلومة، وكنتم فيها – يا أيها الناس المخاطبون بهذا القرآن – عند الله فى جنته تغمركم رحمته. كما تقول لقد ضربته ضربًا، وضرب مبرح، تقصد أن هذا الضرب الذى أوقعته عليه كان مبرحًا ترك أثره على جسمه، لا أنك قد ضربته مرتين. أو تقول: "لقد منحته هدية وهدية ثمينة"، تعنى أنك لم تعطه أية هدية،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦.

بل هدية غالية الثمن، فأنت تريد تأكيد العطاء، وتثمين الهدية، لا أنـك قـد أعطيتـه هديتين.

ولذلك يتعجب ﷻ من شك المرتابين فى الرجوع إلى الله، وقد كانـوا عنـده قبـل أن يولدوا من أرحام أمهاتهم، فختم الآية متعجبًا: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾!!، يعنى: لا يحق لكم الامتراء فيما سبق حدوثه وتحققه!!

ويقول ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[1].

"أيام الله": الأجل المسمى الذى قضاه الناس عند الله قبل أن ينزلوا مطـرودين مـن الجنة مع أبيهم آدم إلى هذه الأرض؛ ليكابدوا الابتلاء فى هذه الحياة الدنيـا. فـإن تحلـوا بالكثير من الصبر، وبذلوا وسعهم فى شكر الله، تمكنوا من الرجوع إلى الجنة التى كانوا فيها قبل المعصية.

ولقد استمعنا - نحن البشر – جميعًا إلى القرآن الكريم – من قبل – عند نزوله إلى السماء الدنيا فى بدء الخلق، ونفذ فى قلوبنا كلنا، ولكننـا نـسيناه، فجـاء هـذا القـرآن ليذكرنا.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[2].

يشير إلى أن مجموع الأمثال أى "كل مثل" مودعة فى كتاب العلم الإلهى، وأنه ﷻ قد "ضرب"، أى أنزل ﴿فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ بعض تلـك الأمثـال المكتوبـة فى ذلـك الكتـاب؛

(١) سورة إبراهيم: الآية ٥.

(٢) سورة الزمر: الآية ٢٧. انظر فى إصرار القرآن العجيب على الإشارة إلى نفسه فى مجموع نصه باسم الإشـارة "هذا"؛ للإشعار بوجود قرآن آخر غير حاضر الآن؛ لأنه قد نسى مع النزول إلى حياة الابتلاء، فجاء "هـذا القرآن" ليذكرنا بذلك. وانظر كتابنا "القرآن معجزة كل العصور"، ص ٣٥، ٣٧.

راجيًا أن يتذكر الناس ﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾. والسؤال ماذا يتذكرون ؟! وتأتى الإجابة فى الآية التالية مباشرة: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (١).

المرجو أن يتذكر الناس ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ .. استمعوه من قبل عند خروجهم من الجنة، ونزولهم مع أبيهم آدم إلى حياة الابتلاء على هذه الأرض ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الدخول فى النار؛ ومن ثم يتمكنون من العودة إلى الجنة التى طُرِدُوا منها.

﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾: لا ينسب إليه عوج، أى لا يتصف بالعوج. والعوج هو نقيض الاستقامة، التى تعنى الوضوح والاعتدال واليسر. والمقصود أن القرآن القديم الذى نزل فى بدء الخلق من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، واستمعت إليه القلوب - هنالك – كان واضحًا ليس فيه غموض، مُيسر الفهم؛ لأن النفوس قد تلقته – حينذاك - وهى خارجة من الجنة، لم تدخل الابتلاء بعد؛ ومن ثم فقد كان بوسعها أن تصل إلى معناه دون عناء. ولكن عندما هبطنا إلى الأرض ودخلنا فى الابتلاء ، نسينا ذلك القرآن، فجاء هذا القرآن – الذى تنزل فى حوادث ومواضع معلومة بين مكة والمدينة – ليذكرنا بالرسالة القديمة، ولذلك كانت بعثة هذا النبى ﷺ فى هذه الحياة الدنيا من أجل التذكير، كما صرح القرآن الكريم بقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾(٢).

والتذكر هو الخلاص من النسيان. فعلينا أن نتذكر بهذا القرآن نشأتنا الأولى من الأرض، وحياتنا القديمة عند الله والقرآن الكريم عندما نزل أول مرة.

(ز) الكافر شجرة خبيثة :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (٣).

"كلمة خبيثة": نفس العبد الكافر.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٨.

(٢) سورة الغاشية: الآية ٢١.

(٣) سورة إبراهيم: الآية ٢٦.

وماذا يفعل البستانى فى الأشجار الخبيثة أو النباتات الضارة الـتى تـؤذى الأشـجار الطيبة؟!

إنه يقتلعها، ويقذف بها خارج البستان إلى النار ليحرقها، ويقضى على ما فيها مـن ضرر، وكذلك يفعل الله مع الكافرين من عباده .. إنـه ﷻ يـنزعهم مـن رحمتـه، ويـأمر بإخراجهم من جنته، ويلقى بهم فى جهنم، فلا يستطيعون الرجوع إلى ما كانوا فيه قبـل الابتلاء (الدنيا).

قوله: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى تطهـير الأرض – الـتى سـتكون موضـعًا لجنة عدن – منهم، وإزالتهم من فوق وجهها (سطحها)، ولكنه يعـنى بقـاء جـذورهم (أصولهم) فى باطن التربة؛ لأن الاجتثاث (القطع) كان عند السطح، تـاركًا الجـذور فى الأعماق. وفى ذلك إشارة إلى معنى بقاء نفوس (بذور) الكافرين فى الظلمات كامنـة فى الملكوت، لا تستطيع الخروج إلى النور؛ بسبب كفرهم، أى حرمانهم مـن الإيمـان .. وهو المعنى الذى أشار إليه فى قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (١).

يشير إلى معنى أن المؤمن قد أفلح فى تنمية نفـسه وتطهيرهـا، فاسـتطاع – بفـضل إيمانه وعمله الصالح – أن يخرجها من الظلمات، ويظهرها فى أجمل صورة، أو أحـسن تقويم كهيئة آدم يوم سجدت له الملائكة. ولنلاحظ كيف أنه استعمل لفـظ "أفلـح"، الذى يشير إلى معنى الزراعة والإنبات.

والمقصود أن نفس المؤمن تتمكن من الوصول إلى كمالهـا المنـشود، حيـث تـصير ضمن الملائكة المقربين أهل الملأ الأعلى، أى الرفيـق الأعلى، الذيـن هـم الأصـحاب الملازمون لروح الله .. إنهم العالون الذين ظفروا بالخلود.

---

(١) سورة الشمس: الآيتان ٩، ١٠.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾[(١)].

وقد فشل الكافر فى إخراج نفسه من الظلمات؛ ومن ثم فإنها ترجع لتدفن مرة أخرى فى الملكوت، مثل البذرة المدفونة فى التربة، لا تستطيع الخروج إلى النور؛ لحرمانها من الاتصال بروح الله، واهب الحياة الذى يصلها عبر الإيمان.

هذا هو المعنى الذى يشير إليه قوله ﷻ: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ .. يقصد من أخفاها عن حقيقتها؛ إذ لم يعرف حقيقة نفسه. وقد وصف الله حقيقة المؤمن وحقيقة الكافر على سيبل المقارنة بينهما، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(٢)].
فانظر كيف جعل النور الكاشف للحقيقة ثمرة الحياة التى نحصل عليها بالاتصال بروح الله، أعنى بتلقى نفخة منه!!

﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾: كمن قلبه أو باطنه الماثل عند الله - أى صورته القائمة فى علم الله - باقية فى الحجب، لا تستطيع النفاذ إلى النور، أو لا يستطيع النور النفاذ إليها؛ بسبب بقاء الكفر عليها.

والكفر يعنى الستر أو الغطاء، فالكافر يحتوى على الحقيقة فى باطن نفسه (قلبه)، ولكنه يخفيها عن نفسه بالتكذيب، فهو يكتمها أو يدفنها فى قلبه كما تدفن البذرة فى التراب، لا تستطيع الخروج أو الإنبات.

والنتيجة أن الكافر يظل يتقلب من صورة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، لا يستطيع القرار؛ لأنه عاجز عن الوصول إلى حقيقته، عاجز عن معرفة حقيقة نفسه المدفونة فى قلبه.

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٩.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

ولذلك وصف الله ﷻ مصيره عندما وصف مصير الشجرة الخبيثة، التى اجتثت من فوق الأرض، بقوله: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾؛ لأن قرارها أن تصل إلى منزلها الأول القديم، هنالك حيث قامت عند ربها فى جنات عدن، وعرفت حقيقتها، وهو قرار محال ما لم تخرج من كفرها (تكذيبها)؛ حتى يتسنى للنور أن ينفذ إلى قلبها، ويكشف لها عن نفسها.

وتذكرنا صورة الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض بما حدث لعاد قوم هود، الذين وصف القرآن هلاكهم بقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ (١).

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾: ريح شديدة البرودة، عظيمة الطغيان، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾.

﴿حُسُومًا﴾: لتقطعهم من الأحياء، فتبيدهم وتستأصل شأفتهم، فلا يبقى منهم شىء ولا أثر، كأنها المكواة توضع مكان الجرح؛ فتسده وتوقف الدم النازف.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا﴾: فكنت ترى القوم فى تلك الأيام.

واختيار هذا التعبير يشير إلى معنى حضوره ﷺ ذلك المشهد ومعاينته ببصر "الروح" هلاك القوم؛ وإلّا فكان بوسعه أن يقول "فكان القوم فيها صرعى".

وفى ذلك الاختيار تنبيه لقلوب العارفين الذين يتدبرون القرآن إلى سبق حضور حقيقته ﷺ قبل كل الخلق؛ باعتبار أن نفسه هى "الملكوت" الذى خرج منه كل شىء، وأنه ﷺ هو روح الله، أى النور الذى انبعث ليكشف الله ﷻ به عن نفسه، فروح الله

(١) سورة الحاقة: الآيات ٦ - ٨.

هو الشيء الذى تتحقق به معرفة الله ورؤيته، فهو – إذن - رسـول الله ﷺ الذى بعثـه من الغيب ليكشف به الحقيقة.

(ح) روح الله :

وقد أشار القرآن فى أكثر من موضع إلى سبق حضور الحقيقة المحمدية.

مثـل قـوله: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [1] .. والـسؤال لإثـارة الانتباه إلى الحقيقة المدهشة وتقريرها. والمعنى لقد أتاك حديث موسى، إذ نـاداه ربـه، والمقصود لقد كنت حاضرًا واستمعت إلى كلام موسى مع ربه.

وقال له: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]. والمقصود لقد رأيت وشهدت الذى حاج إبراهيم فى ربه.

وقال له: ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [3]. والمقصود لقد رأيت كيف فعل ربك بعاد.

وقال له: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ [4].

وقال له: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [5].

---

(١) سورة النازعات: الآيتان ١٥، ١٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٣) سورة الفجر: الآية ٦.

(٤) سورة الفيل: الآية ١.

(٥) سورة النور: الآية ٤٣.

وقال له: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[١].

بل قال له: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[٢].

ليشير فى كل تلك المواضع وغيرها إلى معنى حضوره ﷺ قبل خلق السماوات والأرض وكل ما فيهن من كائنات .. وكل هذه الأسئلة يراد بها إثارة الانتباه إلى الحقيقة وتقريرها، والقرآن ملىء بالإشارات إلى ذلك، ولكن المقام يضيق عن التفصيل والاستفاضة.

وإذا كانت نفس محمد ﷺ – أى ذاته الحقيقية أو حقيقة ذاته القائمة على الدوام بين يدى الله – هى ملكوت كل شىء، وإذا كان ﷺ هو روح الله؛ باعتباره النور[٣] الذى انبعث ليكشف الله ﷻ به عن نفسه، ويُعَرِّفُ مخلوقاته حقيقتها .. ومن ثم فلا جدال فى أنه ﷺ قد سبق كل الخلق فى الوجود؛ ولذلك اختار ﷻ التعبير بقوله مخاطبًا النبى ﷺ:

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾: كنت فى تلك الأيام والليالى تراهم قتلى، قد صرعتهم الريح الصرصر العاتية.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾: كأنهم آثار أشجار نخل قد فُرِّغَت من قلوبها، فصارت خفيفة الوزن، تتقاذفها الريح الشديدة تعبث بها، فلا تستقر فى مكان ولا تثبت على حال.

---

(١) سورة الحج: الآية ١٨.

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠.

(٣) راجع تفسير آية النور فى كتابنا "نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن"، ص ١٥٧ - ١٦١.

وهى الصورة التى تجلت على مرآة الآيات الأخرى التى قال القرآن فيها: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (١) .. يصور ما فعلته ريح العذاب بأولئك الكافرين المعاندين.

كانت تنزعهم (تشدهم بعنف) من قبضة الأرض، وقد صاروا فى يد الريح – من شدة قوتها، ورغم ضخامة أجسادهم، كأنهم بقايا نخل قد فرغت بواطنها (قلوبها)، فأصبحت خفيفة الوزن، تتطاير فى الهواء مثل أوراق الشجر الجاف "ما لها من قرار".

وتفريغ القلب (الباطن) هو الصورة أو المثل المشهود الذى يعبر عن استلاب النفس والقبض عليها فى سجن الموت، مدفونة فى الملكوت، عاجزة عن الخروج إلى النور.

إن نفس المؤمن: (الكلمة الطيبة) إذا أردنا أن نعرفها فلا نستطيع إلّا أن نشبهها بشيء مشهود على هذه الأرض، فإن وصفها على الحقيقة - أى وصف حقيقتها - محال على كلمات اللسان؛ فلابد من اللجوء إلى التشبيه والمجاز، فنقول: إنها تتمثل فى نخلة ثابتة الأصل (الجذر)، مستقيمة الجذع، الذى يصعد من الأرض إلى السماء ليصل إلى فرع (رأس) مثمر، يحمل أوراقًا خضرًا لا يُسقطِها الهواء، وهى الصورة المحسوسة التى تشير إلى معنى وصول نفس المؤمن إلى مقام المَلَك المُقَّرب المصاحب لروح الله فى الملأ الأعلى، فيتمكن من الثبات عند معاينة الحقيقة فى يوم القيامة، ومن الثبات عند السير على الصراط فلا يتردى فى الهاوية، ومن الثبات - قبل ذلك - فى طريق الصعود بالبرزخ بعد الموت، ومن الثبات - قبل ذلك - عند الابتلاء بالفتن فى الدنيا، وآخرها فتنة الموت.

أما نفس الكافر (الكلمة الخبيثة)، فإنها تتمثل فى نخلة قد نُزعت من فوق الأرض، وفُرِّغَت من قلبها (باطنها)، فصارت ألعوبة تتقاذفها ريح اللعنة، فلا تثبت عند

---

(١) سورة القمر: الآيات ١٨ - ٢٢.

الابتلاء بفتن الدنيا، وآخرها فتنة الموت، ثم تدخل فى الظلمات بعد الموت، حيث تدفن فى الملكوت (الغيب)، وتبقى آثارها على الأرض فى صور الحياة الدنيئة المهانة، حيث تفقد هيئة آدم التى تستحق التكريم؛ لأن نفس الكافر تعجز عن الدخول فى طريق الصعود بالبرزخ، ثم تعجز بعد ذلك عن الثبات عند السير على الصراط، فتتردى فى الهاوية، وتعجز – قبل ذلك – عن الثبات فى مواجهة الحقيقة عند التجلى يوم القيامة.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾؟

والسؤال للتنبيه ولفت النظر إلى حقيقة إخراج نفوس الكافرين من النور – حيث كانوا موضع نظر الله ﷻ وشهادة نبيه ورسوله ﷺ – إلى الظلمات، حيث غابوا عن رحمة الله وضاعوا من شهادة نبيه ورسوله ﷺ؛ ومن ثم فمحال أن يصل إليهم النور ويكونوا موضع الرؤية.

"باقية": نفس الإنسان التى تبقى بعد الموت؛ لأن حقيقة النفس أنها كلمة إلهية، محال أن تُمحى أو تنعدم، ولكنها تنتقل بين الظهور والاختفاء أو الحضور والغياب.

والسؤال إلى النبى ﷺ، يراد به الإشارة إلى معنى زوال نفوس الكافرين من الشهادة، بخروجهم من النور إلى الظلمات؛ ومن ثم صار من المُحال أن يُرَى لهم أى نفس تبقى بعد الموت؛ لأن نفوسهم تعود لتدفن فى الملكوت، وما يبقى من أرواحهم على الأرض يتشكل فى هيئات غير آدمية، أى صور غير إنسانية، هى آثارهم بعد اختفاء أعيانهم، ومُحالٌ أن يُروا فى تلك الآثار، أو أن يعرفهم أحد.

(ط) الحياة فى البرزخ بين الدنيا والآخرة:

وقد فَرَّقَ القرآن بين مصير المؤمنين والكافرين، فقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(١).

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾: يمحو عنهم الحجب التى تحول بينهم وبين رؤية الحقيقة؛ ومن ثم يتمكنون من مطالعة وجه ربهم.

وإخراجهم من الظلمات إلى النور يعنى – إذن – تمكينهم من رؤية ربهم؛ لأن الرؤية لا تكون إلّا بالنور. ولكن النور – كما بينا من قبل – هو روح الله، الذى به وحده تتحقق الرؤية والمعرفة؛ ولذلك فإن إخراجهم من الظلمات إلى النور يعنى تمكينهم من الاتصال وتثبيت وصلهم برسول الله ﷺ الذى هو الوسيلة إلى الله (جل فى علاه).

﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾: الشياطين.

﴿يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: يدفعونهم إلى التحول والتردى من مقام كانوا فيه موضعًا لنظر الله، أى محلًّا لرحمته، إلى مقام حُرِموا فيه من نظر الله إليهم، فخرجوا من رحمته. ومعنى ذلك أنهم قد حُبسوا فى الحجب، وانقطعت صلتهم بروح الله، وهو رسوله الذى جعله "الوسيلة" إلى معرفة الله ورؤيته.

وبين أن الإيمان بالنبى هو سبيل الخروج من الظلمات والدخول إلى النور، وبالتالى فإن الكفر هو سبيل الخروج من النور – فى الدنيا – إلى الظلمات بعد الموت.

يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[١].

(١) سورة المائدة: الآيتان ١٥، ١٦.

ههنا وصف صريح بأن محمدًا رسول الله "نور"، جاء من الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

ويقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (١). فإذا خرجوا إلى النور كان بوسعهم أن يروا الله؛ ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ (٢).

وبيَّنَ أن صلاته على المؤمنين إنما تكون بصلاته على النبي ﷺ، بإنزال الوحي عليه. يقول موضحًا ذلك: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

ويقول: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾ (٤).

فمحمد رسول الله ﷺ هو ذِكْرُ الله لخلقه، أي النور الذي انبعث من الله، فجعل الخلق موضعًا لنظر الله. فِذكْرُ الشيء يعني الانتباه والنظر إليه بعين العناية. وقد صرحت الآية بأن رسول الله ﷺ كان الذِكْرَ الذي توجه الله به إلى خلقه ونظر إليهم. والمقصود بذلك أنه ﷻ قد أخرج خلقه من الغيب إلى الشهادة بواسطته ﷺ.

وَبيَّن عجز روح الكافر عن الصعود من الأرض والدخول في السماء بعد الموت، واضطراره إلى أن يرجع ذليلًا مهانًا إلى الأرض؛ إذ لا يمكنه أن يواصل السير في معراج

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤٣.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٤.
(٣) سورة الحديد: الآية ٩.
(٤) سورة الطلاق: الآيتان ١٠، ١٠.

الصعود حتى يلقى ربه ويعرف حقيقة نفسه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١). ووصف رحلة السقوط فى الظلمات بعد الموت بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٢).

إنه يصور – هنا – رحلة سقوط روح النفس الكافرة بعدما أوصدت فى وجهه أبواب السماء، فلم يعد أمامه إلا أن يخر على الأرض.

فعند الموت يخرج "الروح" من الجسد، ويطير عائدًا إلى السماء حاملًا النفس، ولكن روح الكافر لا يستطيع الدخول إلى السماء، فيهبط مضطرًّا إلى الأرض، وتُؤخذ النفس (الكلمة)، وتُحبس فى الملكوت (الغيب)، غارقة فى الظلمات، فلا يجد (الروح) طريقًا أمامها، إلا أن يتجسم فى صورة أخرى، متخذًا من الطين ثوبًا فى هيئة غير آدمية؛ إذ يعجز عن الوصول إلى النفس المحبوسة بالموت، فلا يستطيع أن يعود إنسانًا، وقد عجز عن أن يصير ملكًا فى السماوات، فلا يجد مفرًّا من التشكل فى صورة غير إنسانية قبيحة.

فلا يبقى على الأرض من الكافرين - بعد اختفاء أعيانهم الثابتة (نفوسهم الباقية) - غير آثارهم التى بكى عليها رسول الله ﷺ حزينًا متحسرًا على مصير الإنسان، الذى ظلم بكفره نفسه، حتى أوشك رسول الله ﷺ على الموت أسفًا.

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٣).

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٤٠.

(٢) سورة الحج: الآية ٣١.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦.

(ى) اللعنة مسخ الكافرين:

فمصير روح الكافر - على الأرض بعد الموت – هو هذه الدواب المهينة المهانة، فقد يصبح فأرًا أو ضبًّا أو ثعبانًا، تخطفه الطيور الجارحة عندما تفترسه بمخالبها، أو يصبح حشرة صغيرة تدوسها الأقدام، أو تقذفها الريح فى مكان بعيد لا يهتدى إليه أحد.

فالمكان السحيق هو الصورة غير الآدمية التى تختفى فيها روح الإنسان، والتى من المحال الوصول إليها أو التعرف عليها وهو محبوس فيها.

وقد أشار القرآن إلى هذا المصير الدنيوى الأرضى فى مواضع عديدة، نذكر منها:

(١) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [(١)].

يمكننا أن نقسم الكائنات إلى ثلاث مراتب طبقًا لمكان حياتها، ومدى قربها من "روح الله"، الذى هو عند عرش الله؛ إذ العرش هو أقرب الأشياء إلى روح الله وأعلى المخلوقات مكانة:

الأولى: العالون أو أهل الملأ الأعلى، وهم أصحاب روح الله (رسول الله) القائم أبدًا بين يدى الله. وهؤلاء العالون هم الملائكة المقربون الذين عناهم سبحانه وتعالى عندما لام إبليس على امتناعه عن السجود لآدم؛ إذ ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ [(٢)].

يعنى: هل كان الباعث لك على رفض السجود لآدم استكبارك أم توهمك أنك من العالين (أهل الملأ الأعلى الذين لم يُخاطبوا بأمر السجود)؟

---

(١) سورة التين: الآيات ٤ – ٦.

(٢) سورة ص: الآية ٧٥.

الثانية: الملائكة، وهم سكان السماوات الذين صدر إليهم الأمر بالسجود لآدم؛ لإعلامهم بأنهم سيكونون فى خدمة الإنسان: خليفة الله فى الأرض.

والملائكة هم جنود الله السماويون المكلفون بالقيام بمختلف المهام المتعلقة بتكليف الإنسان بالخلافة فى الأرض. فمنهم ملائكة الحياة الذين يأتون (ينزلون) بالنفوس من علم الغيب (كتاب العلم الإلهى)، بعد أن تتلقى النفوس نفخات من روح الله، وتصبح أرواحًا (نسمًا جمع نسمة)، فتحملها الملائكة وتنفخها فى أجساد الأجنة الكامنة فى الأرحام؛ ومنهم ملائكة الموت، الذين يقبضون الأرواح، أو يأخذون النفوس من الأجساد عند الموت ويرجعونها إلى علم الغيب؛ ومنهم ملائكة الوحى الذين ينزلون على قلوب الأنبياء بكلام الله؛ ومنهم الملائكة المحاربون الذين يقاتلون مع المؤمنين الصادقين ضد أعدائهم الكافرين المحاربين؛ ومنهم الملائكة الكتبة الذين يرصدون ويسجلون أعمال العباد؛ ومنهم الملائكة الذين يساعدون طلبة العلم المخلصين؛ والملائكة الذين يبعثهم الله لإغاثة وإنقاذ المكروبين من عباد الله الصالحين؛ ومنهم من يقوم بإنزال العذاب الإلهى على المغضوب عليهم من الكافرين المجرمين، ومنهم ...

الثالثة: السافلون، وهم سكان الأرض من المخلوقات، وعلى رأسهم أو فوقهم البشر أبناء آدم خليفة الله. وأسفل سافلين هم أحقر الدواب المتصفون بالقبح والمهانة! وقد صرحت الآيات بأن الله ﷻ يَردُ الكافرين إلى أسفل سافلين، بعد فشلهم فى الابتلاء، وتبين عدم جدارتهم بهيئة آدم أو صورة الإنسان (أحسن تقويم)، التى استحقوا من أجلها التكريم. وقوله ﷻ "رددناه"، يدل على أن البشر قد اتخذوا فى أحقاب موغلة فى القدم صورًا غير آدمية قبل أن يكتسبوا هيئة آدم أو صورة الإنسان التى وصفها بأنها "أحسن تقويم"، وجعلها موضعًا للتكريم.

فمن ينجح فى الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا، فإنه يواصل طريق الصعود حتى يعود إلى هيئة أبيه آدم التى دخل بها الجنة.

ومن يفشل فى الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا، فإنه يتردى فى طريق الهبوط، ويُـنكس فى الخلق محبوسًا فى صور غير آدمية.

(٢) ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[١].

لقد جاهر بعض بنى إسرائيل بمعصية الله فى يوم السبت، الذى التزموا أمام الله وعاهدوه على تخصيصه لعبادته، فعاقبهم بأن مسخهم قردة، نازعًا منهم الصورة الإنسانية أو الهيئة الآدمية التى ينالون بفضلها التكريم؛ باعتبارها أكمل الصور المتاح لها كمال المعرفة الإلهية، وقد وقعت عليهم اللعنة بمجرد قول "كن" ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ ﴾ يشير إلى بقائهم فى هذه الصورة المهينة الذليلة، لا يستطيعون الخروج من سجنها، كما قال لأهل جهنم الذين استصرخوه متضرعين إليه أن يخرجهم من النار، واعدين بعدم العودة إلى الكفر: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [٢].

﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾: ابقوا فيها على حالكم من الذلة والهوان.

وبيان ما وقع للملعونين من بنى إسرائيل أنهم قد رُدوا[٣] إلى صورة القردة وهم أحياء، أعنى وأنفسهم قائمة داخل أجسادهم وهذه هى اللعنة، وهذا هو العذاب الذى سيكابدونه حتى يموتوا، فتعود نفوسهم (ذواتهم الحقيقة) إلى الملكوت، محبوسة فى

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٦.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.

(٣) تذكر قوله الله ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، الذي يشير إلى معنى استمرار رحمة الله بالمؤمنين، ودوام عطائه لهم، وأن ذلك مشروط ببقائهم في الصورة الإنسانية، التي هي أجمل صورة أو أحسن تقويم؛ لأنها الصورة الجديرة بالتكريم الإلهي، والقادرة على الصعود بالبرزخ إلى مقام العالين، وهم الملائكة المقربون.

كتاب العلم الإلهى، وتسجن فى الظلمات، ولكن أرواحهم (نفخات الروح) التى انفصلت عن الأنفس ستبقى وتدخل فى صور ممسوخة غير آدمية، وقد محيت من ذاكرتها حياتها الإنسانية السابقة، أى طمست معرفتها بأنفسها حتى تأتى الساعة ويُبعث من فى القبور، فترجع إليهم معرفتهم بأنفسهم؛ إذ تخرج أنفسهم من محبسها فى الملكوت، ويعانون أهوال يوم القيامة.

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

"نكالًا": عقابًا.

"ما بين يديها": ما سبقها، أى ما حدث قبلها من خطايا.

"وما خلفها": وما كان سيحدث بعدها لو لم تنزل.

يقول: جعلنا هذه اللعنة عقابًا للخطايا التى سبقت نزولها، وللخطايا الأخرى الكامنة فى نواياهم، والتى كانت ستقع منهم لو لم تنزل اللعنة بهم وتنهى حياتهم الإنسانية؛ فإن الله عليم بقلوب عباده وما يكمن فيها من نوايا لم تتحول - بعدُ - إلى أعمال مشهودة، وهو قادر على عقابهم على تلك النوايا، دون أن يكون ﷻ ظالمًا لهم كما فعل بأصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (٢)، عاقبهم على نيتهم حرمان الفقراء ومنع الزكاة قبل أن يقوموا بالعمل ويحققوا نيتهم .. ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٣).

قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾: بيان أن المسخ قانون عام، يتعرض لعقوبته كل من يجاهر بمعصية الله ويتمرد على شريعته؛ فإن الموعظة هى التذكير بالعلم (الحق)، والتبصير بالمصير المنتظر بعد مخالفة العلم أو طاعته، فلا تكون لعنة

---

(١) سورة البقرة: الآية ٦٦.

(٢) سورة القلم: الآيات ١٧ - ٢٠.

(٣) سورة طه: الآية ٧.

العاصين إلى قردة موعظة لغيرهم من المتقين إلا إذا كانت عقوبة عامة، يقع تحت طائلتها كل من يعلن تمرده على شريعة الله، تقع عليه قبل الموت أو بعده.

(٣) وحتى يرفع الوهم الذى تقع فيه أكثر العقول؛ إذ تظن أن المسخ (اللعنة) إلى قردة أو خنازير عقاب خاص ببعض بنى إسرائيل فقط، جاء بقصة البقرة بعد ذلك مباشرة؛ ليبين حقيقة تشكيل الإنسان فى مختلف الصور التى تعد مستودعات أو خزائن للروح المتحرر من النفس بعد الموت.

فقد ذكر تعنت بنى إسرائيل فى طاعة أمر الله بذبح بقرة، وبيَّن تنطعهم فى الآيات ٦٧-٧١ من سورة البقرة، حتى وصلوا - فى النهاية - مرغمين إلى أن ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1]، ثم جاءهم الأمر: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [2].

أمرهم أن يضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة المذبوحة، وجعل الله ذلك الضرب سببًا فى إحياء المقتول؛ ليخبرهم باسم قاتله، الذى اختلفوا فيه، وتبادلوا الاتهامات مع بعضهم من أجله.

وما نريد لفت الأنظار إليه – هنا - هو قول القرآن تعقيبًا على ما حدث ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

والخطاب موجه إلى النبى ﷺ، وإلى كل قارئ للقرآن، يقول له: على نحو يشبه إحياء قتيل بنى إسرائيل ﴿يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يوم القيامة. هذا إذا صرفنا اسم الإشارة "ذا" إلى الإحياء.

أما إذا صرفناه إلى البقرة، وهو أمر تقبله اللغة العربية، بل هو الوجه المراد تنبيه القلوب إليه، فإن المعنى المقصود الإشارة إليه: على نحو يشبه البقرة يحيي الله الناس

(١) سورة البقرة: الآية ٧١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٣.

الموصوفين بأنهم موتى؛ فإن البقرة وغيرها من صور الحياة التى تدب على الأرض إنما هى مخازن لأرواح الذين ماتوا من البشر.

إنها صور تتجسم فيها الأرواح (نفخات الروح)، التى انفصلت عن الأنفس التى حُبست فى الغيب، أو رجعت إلى الملكوت، وعادت كلمة مسطورة فى "ذلك الكتاب" المدون فيه علم الله؛ ولذلك جاء التعقيب فى ختام الآية: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

إن كان الأمر يتعلق بإحياء الآخرة، فمن الممكن أن يكون التعقيب "لعلكم تؤمنون"؛ لأن إحياء الآخرة بعد البعث من القبور من الأمور الغيبية التى يمتحن الإنسان بالإيمان بها.

أما قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أى: لعلكم تعلمون، وتظفرون بالمعنى المقصود من ذكر هذه الآية؛ فإنه يشير - بلا شك - إلى إحياء يقع الآن حاضرًا فى العالم المشهود، وهو إحياء البشر الذين ماتوا فى صور أخرى، تُختزن فيها أرواحهم، التى انطلقت (تحررت) بعد الموت مع انتقال أنفسهم إلى الملكوت.

(٤) ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ [1].

عند هذه الآيات امتلأت كتب التفاسير بأقوال لا أصل لها، وروايات سخيفة مستهجنة لا يقبلها العقل ولا النقل[2]، وغفل المفسرون – تمامًا – عن الوقوف أمام

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٧٥ - ١٧٧.

(٢) انظر على سبيل المثال تفسير القرطبى، وتفسير ابن كثير، وصفوة التفاسير للأستاذ/ محمد على الصابونى.

هذا النص البديع، وتدبر ما فيه، ولكننا لن نضيع وقت القارئ فى نقد تلك الخزعبلات التى سودوا بها الصفحات.

ونقول إن هذه الآيات القرآنية تتحدث عن أمر الله إلى رسوله ﷺ، بأن يحكى لقومه عن قصة رجل تفرغ لعبادة الله، ففاض عليه بالمعرفة، وأعطاه الأدلة التى تنير طريقه إلى الحقيقة، وتثبته فى سيره حتى يصل إلى الله، لكنه لم يلتزم بما تقتضيه آيات الله من أحكام، فخرج على التزامه بها، وشبه الله هذا الخروج بالانسلاخ، فقال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، معبرًا - بهذه الصورة البلاغية (الجمالية) - عن معنى أن رسالة الله هى وسيلة حصول الإنسان على الحياة والجمال؛ لأن الجلد لا يُسلخ إلا عند الموت أو الحرق والإصابات التى تؤذى الإنسان، وفى الجلد (البشرة) يكمن جمال الصورة الإنسانية؛ إذ إن ملامح الجمال ترتسم على صفحة البشرة، وليس هناك ما هو أبشع من صورة إنسان مسلوخ الجلد مثل المحروق.

وتعبر الصورة البلاغية (الجمالية) أيضًا عن معنى أن طاعة الله هى "لباس التقوى"، الذى يحمى الإنسان من العذاب، وبه وحده يدخل الجنة؛ فطاعة الله هى الثوب الذى يُسْمَح لمن يلبسه بالدخول إلى الجنة، وكانت التقوى (الطاعة) التى أعطت آدم وحواء "لباسهما"، الذى ستر سوءاتهما، واستحقا الخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، عندما خلعا لباس التقوى، وصارا عريانين مكشوفى العورات (السوءات). وقد هبطنا معهما – نحن البشر – محمولين فى صلب آدم؛ لأننا رضينا صنيعهما، ولو كنا مكانهما لفعلنا مثلما فعلا.

وقد قال الله ﷻ لنا ونحن نهبط إلى الأرض: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (١).

(١) سورة الأعراف: الآيتان ٢٦، ٢٧.

وبعد أن خرج الرجل الذى آتاه الله من آياته من الطاعة، صار هدفًا سهلًا أو لقمة سائغة فى متناول الشيطان، فأسرع إليه يطارده حتى تمكن من الإمساك به، واستطاع أن يضله بعد أن كان مهتديًا بآيات الله .. ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾، والغواية هى الضلالة بعد الهداية.

لقد كان بوسع هذا الإنسان أن يرتفع إلى السماء بآيات الله، ويصير ملكًا (طائرًا سماويًّا روحيًّا) بعد الموت، لو لزم الطاعة، ولكنه عجز عن ذلك؛ لاتباعه ما يهوى، سائرًا وفق ما يمليه عليه كبرياؤه، باحثًا عن لذته الجسدية، متشبثًا بالحياة الدنيا على هذه الأرض، مطمئنًا بها، لا يريد فراقها، ولا يطلب غيرها.

يقول القرآن: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ إلى السماء ملكًا (طائرًا سماويًّا روحيًّا)، مطمئنًا فى صعوده إلى الله .. ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ .. فهو فى شقاء مستمر، رغم استغراقه فى البحث عن اللذة، وفى مشقة دائمة؛ إذ يعجز عن الوصول إلى ما يهوى، أو إدراك كل ما يطلب، وفى شقاق مع نفسه التى تشتعل فيها حرب ضارية بين آيات الله التى عرفها وسار بها زمنًا على طريق الهدى (الإيمان)، وبين وحى الشيطان الذى يشده على طريق الغواية إلى جهنم.

فما يحدث فى باطنه يشبه ظاهر حال الكلب، الذى يبدو على الدوام عطشان لا يرتوى أبدًا؛ فهو دائم اللهاث، سواء قام الإنسان بمطاردته، أو توقف عن ذلك وتركه لحاله.

إن القرآن يصور هنا الحياة الباطنية للكافر الذى ترك الإيمان على مرآة الكلب اللاهث على الدوام، لا يرتوى ولا يرتاح. ويريد من القارئ أن يرتفع من هذه الصورة المشهودة إلى تلك الحال المستورة فى داخل النفس.

ثم قال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ﴾.

الإشارة – بلا جدال - إلى الكلب، والمعنى المقصود: تلك هى الصورة التى تمثل فى عالم الشهادة المحسوس هيئة الذين كذبوا بآيات الله، بعد أن يموتوا وتُحبس نفوسهم – التى كانت تعطيهم صورة البشر – فى الملكوت عند الموت، وتغرق فى الظلمات بسبب الكفر.

إذن، الكلب هو إحدى الصور التى يتشكل بها روح الكافر بعد أن يخر من السماء؛ إذ توصد فى وجهه أبوابها. وهذا هو "سر" خبث الكلب أو نجاسته كما بينت أحاديث النبى ﷺ.

﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أمر من الله إلى رسوله ﷺ بالإخبار عن قصص السابقين؛ لعل المستمعين إليها يستدلون بها على صدق النبى ﷺ؛ ومن ثم تساعدهم تلك القصص على إزالة الشك وتقوية الإيمان.

وبهذا الفهم نقول: إن الشخص المقصود من قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ هو أبو عامر بن صيفى، الملقب بالراهب، وكان رجلًا ناسكًا، اعتزل الناس فى الجاهلية، وسلك طريق المريدين للحقيقة، فلما نزل القرآن، وأعلن النبى ﷺ الرسالة، رفض أبو عامر دعوة النبى، بل أعلن الحرب على القرآن.

يروى أنه دخل على النبى ﷺ، فقال له: يا محمد ما هذا الذى جئت به؟

قال النبى ﷺ: "جئت بالحنيفية دين إبراهيم".

قال أبو عامر: فإنى عليها.

فقال النبى ﷺ: "لست عليها؛ لأنك أدخلت فيها ما ليس منها".

فقال أبو عامر متهكمًا على النبى ﷺ: "أمات الله الكاذب منا طريدًا وحيدًا" .. يسخر من هجرة النبى من مكة، تاركًا موطنه وعشيرته إلى المدينة.

فأوحى الله إلى النبى ﷺ بمصير الرجل، فقال ﷺ: "نعم، أمات الله الكاذب منا كذلك".

وتحالف أبو عامر الراهب مع المنافقين من أهل المدينة، وأوحى إليهم بفكرة بناء "مسجد الضرار"، الذى ذكرته سورة التوبة (براءة)، ورحل إلى الشام، يريد أن يستعدى قيصر على المسلمين، ويحثه على مهاجمة الجزيرة العربية والمدينة المنورة؛ ليستأصل شافة الإسلام قبل أن يستفحل أمره ويقوض سلطان قيصر، وكان ذلك سببًا فى خروج النبى ﷺ إلى غزوة تبوك، لما استيقن من تجهيز الروم لجيش كبير يغزو الجزيرة العربية.

وبالفعل تحققت نبوءة النبى ﷺ، ومات أبو عامر طريدًا وحيدًا بإحدى قرى الشام[1].

وبهذا السياق تعد القصة بالفعل دليلًا على صدق النبى ﷺ؛ ومن ثم فإنها تصبح موضوعًا للتفكر، وهو ما يتفق مع ختام الآية: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. ولكن الأمر العجيب أن أغلب المفسرين رغم ذكرهم لهذه القصة أهملوها، واعتبروا أن الرأى الذى يقول: إن المقصود شخص عبرانى مزعوم اسمه بالعام بن باعورا، هو الرأى الأرجح عندهم، وذكروا فى ذلك خرافات وأوهام لا أصل ولا سند لها!.

يقول القرآن: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾.

فى الآية تقديم وتأخير؛ لأن المعنى المراد هو: "سَاْء القومُ الذين كذبوا بآيتنا مثلًا" .. والمقصود أن الكافرين يعدون مثلًا سيئًا للإنسان، ينبغى أن يحذر من محاكاته؛ فهم قدوة سيئة، يجب الحرص على تجنب تقليدهم.

لماذا؟!

(١) راجع تفاصيل القصة فى تفسير القرطبى للآية ١٧٥ من سورة الأعراف، والآية ١٠٧ من سورة التوبة.

لأنهم قد قبحت - أى ساءت - صورتهم (مثلهم)، فصاروا كلابًا، بدلًا من أن يصبحوا ملائكة، وما أبشع أن يتحول الإنسان إلى كلب على الأرض بعد أن كان بشرًا سويًّا على هيئة آدم، وبدلًا من أن يصير ملكًا يطير فى السماوات!!

إذن يصبح المعنى المقصود هو: "قَبُحَ القوم الذين كذبوا بآياتنا صورةً".

ولا شك أن فى ذلك المصير احتقار شديد ومهانة بالغة؛ فهم يشعرون بالظلم، كيف يصيرون كلابًا وقد كانوا بشرًا؟!

﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم هم الذين أهانوا أنفسهم، وانتقصوا حقها فى التكريم بموجب صورتها الإنسانية أو هيئتها الآدمية!!

(ك) طريق الصعود:

ما أسلفنا ذكره آنفًا هو طريق الهبوط، فما هو طريق الصعود؟ يجيبنا القرآن ..

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ (١).

﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: بالعمل الصالح.

انظر لم يقل هنا "الذين آمنوا وعملوا الصالحات"، بل قال: "الذين آمنوا" فقط؛ لأن القول الثابت هو الصالحات التى عملوها.

أما تسمية العمل "بالقول"؛ فلأن كل الأشياء – فى الحقيقة – كلمات إلهية مكتوبة فى كتاب العلم الإلهى، وقد خلقها (أظهرها) الله بقول "كن"؛ فإنها أقواله ﷻ التى نطق بها. إن أعمال العباد ليست – فى جوهرها – إلّا كلمات الله أو أقواله ﷻ المسطورة فى "ذلك الكتاب"، وقد تكلم ﷻ بها عبر أفعال عباده.

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

وأما وصفه بأنه "ثابت"؛ فلأنه يثبت عند تجلى الله يوم القيامة، ولا يزول عند ظهور الحقيقة، على عكس أعمال الكافرين التى تُمحى ولا تقوى على الثبات، فتبدو – حينئذ – كالسراب الذى لا يَبْقَى عند التحقيق: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (١).

"بقيعة": بأرض مستوية واضحة، ليس عليها شىء يخفيها، فهى بلا معالم، تذكر قلب القارئ المتدبر بالساهرة(٢)، أرض النشأة الآخرة، التى ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴾ (٣).

تزول أعمال الكافرين من شهودهم، أى تختفى ولا تبقى معهم – فى يوم القيامة – عند لقاء الله؛ لأنها أعمال لم يُرد بها وجه الله، بل أريد بها إخفاؤه ومحاربته ومعاندة أمره، فكيف تثبت عند لقائه؟!

إذ إن العمل الصالح الحقيقى هو الذى أريد به وجه الله، أى أراد المؤمن عند القيام به أن يجعله وسيلة تمكنه من رؤية الله، ولهذا يثبت العمل الصالح عند لقاء الله؛ لأنه هنالك – فى ذلك المقام – يتحقق هدفه أو ينال بغيته.

﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾: فأكمل له عمله؛ إذ ليس الحساب شيئًا غير معاينة ومعاناة حقائق (بواطن) الأعمال التى قام بها الإنسان فى الدنيا وعرف ظواهرها، أعنى صورها أو رسومها. وفى الآخرة يعرف بواطنها أى حقائقها الكامنة فيها، والتى كانت تخفى عليه فى حياته الدنيا عند الابتلاء.

---

(١) سورة النور: الآية ٣٩.

(٢) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ (سورة النازعات: الآية ١٣، ١٤).

(٣) سورة طه: الآية ١٠٧.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ إذ لا يستغرق حسابه سوى اللحظة الـتى يكـشف فيهـا لعبده عن حقائق عمله، وإنها لحظة بالغة القصر كأنها لمح بالبصر أو هى أقرب!!

ويبين القرآن ثمرة التثبيت بقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾(١).

﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: الغَلَبَـــة: وهى ألا تُكـــرَه على شىء، أى لا يُفــرض عليـــك شىء لا تحبه ولا ترضاه، وأن تخضع الأشياء لأمرك، وتسير وفقًا لما تحبه وترضاه.

ولا شك فى أن الألم - بكافة صوره - والموت هما أشد ما يغلب الإنسان على أمره؛ ومن ثم فإن الخلاص من الألم والتحرر من الموت هما "أعز" ما يطلـب الإنـسان، ولا يمكنه أن ينالهما إلا إذا صار حيًّا لا يموت، خالدًا (باقيًا) فى رحمة الله، لا يصيبه سـوء. وما من سبيل أمامه للظفر بذلك إلا بالحصول عليه من الله ﷻ؛ لأنه هو العزيز الذى لا يغلب، فلا يُكْرَه على شىء، أو لا يفرض عليه شىء رغمًـا عنـه (جـل فى عـلاه). ولذلك فعلى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ أن يطلبهـا مـن الله بطاعتـه؛ فـإن الله ﷻ هـو الذى يملك - بمفرده - كل أسباب العزة، وهو – وحده – القادر على منحهـا لمـن يـشاء مـن عباده؛ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾، فكل عزة (غلبة) يملكها مخلوق من مخلوقاته، فإن مصدرها هو الله وحده ﷻ.

ولكن العزة لا تتحقق للمخلوق – كما بينا – إلا بحصوله على الخلود فى رحمة الله؛ حيث يتحرر مـن المـوت والألـم، ويتحقـق له مـا يـشتهى بمجـرد أن تتجـه مـشيئته (اختياره) إلى طلبه، ولا يصعد إلى ذلك المقام إلا بالعودة إلى ربه، وقيامه بين يديـه فى

(١) سورة فاطر: الآية ١٠.

المنزلة التى ارتفع إليها فى خلقه القديم، حين نشأ من الأرض، وارتقى إلى السماء؛ حيث شهد سجود الملائكة لأبيه آدم عليه السلام(١).

أولئك الصاعدون يكون ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ﴾ .. يحصلون على كل ما يختارون بمجرد وقوع طلبه فى نفوسهم، عندما يصلون إلى مقام الحضور، ويطمئنون فى منازلهم عند ربهم.

وقد عبر القرآن عن صعودهم بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: نفوس المؤمنين، تحملها أرواحهم الطاهرة.

﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾: والعمل الصالح هو القوة الدافعة التى ترفع أرواح المؤمنين فى رحلة الصعود من الأرض إلى السماء بعد الموت. وقد أفرد لفظ الكلم رغم أنه جمع، وكذلك أفرد العمل الصالح رغم تعدد وتنوع الطاعات؛ للإشارة إلى أن نفوس المؤمنين قد عَبَّرَت – فى الحقيقة – عن نفس واحدة خرج منها كل شىء، أى عن "روح الله" الذى صدر عنه جميع الخلق.

أما المنافقون الذين يتظاهرون أمام الخلق بالإيمان والطاعة، ويخفون ﴿يَمْكُرُونَ﴾ المعاصى ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فإنهم يُغلبون على ما يَكْرهون، ويُفرض عليهم ما لا يحبون؛ إذ يحصلون على ألم عظيم .. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ .. تُذل له نفوسهم وتُهان كرامتهم، أما مكرهم، أى حيلهم لإخفاء ما فى نفوسهم، فمن المؤكد أنه سوف يفشل يوم القيامة؛ إذ ستفضح حقيقتهم على الملأ وينكشف أمرهم.

---

(١) نتمنى على الله أن نتمكن – بإذنه وفضله – من بيان قصة خلق السماوات والأرض وظهور الإنسان كما رواها القرآن الكريم.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٤.

(ل) روح الإنسان ملك من السماء :

ولكن صعود الأنفس الطيبة تحملها أرواحهم الطاهرة، ويرفعها عملهم الصالح من الأرض إلى السماء، معناه أن تصير أرواحهم ملائكة، عندما تُمسَك أنفسهم فى كتاب علم الغيب بعد الموت، وتبقى هنالك تنتظر يوم البعث.

وخروج روح الإنسان وصعوده إلى السماء ملكًا، معناه: استمرار علم الإنسان بعد الموت، أى بقاء قلبه (باطنه) حيًّا بالروح، ودوامه فى الشهادة، أعنى دوام صلته بالنفس ولكن خارج الجسد، وهو ما يؤدى إلى أن تكون رحلة الروح – بالبرزخ – ارتقاءً وصعودا إلى الله؛ حتى تستكمل كل نفس معرفتها استعدادًا للخروج يوم القيامة.

وقد أشار القرآن بلغة المجاز إلى حقيقة أن روح الإنسان مَلَكٌ مهيأ للحياة فى السماء فى مواضع كثيرة، نذكر منها:

(١) ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١].

هذا ما خاطبنا به – نحن البشر – عند هبوطنا من الجنة إلى الأرض نازلين فى صلب آدم.

﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾: قد أمرناكم باتخاذ لباس، أى فرضنا عليكم الأمر بأن تغطوا أجسامكم، ومن هنا نفهم أن ستر الجسم بارتداء الملابس فطرة إنسانية مغروسة بيد الله فى باطن النفس البشرية، وأعنى بذلك أنها إحدى الخصائص المميزة للنوع الإنسانى، والتى تعبر عن المعرفة الأولية التى حصل عليها البشر هبة ممنوحة لهم من الله ﷻ دون جهد منهم؛ باستماعهم إلى وحيه القديم، الذى يشكل واعظ الله فى قلب كل إنسان، أى ما نسميه "الضمير".

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٦.

وقد حدد الله ﷻ غايتين شرعيتين – لا ثالث لهما – لاتخاذ اللباس أو ارتداء الملابس وهما:

(١) ستر العورة: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾.

(٢) الزينة: ﴿وَرِيشٗا﴾.

فشبه الملابس التى يرتديها الإنسان بهدف التزين (التجمل) بالريش، الذى يغطى ويزين أجسام الطيور. وبهذه الاستعارة يكون القرآن قد شبه الإنسان بالطيور، **مشيرًا بذلك إلى أن أرواح البشر ليست إلا ملائكة،** أى طيورًا سماوية تهبط إلى الأرض، حاملة "الأنفس" من كتاب الغيب إلى الشهادة فى هذا الجسد (الثوب) المصنوع من الطين.

وإذا كان اللباس الظاهر (أى لباس الجسم) يوارى السوأة (يستر العورة)، ويزين صورة الإنسان، فيذكرنا جماله بجنة الخلد التى كنا فيها قبل هذه الحياة الدنيا - فإن اللباس الباطن - أى لباس القلب، الذى سماه القرآن: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ - لا شك فى أنه أفضل من اللباس الظاهر؛ لأننا بلباس التقوى ندخل – أو بالأحرى – نعود إلى الجنة.

ولذلك قال القرآن: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ يعنى أن لباس التقوى أفضل من أى لباس آخر تلبسونه فى الدنيا؛ لأنكم بلباس التقوى – الذى هو الطاعة – تحمون أنفسكم من جهنم، وتعودون إلى الجنة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اللباس الذى كنا نرتديه، كما كان يرتديه كل من آدم وحواء بالجنة، والذى نُزِعَ عنا وعنهما، أو أُخرجا منه بالمعصية حين تمكن إبليس من إغوائهما.

قال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ (١).

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾: فأنزلهما أو أهبطهما بخداعه؛ إذ كذب عليهما وأضلهما. والتدلى هو السقوط، أى الحركة من أعلى إلى أسفل. والمقصود – هنا – إخراج آدم وحواء من الجنة إلى الأرض التى ستكون ميدانًا للابتلاء. وهو المعنى الذى عبر عنه ﷻ بقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ (٢).

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا﴾: فأسقطهما من الجنة إلى الأرض، حيث وجدا نفسيهما عريانين مشكوفى العورات؛ إذ نُزِعَ عنهما اللباس الذى كان عليهما فى الجنة بمجرد أن باشرا المعصية بالأكل من الشجرة .. لقد تركا لباسهما فى الجنة وصارا عريانين .. لقد خرجا من لباسهما باقتراف المعصية، فخرجا – فى اللحظة نفسه – من الجنة.

وهذا هو تفسير قوله ﷻ: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ .. الذى يعنى أن الشيطان قد نجح بإغوائهما فى إخراجهما من اللباس الذى كان كل واحد منهما يرتديه، ويضمن به البقاء فى الجنة.

والانتقال من الجنة – فى السماء - إلى الأرض فى لحظة بالغة القصر، بل فى أقل من طرفة عين، أمر ميسور، لا عناء فيه لنفس روحها مَلَكٌ مخلوق من النور، ومهيأ للحياة فى السماء وجدير بالخلود؛ إذ يزول معنى الزمن أو مرور الوقت عنده؛ إذ لم يكن الإنسان قد حبس – بعد – فى سجن الابتلاء. ثم إن الجنة فى النهاية ليست إلا مقامًا أو منزلًا نعاين ونتحقق من رحمة الله فيه. ثم توجه بالخطاب إلى النبى ﷺ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ .. حياتهم القديمة قبل ولادتهم من الأرحام.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٦.

(٢) وفى مقام النداء عندما وقف موسى يستمع إلى ربه قائلا له: ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ ﴾[(١)] .. أدخل يدك اليمنى فى فتحة العنق من ثوبك. والمعنى المشار إليه قَرِّب يدك من قلبك بوضعها على صدرك قريبًا من نحرك.

﴿ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾[(٢)].

وقَرِّب يدك إلى منبت ذراعك من صدرك بوضعها فى إبطك.

وَعبَّر عن الذراع – هنا – بالجناح؛ ليشير إلى أن موسى الإنسان قد صار – فى مقام الاستماع إلى الوحى – ملكًا من ملائكة السماء أولى الأجنحة، مثنى، وثلاث ورباع[(٣)].

﴿ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ﴾[(٤)].

ثم أخرج يدك من جيبك، فتجدها مضيئة بيضاء متلألئة دون أن يكون بياض لونها راجعًا إلى مرض أصابها. والمعنى المشار إليه: إنك – يا موسى – تحتوى على ملك يحمل النور فى قلبك، وبه تستمع إلى كلام ربك.

وقد أشرنا – من قبل – إلى "سر" اختيار شهر رمضان ليكون وقت فريضة الصوم، التى يتشبه فيها الإنسان بالملائكة؛ لأنه الشهر الذى اختاره الله ليكون وقت إنزال وحيه إلى الأنبياء، أى الوقت الذى يظهر فيه المَلَكُ الكامن فى قلب الإنسان، ويجعله قادرًا على تلقى كلام الله عبر الملائكة، يتكلمون مع الإنسان، فيفهم خطابهم، أو

---

(١) سورة القصص: الآية ٣٢.

(٢) سورة طه: الآية ٣٢.

(٣) انظر إلى قول الله ﷻ: قال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١ ﴾ (سورة فاطر: الآية الأولى).

(٤)سورة طه: الآية ٢٢، وسورة القصص: الآية ٣٢.

بالأحرى خطاب الله المنقول بألسنتهم، ويكلمهم الإنسان فيفهمون خطابه؛ إذ قد صار – فى مقام الوحى – واحدًا منهم.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ [(١)].

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾[(٢)].

وقَرِّب ذراعك (عضدك) إلى صدرك، كلما شعرت بالفزع وأحسست بالضعف فى نفسك عند مواجهة ما لا تقدر على دفع أذاه عنك .. مرة أخرى يعبر بالجناح عن الذراع؛ ليشير بلغة المجاز إلى سماوية روح الإنسان.

الرهب أو الرهبة: شعور بالفزع (الخوف المفاجئ الشديد)، مع إحساس بضعف النفس عن مواجهة الأخطار المتوقعة، وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ يعنى بباعث من الرهب، أى عند شعورك بالفزع والضعف، والآية إرشاد لموسى أن يضم عضده إلى صدره عند شعوره بالرهب؛ ليزول فزعه وضعفه، ويحصل على الأمن والقوة.

والمعنى المشار إليه: إن فى قلبه – المودع فى صدره – يكمن النور الذى يمنحه الأمن والقوة، فيمحو الفزع والضُعف؛ لأن القلب هو مستودع "الروح" .. سر الحياة الذى به يُعْرَفُ الله.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[(٣)].

(٣) ويُخاطب النبى محمد ﷺ قائلًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [(٤)].

---

(١) سورة طه: الآية ٢٢.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٢.

(٣) سورة الحجر: الآيتان ٨٧ – ٨٨.

(٤) سورة طه: الآية ٢٢.

ينبه النبى ﷺ إلى شكر نعمة الله الكبرى عليه، وهى منحه سبع آيات تُكَوِّنُ فاتحة القرآن، أى مقدمة الكتاب التى تشتمل فى باطنها على مضمون القرآن كله، والذى يمثل – بدوره – صورة موجزة أو ملخصًا يكشف عن كتاب العلم الإلهى.

وهى سبع آيات "مثانى"، تتكرر قراءة ألفاظها يوميًّا عدة مرات فى الصلوات المفروضة والنوافل، ويتكرر ورود معانيها عبر تلاوة الذكر الحكيم، فهى تثنى (تكرر) لفظًا ومعنى على الدوام؛ لأن الله قد اختارها لتكون جوهر الصلاة، أى معبر الصلة بينه وبين عبده.

فإن قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال الرب: "أثنى عَلَيَّ عبدى" ..

فإن قال العبد: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ..

قال الرب: "مَجَّدنى عبدى" ..

فإن قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ..

قال الرب: "هذا بينى وبين عبدى" ..

فإن قال العبد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ..

قال الرب: "سألنى عبدى ولعبدى ما سأل".

فإن قال العبد: آمين. استجاب الرب.

وقد منح الله نبيه ﷺ – مع الفاتحة –"القرآن العظيم"؛ كلمات الله التى تقرأ فتخضع لها القلوب، وتمتلئ بالرهبة والاحترام للناطق بهذا الحديث إن أنصتت وتدبرت فيما تسمع. وبهذه المنحة الإلهية الكبرى، يكون النبى ﷺ، قد ارتفع قدره على جميع المخلوقات، واعتلى مقامًا فوق كل السماوات، فلا يليق به أن يطمع فيما ناله

بعض الناس من متع الدنيا التافهة قليلة الشأن إذا قورنت ووزنت بالفاتحة والقـرآن العظيم .. آية الله الكبرى.

ولذلك أوصاه بالنظر إلى مقامه الأعلى عند الله، وقطع النظر إلى ما فى أيدى الناس من متاع الدنيا بقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

وقد عبر بصيغة التوكيد: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾، ولم يقل "لا تمد"؛ للتشديد عليـه؛ حـتى لا يهفو أدنى هفوة، فينزل عن درجته العليا عند الله.

وقال: ﴿عَيْنَيْكَ﴾ ولم يقل "عينك"، أو "نظـرك"، أو "بـصرك"؛ لأن النظـرة المحرمـة عليه يمكن أن تقع من عينين: عين الطمع وعين الندم.

فأما عين الطمع فتعنى تمنى النفس الحصول على ما فى يد الغير، أى ما أعطـاه الله لغيره، وفى ذلك اعتراض خفى على ما قَدَّره الله وأراده، وسوء تقدير، وقلة شـكر لنعمـة الله.

وأما عين الندم فتعنى تأسف النفس على ما بدر منها، وتمنيهـا لـو اسـتطاعت أن تمنع ما قد صنعت أو أعطت. وفى ذلك بيان أن النبى ﷺ كانت تخطر على نفسه – أثناء ابتلائه فى هذه الحياة الدنيا – فكرة أن لو كان بوسعه أن يحرم الكافـرين مـن نعـم الله التى يتمتعون بها فى حياتهم الدنيا، دون أن يؤدوا لله حق شكرها، فنهاه الله عـن ذلـك الندم.

وفى ذلك النهى إشارة بالغة اللطـف إلى أن النـبى ﷺ – بموجـب حقيقتـه الأبديـة القائمة دومًا لدى الله – هو الملكوت الذى خلق منه كل شىء، وهو – إذن – الينبـوع الأول الذى تفجرت منه – برحمة الله – كل النعم. وعليـه أن يكـف عـن النـدم على شىء سبق له أن أعطاه؛ لأن مقامه الأعلى يقتـضيه موافقـة إرادة الله ظـاهرًا وباطنًـا، باعتباره "روح الله" المعبر عن إرادته سبحانه وتعالى.

ولذلك جاءه النهى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنه ﷺ بموجب بشريته كان يحزن على إخوته من البشر الكافرين الذين سيكابدون أهوال القيامة وعذابًا أبديًّا لا ينقطع، فأتاه النهى الإلهى؛ ليرتفع من بشريته إلى المقام المحمود.

ولكى لا يسقط فى التكبر إذا نظر إلى حقيقته، جاءه الأمر الإلهى بالتواضع: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، مصورًا النبى ﷺ على هيئة طائر (مَلَك) يضع جناحه على الأرض عند أقدام المؤمنين، مذكرًا بسجود الملائكة لآدم، ومشيرًا إلى حقيقة أن روح الإنسان مَلك من السماء، يهبط إلى الأرض حاملًا النفس من الغيب إلى الجسد لتُبْتلَى فى هذه الحياة الدنيا.

(٤) ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (١).

يذكرنا بهذه الصورة البلاغية الجمالية (خفض جناح الذل) بمشهد سجود الملائكة لآدم، بعدما أقام الله عليهم الحجة بأفضلية آدم، فها هو الإنسان الابن – فى الصورة التى ترسمها الآية – يسجد عند أقدام والديه اللذين يمثلان آدم، واضعًا جناحه على الأرض تواضعًا، وشاعرًا بالذل إزاء فضل والديه عليه، مدفوعًا إلى ذلك بوازع من الرحمة التى أودعها الله فى قلبه؛ وإذ يتذكر فضل والديه عليه، فإن لسانه يلهج بالدعاء لهما: ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

إذن ﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ استعارة بلاغية تشير إلى سماوية روح الإنسان، بتصويره ملكًا يخفض جناحه تواضعًا لصاحبى الفضل عليه، كما سجد الملائكة لآدم.

(١) سورة الإسراء: الآيتان ٢٣، ٢٤؛ انظر كيف صورت لفظة "أف" بصورتها مشهد النفور والتضجر والتأفف!!.

(٥) وقد ألمح القرآن إلى حقيقة سماوية روح الإنسان، أعنى أن الروح تعد ملكًا من سكان السماوات، بإشارات عديدة، تبلغ حد التصريح لمن تدبر القرآن، وأوتى – بإذن الله وفضله – حسن الفهم. ومن ذلك قوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[١].

يبين إصرار الكافرين على موقفهم الرافض لتصديق الوحى، واستمرارهم فى التكذيب، مهما تضافرت وتواترت الأدلة والبراهين على صدق النبى وصحة الرسالة.

فيقول لو أن الله قد جعل القرآن يتنزل على النبى ﷺ على هيئة كلمات مكتوبة على ورق، وكان بوسعهم أن يلمسوا بأيديهم ذلك الورق، ويقرءوا الكلمات المرسومة على صفحته، لظلوا على كفرهم (تكذيبهم)، وادعوا أن هذا القرآن – الذى لمسوا بأيديهم الصحف التى كُتب عليها، ورأوا بأعينهم تنزلها من السماء – ليس إلا خداعًا متقنًا لحواسهم، لا يُشك – بزعمهم – فى وهميته.

ولطلبوا آية أخرى، وهى أن ينزل على الرسول ﷺ ملك من سكان السماوات، بدلًا من هذا القرآن الذى يأتيهم على هيئة كلمات مسموعة أو مقروءة ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾!! وهم يغفلون عن أن عجزهم عن رؤية الملائكة عيانًا، إنما يرجع إلى كونهم فى ابتلاء، يقتضى إخفاء الحقيقة عنهم؛ فإنهم يحملون فى بواطنهم ملائكة، وهم الأرواح الذين حملوا نفوسهم من الغيب إلى الشهادة؛ حيث يخوضون فتنة هذه الحياة الدنيا. وعندما ينتهى الابتلاء بالموت، فإنهم يرون الملائكة، فى وقت الاحتضار، حيث يخرج الروح (المَلك) الكامن من قبضة (سجن) الجسد؛ ومن ثم يصبح الإنسان قادرًا على رؤية الملائكة ومخاطبتهم؛ لأنه قد صار – فى هذه اللحظة – واحدًا منهم[٢].

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٧، ٨.

(٢) قد وردت أحاديث نبوية صحيحة، تبين - فى وضوح تام - أن العبد المحتضر يرى الملائكة، وأنهم يأتونه على الهيئة التي تلائم حاله من الإيمان أو الكفر، وأن الملائكة يصعدون بروح المتوفى إلي السماء؛=

﴿وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾، لأن نزول الملائكة ورؤية البشر لهم لا تحدث إلا عند الموت، أو عند قيام الساعة وزوال السماوات والأرض، أى فى نهاية الابتلاء، ولحظة الكشف عن الحقيقة، وحينذاك ينزل حكم الله على الناس، وتنتهى المهلة التى حصلوا عليها؛ من أجل ابتلائهم، وإظهار ما أودع فى نفوسهم من علم الله. فكيف يطلبون نزول ملك؟!، أيطلبون موتهم أم يتعجلون الساعة؟!

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ (١).

ولو سايرناهم فى طلبهم، وجعلنا القرآن ملكًا من السماء ينزل على النبى ﷺ، فإن الصورة الوحيدة التى يمكن أن يتشكل بها الملك على الأرض، لتراه عيون البشر هى صورة الإنسان، أى الهيئة الآدمية ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا﴾ وحينذاك ستخفى عليهم – أيضًا – حقيقة الملك؛ لأنهم سيرونه رجلًا، فسيكون فى نظرهم مجرد إنسان، فكيف يعرفون أنه ملك سماوى؟! هكذا يخفى الله عنهم الحقيقة التى يخفونها فى أنفسهم .. ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾؛ فإن أرواحهم ليست إلا ملائكة تلبس أجسادهم؛ لذلك قال:

(٦) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (١).

= فأما الكافر فإنه يوصد في وجهه أبواب السماء، فيخر إلى الأرض، ثم تمسخ صورته في هيئة الدواب القبيحة التى تهيم فى الأرض - كما سبق أن بينا. وأما المؤمن فإنه يرقى في السماوات حتى يلقى ربه، ثم يرجع إلى الأرض؛ ليمتحن الامتحان الأخير على يد الملكين بالقبر، ثم يتقلب في الصور حتى يصير ملكًا - كما أوضحنا، ويبقى – هنالك – حتى يعود إلى الجسد عندما يبعث الله من فى القبور. انظر – على سبيل المثال – تفسير ابن كثير للآية ٤١ من سورة الأعراف، وكتاب التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبى؛ لرؤية حال المحتضر فى نور الأحاديث النبوية الشريفة.

(١) سورة الأنعام: الآية ٩.

قوله: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يبين بحكمة السياق – وهو خير مفسر للقرآن – بأن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام يحيا – الآن – ملكًا فى السماء، كما رآه النبى ﷺ فى رحلة المعراج. وأنه مجرد مثل مضروب للناس عامة (كما تبين الآية رقم ٥٧ من سورة الزخرف) ولبنى إسرائيل خاصة (كما تبين الآية رقم ٦٠).

وبمقدور الله سبحانه وتعالى أن يحولنا – نحن البشر – إلى ملائكة تعيش فى الأرض، كما يحيا عيسى ابن مريم ملكًا فى السماء ـ فإن الأمر لا يقتضى منه سبحانه وتعالى سوى أن يقول للملائكة الكامنة فينا "كونوا"، فيخرجون يمشون فى الأرض مطمئنين، كما قال من قبل للملعونين من بنى إسرائيل: ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾!!

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَخۡلُفُونَ ﴾ يعنى يخلفونكم فى الأرض، أى يأتون بعد زوالكم واختفائكم منها.

إننا – نحن البشر – كائنات علوية، نزلت من الغيب، وارتدت أثوابًا من الطين على سبيل الابتلاء فى هذه الحياة الدنيا، ثم سرعان ما نغادر الأرض ونخلع هذه الصورة .. هذه هى رسالة القرآن إلى بنى الإنسان، فهل هذا شعر أو نثر؟!

﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (٢).

* * *

(١) سورة الزخرف: الآيات ٥٧ – ٦٠.

(٢) سورة يس: الآيتان ٦٩ – ٧٠.

الفصل السادس

أحسن القصص

(أ) الحق والجمال فى قصص القرآن:

يقـــــول الله ﷻ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[١]، لافتًا أنظار العقول إلى حسنها، أى جمالها المشهود بالإدراك الحسى الخالص.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٣. عندما يتحدث الله بضمير الجمع المتكلم الحاضر "نحن"، فإنما يشير ﷻ بذلك إلى حضور "روح الله" بين يديه، وهو الكائن الأول الذى انبعث من "الملكوت"، وكان النور الذى كشف عن الغيب، أو أضاء الحقيقة، وحضر به كل شيء عند الله، فكان وسيلة جمع الخلق مع الخالق؛ ومن ثم استعمل الله ضمير "نحن" في التعبير عن هذا المقام.

وهو المشار إليه باسم "روح القدس"، والذى نسبه الخالق ﷻ إلى نفسه، فقال: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (سورة ص: الآية ٧٢)، وهو الذى وصفه أهل التصوف بالنور المحمدى أو نور الحقيقة المحمدية.

وينبغى علينا هنا لفت الأنظار إلى ضرورة التمييز بين أوجه أو مستويات وجود الذات المحمدية، أعنى شخص النبى ﷺ؛ فهو: إنسان يجرى عليه ما يجرى على سائر البشر، وهو نبى يسمع كلام الله، ومظهر نبوته القرآن، وهو رسول قد أُذِنَ له بتعليم الناس شريعة الله، ومظهر رسالته الأحاديث النبوية الشريفة. ولكن ينبغي التمييز والتفرقة بين أحاديث الرسول ﷺ التى تستند إلى وحى من الله، وبين أحاديثه التي تعبر عن رأيه كإنسان وحاكم يتولى قيادة أمة ورئاسة دولة؛ فإن هذه الأخيرة قد تعبر عن اجتهاده البشرى فى فهم النص القرآنى وأحكام شريعة الله، ويجوز عليه (فيها) الخطأ؛ باعتباره بشرًا، يصيب ويخطئ، كما قال ﷺ عن نفسه.

وهو أخيرًا أو أولًا ملكوت الله وروحه الذى خلق منه وبه كل شىء، ومظهر ذلك الأحاديث "القدسية" التى يتكلم فيها النبى ﷺ باسم الله، فيقول "أنا" والذات المتحدثة – هنا – هي الذات الإلهية. وقد أشار القرآن =

وليس معنى هذا احتواء قصص القرآن على أى خيال، أعنى أى شىء غير حقيقى – حاشا لله – ولكن معناه أن قصص القرآن قد روعى فى صياغتها أن تلبى حاجة الإنسان إلى الشعور بالجمال، أى إنها تشبع حاسة الجمال الكامنة فى قلب الإنسان، والتى تحثه على طلب الجمال الكامن فى صور الأشياء.

ولكن طلب الجمال لا يعدو أن يكون سوى الكشف عن الحقيقة المحتجبة وراء الرسوم – كما سبق أن أوضحنا – ومن ثم فلا يوجد تعارض أو تناقض بين الحق (الصواب) كما يدركه العقل أو يقرره العلم، وبين الجمال كما يدركه الوجدان أو يعرفه الحس، فكل من الحق والجمال بالنسبة إلى الإنسان يعبر عن وجه من أوجه الحقيقة، ولكن الجمال – الذى يكشف عنه الفن – يفصح عما غاب عن العقل كما يعبر عنه العلم.

ولكن بالنسبة إلى الله ﷻ عالم الغيب والشهادة، الذى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

والذى يستوى جميع الخلق أمام علمه المحيط، ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (٢) .. بالنسبة إلى الله لا يوجد فرق ولا تمييز

= إلى تلك الحقيقة المحمدية بضمير الجمع المتكلم "نحن"، ونبه عليها فى مواضع كثيرة من آياته كما سبق لنا أن ألمحنا.

وأرى أن السر وراء الصراع العنيف بين الفرق والمذاهب الإسلامية، إنما يرجع – في جزء منه – إلى عدم التمييز بين مستويات الوجود المحمدى، فبينما يركز أهل الظاهر على الوجه البشرى الظاهر غافلين عن الأوجه الأكثر عمقًا، نجد أهل التصوف – على النقيض – يركزون رؤيتهم على الحقيقة المحمدية الأشد خفاء، ولو استطاع العقل المسلم أن ينظر إلى الحقيقة كاملة مميزًا بين مستويات وجودها، لاختفى من التراث الإسلامى الكثير من الصراعات الضارة.

(١) سورة سبأ: الآية ٣، والكتاب المبين هو كتاب العلم الإلهى الذي كَتَبَ (أنزل) كلماته فى السموات، والذي يعد صورة (نسخة) سماوية من اللوح المحفوظ.

(٢) سورة الرعد: الآية ١٠.

بين الحق والجمال؛ لأن معرفة الله كاملة تامة، وعلمه واسع محيط؛ ولذلك وصف القرآن بالجمال، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ (١)، كما وصفه – بالقدر نفسه – بالصدق، أى بالحق أو الصواب، فقال: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٢).

ومن ثم فإنه سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى اختراع خيال ليجمل به قصص القرآن، ولا إلى اختلاق أحداث يستكمل بها تصوير المشاهد وربطها ببعضها، كما يصنع كتاب القصة والرواية من البشر!!

فإنه سبحانه وتعالى على علم تام وشامل بكل شىء، وهو يعرف كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة على حد سواء؛ ولذلك فإنه يختار من بحر علمه المحيط – الذى يحتوى على ما لا يحصى من المعلومات – القدر الذى يصنع به قصة محكمة بالغة الإتقان، تشبع حاسة الجمال فى الإنسان، وتوافق الحق (الواقع المشهود)، ولا تحتوى على كذب أو خيال، وتكشف عن الحقيقة، وهو ما يعنى أنها تكون بمثابة مرآة، تتجلى على صفحتها الصافية المصقولة صفات الله وأسماؤه الحسنى، فتكون القصة وسيلة للتعريف بالله. وهذه هى الغاية من نزول الوحى؛ كلا بل الغاية العليا من خلق السماوات والأرض والإنسان.

إن حقيقة الجمال هى جمال الحقيقة، لأننا – كما سبق أن أوضحنا – نكتشف الجمال ونتذوقه عندما نتعرف على الأشياء بالإدراك الحسى الخالص، باحثين عن الذات الباطنة أو "السر" الكامن فى الصورة، أى المحتجب وراء ستار الرسم.

(ب) أصالة القرآن الفنية:

وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ إشارة إلى أن قصص القرآن تعد من البراهين الساطعة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته؛ ليس فقط بسبب ما تحتويه هذه القصص من أخبار الماضى وحقائق التاريخ التى يستحيل على النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٨٧.

بوسائله البشرية أن يعلمها، ولكن أيضًا من أجل المستوى البلاغى أو الصياغة الجمالية الفريدة التى يستحيل على النبى ﷺ بوسائله البشرية أن ينجزها؛ إذ ليس فى التراث العربى الجاهلي- قبل القرآن – أية أعمال قصصية، أو حتى محاولات يعتد بها، يمكن أن يستند إليها محمد بن عبد الله عند قيامه بإنجاز هذه الروائع القصصية التى احتوى عليها القرآن، لو افترضنا جدلًا أنه ﷺ مجرد شاعر وقاص وروائى مبدع ليس له نظير!!

إن القارئ المتدبر للقرآن الكريم، سوف يدرك – لا محالة – أن هذا النص البديع المجموع بين دفتى المصحف الشريف، كان بمثابة فجرٍ مدوٍّ، أو بركانٍ من النور انفجر – على حين فجأة – فى ظلمات العصور الوسطى – بالمفهوم أو التاريخ الأوربى – وأنه كان ثروة علمية عظيمة الثراء واسعة المدى، بقدر كونه ثورة مفاجئة شديدة التأثير فى أساليب التعبير باللغة العربية، حتى أن العرب الذين اعتزوا دومًا بلغتهم التى قدسوها، واعتبروها أعز وأشرف ما يملكون، وتفاخروا ببلاغتهم وقدرتهم الفائقة على استعمال لغتهم التى عشقوها .. هؤلاء العرب لم يتمالكوا أنفسهم أمام سلطان القرآن على نفوسهم، فخضعوا له، رغم كفرهم بمضمون رسالته، وقتالهم للنبى الذى خاطبهم به!!

ويكفى أنه بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان – كان القرآن فيها سببًا مباشرًا فى تأليف الآلاف من الكتب التى تأثرت به – يكفى أنه ظل محتفظًا بأصالته وجدته، حتى يمكن تمييزه بمجرد الاستماع إليه أو قراءته وسط غيره من كلام البشر.

ولقد احتوى القرآن على الكثير من القصص والمشاهد القصصية، التى تناثرت فى فضاء نصه، تناثر النجوم المتألقة على صفحة السماء الصافية. واختار القرآن – دومًا – لحظات الأزمات الوجودية العميقة التى يخوض أبطال قصصه غمار فتنتها؛ ليعبر عنها فى نصه البديع بالغ الإحكام والتأثير.

ولم يهبط إلى تناول التفاصيل المعتادة التافهة التى تسود الآف الصفحات فى مئات الأعمال القصصية والروائية التى عرفها البشر فى تاريخ آدابهم، ونزه نفسه عن أن

يقتدى بكُتّاب التوراة، الذين ملأوا صفحات الكتاب المقدس (أسفار موسى وكتب الأنبياء) بالكثير من الأخبار السخيفة والتفاصيل المملة السقيمة، حتى ضاعت رسالة الله فى ركام تاريخ بنى إسرائيل وخرافاتهم.

وصف القرآن صراع آدم مع نفسه بغواية الشيطان الذى أغراه بمعصية الله، وحكى النزاع الدامى بين الأخوين الشقيقين هابيل وقابيل، وقص علينا اختلاف الأنبياء مع أقوامهم، وما دار بينهم من جدال عنيف، وذكر لنا خلاف نوح مع ابنه، وخيانة امرأته له، وخلاف إبراهيم مع أبيه، وصراع موسى مع فرعون، وفتنة داود بالمرأة التى ضمها إلى حريمه، والعلاقة المعقدة الغامضة التى ربطت سليمان مع بلقيس ملكة اليمن، والحوار بين موسى والعبد الصالح، الذى يمثل المشكلة الأزلية بين الظاهر والباطن أو قضية الشريعة والحقيقة.

والخلاصة أن جميع أوجه الصراع التى يكابدها البشر على هذه الأرض كانت هى الميادين التى اختارها القرآن مواضع لقصصه، وقد جمع كل ذلك فى قصة نبى الله يوسف ﷺ، التى حملتها السورة التى اتخذت من اسمه عنوانًا، وهى القصة الطويلة الوحيدة التى أوردها الله كاملة فى مكان واحد، ولم ينثر أجزاءها فى عدة سور، كما صنع مع غيرها من قصص الأنبياء.

(ج) سورة يوسف تحدى القرآن لكُتَّاب القصة والرواية :

وأرى أن الله ﷻ قد أراد بهذا أن يعلن التحدى للبشر فى ميدان كتابة القصة والرواية، كما أعلن التحدى فى ميدان الشعر. فإذا كان العرب قد شبهوا القرآن بالشعر للموسيقى الظاهرة فيه عند ترتيله، وادعوا أن النبى ﷺ شاعر، وأن بوسعهم أن يقولوا شعرًا مثل القرآن الذى ينطق به، كما حكى القرآن هذا عنهم فى قوله على

لسانهم: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾(١).

فتحداهم ليذل كبرياءهم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(٢).

وظل يواصل التحدى، ويخفف عنهم المطلوب إنجازه، حتى أخرسهم، وأيقنوا عجزهم التام عن الاستجابة للتحدى. كان ذلك – أساسًا – يتعلق بالشعر؛ باعتباره المجال الذى برع فيه العرب الجاهليون، واعتبروه مصدر فخرهم.

ولكن يبقى مجال القصة والرواية التى أبدعت فيه الأمم الأخرى، فجاء القرآن بقصة يوسف؛ ليعلن التحدى فى هذا اللون الفنى من ألوان الأدب.

ولذلك جاء فى التمهيد قبل الدخول فى القصة بقوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾، ثم أخذ يحكى قصة يوسف؛ ليقدم البرهان على دعواه، فكأنه قال – بلغة الإشارة – هذه هى أحسن قصة يمكن أن تقرأوها أو تسمعوها، وأنا أتحداكم أن تأتوا بمثلها.

وبهذا يكون القرآن قد قدم لنا - بسورة يوسف - النموذج الذى يجب احتذاؤه عند تأليف القصص والروايات، ليس بمعنى أن بمقدور البشر الإتيان بمثلها، ولكن بمعنى أنها المثل الأعلى الذى يجب أن يتطلع إليه كتاب القصة والرواية، ويتدارسوه ويفحصوه، مدققين النظر فيه؛ من أجل أن يتعلموا كيف يبدعون قصصًا وروايات جميلة. إذن هى دعوة إلهية للتعلم من القرآن، وسوف نستجيب لها فى هذه الصفحات.

---

(١) سورة الأنفل: الآية ٣١.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(د) من دروس الفن القصصى كما تقدمها سورة يوسف :

(١) النفاذ المباشر إلى قلب الحدث:

أول مظاهر الجمال فى القصص القرآنى – وهو أول الدروس التى ينبغى للقاص والروائى أن يتعلمها - النفاذ المباشر إلى قلب الحدث – دون تلكؤ – ومواجهة القارئ به، ووضعه فى مقام المشاهدة؛ ليتيح له التفكر والتأمل. هكذا بدأ القرآن قصته: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾[١].

لقد دخل فى قلب الأحداث منذ اللحظة الأولى، مصورًا الطفل يوسف يروى لأبيه ما رآه فى نومه، لم يقل مثلًا: فى صباح أحد الأيام استيقظ يوسف من نومه، وتذكر رؤيا شاهدها فى منامه، ولم يقل فذهب إلى أبيه، وأخذ يقص عليه ما رآه ...

ولم يقل مثلًا: عندما تسلل ضوء النهار إلى الغرفة التى ينام فيها الطفل يوسف، استيقظ وتذكر رؤيا جاءته فى منامه، فقام من سريره، وذهب إلى أبيه يقص عليه ما رآه.

لم يقل القرآن شيئًا من هذا، بل نفذ مباشرة وبسرعة إلى قلب الحدث، حاكيًا ما قاله يوسف لأبيه وهو يروى عليه الرؤيا البديعة التى رآها فى منامه.

لقد أوجز القرآن المقدمة التمهيدية للقصة فى حرف واحد هو "إذ". وبهذا الحرف "إذ" دعا نبى الله محمدًا ﷺ المخاطب بهذا القرآن، ودعانا من خلاله إلى تذكر ما حدث ليوسف. وفى ذلك إشارة إلى سبق علمنا بالأحداث التى سيتوالى عرضها على مرآة السورة، عندما كنا فى مقام الشهادة قبل دخولنا فى الابتلاء بالولادة من الأرحام.

إذن هو إشارة إلى وجود الروح قبل هذه الحياة الدنيا. وإذا كان يوسف سيتذكر ما رآه فى منامه وهو يذكر مشهد الرؤيا لأبيه، فإننا سنشاركه "التذكر" ونحن نقرأ الآية بمجرد النطق بحرف "إذ". وبهذا الحرف قد أعادنا ورفعنا القرآن إلى مقام المشاهدة،

---

(١) سورة يوسف: الآية ٤.

وحررنا من قبضة الابتلاء؛ لنتمكن من رؤية الأحداث، ومعرفة الحقيقة القائمة وراءها، بإدراك حسى وعقلى خالص، منزه عن الغرض والهوى الشخصى؛ لأن الأحداث المُشَاهدة على مرآة القصة أو الآية لا تخص أشخاصنا، أى ذواتنا الدنيوية التى تخوض الفتن أو تُمتحَن بالتجارب على أرض الواقع. وإن كنا – مع ذلك – نرى فيها أنفسنا؛ إذ نشاهد فى أشخاص القصة: دوافعنا وأهواءنا وصورًا لما يحدث لنا، فتتاح لنا – عبر التذكر والتأمل – رؤية أنفسنا من الداخل (الباطن)، ومعرفة حقيقتنا على نحو أوضح وأعمق مما يتاح لنا على أرض الواقع ونحن نخوض غمار الفتن والتجارب .. وهذه المعرفة هى غاية الفن بصفة عامة، وهدف الأدب بصفة خاصة.

يقول القرآن: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ (١)، ويشير بهذا القول إلى معنى أن القرآن يقدم للناس الصور والنماذج التى تكشف لهم عن بواطن أنفسهم، على مرآة الآيات والسور، فيتمكنون من معرفة أنفسهم ومصائرهم.

ولكن ليس فى مقدور الكاتب أن يدخل فى قلب الحدث مباشرة بلا تباطؤ أو تلكؤ، دون أن يكون لديه علم واسع عميق بالشخصيات التى سوف يرسمها بكلماته على صفحات كتابه، ودون أن يكون لديه قدر هائل من التفاصيل الخاصة بحياة هذه الشخصيات؛ حتى يمكن النفاذ إلى قلب الأحداث واختراق بواطن شخصياته، واختيار التفاصيل الملائمة، وربطها وتركيبها فى سياق واحد، يكشف الحقيقة ويشبع حاسة الجمال عند الإنسان. وهذا هو الدرس الأول والأهم الذى نتعلمه من قصص القرآن.

(٢) براعة الاستهلال:

أما الدرس الثانى فهو براعة الاستهلال، ونعنى بها اختيار المشهد الأول القادر على الاستحواذ على وجدان وعقل القارئ منذ اللحظة الأولى، أعنى منذ بداية أو ولادة القصة .. ولننظر الآن ماذا اختار القرآن بدءًا لقصته؟

(١) سورة محمد: الآية ٣.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾.

بداية بديعة بالغة الروعة، تجذب الانتباه، وتثير الكثير من الأسئلة، وتدفع خيال المتلقى إلى الارتفاع - منذ اللحظة الأولى – إلى السماء، وتحرره من قبضة الأرض.

طفل صغير يجلس على عرش متلألئ فى أعلى السماء، والكواكب[1] والشمس والقمر عند قدميه ساجدة له فى خشوع. يا لها من بداية غريبة عجيبة!، تلبى نداء الجمال الساكن فى قلب الإنسان، الباحث عن الصعود والخلود والتحرر من سجن الجسد والموت. وتضىء العقل (الفؤاد) بفيض من الأسئلة المثيرة المتوهجة بنار البحث عن المعرفة: "مَن هم الكواكب؟ ومن الشمس؟ ومن القمر؟ وما معنى السجود؟ وما معنى الجلوس على العرش؟ إذ لا يتصور العقل سجودًا إلا أمام الجالس على العرش، سواء أكان عرش الله، ملك السماوات والأرض، أو عرش الملك الذى يحكم البلاد!!

وتعيد هذه الرؤيا إلى قلب قارئ القرآن المتدبر مشهد سجود الملائكة، سكان السماوات لآدم، عندما سواه الله، ونفخ فيه من "روحه"، ثم أمر الملائكة، سكان السماوات قائلًا: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾.

فيوسف – هنا - مع هذا التأويل الذى يوحيه تذكر مشهد سجود الملائكة، هو رمز للإنسان أو صورة لروح الله، وتصير الكواكب والشمس والقمر رموزًا للملائكة. ولكننا سنعلم فى نهاية القصة أن الكواكب هم: إخوة يوسف، والشمس والقمر هما: أبوه وأمه، أو من تقوم مقام أمه.

---

(١) يرى بعض المفسرين أن الآية إشارة (رمز) للمجموعة الشمسية التي يعيش الإنسان على أحد كواكبها، ويتنبأون باكتشاف كوكب آخر "جديد"، ينضم إلى هذه الأسرة؛ ليبلغ عدد كواكبها "أحد عشر كوكبًا" كما يقول النص الحكيم. والأبحاث العلمية الحديثة تشير إلى شيء من هذا. والقرآن البديع حمال أوجه؛ لأن قائله ﷻ يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (سورة البقرة: الآية ٢٥٥).

وهكذا يقول لنا القرآن - مرة أخرى - بلغة الرمز أو الإشارة أن البشر كائنات سماوية، وأنهم ليسوا إلا ملائكة هبطوا من السماء للابتلاء فى هذه الأثواب المصنوعة من طين الأرض!!

وإذا كان السجود يعنى غاية الطاعة، أى يرمز إلى قبول مقام الخادم عن طيب خاطر، فنفهم من سجود الملائكة معنى تسخير كل شىء فى السماوات والأرض لخدمة الإنسان، ونفهم من سجود الكواكب والشمس والقمر ليوسف تسخير كل المخلوقات والظروف والأحوال لخدمة هذا العبد الساجد الطائع لله، الذى اجتباه ربه لخدمته .. وقد كان!!

هكذا توحى الآية القرآنية أو الرؤيا الربانية بالكثير من المعانى، واحتملت العديد من التأويلات؛ لأن ألفاظها رموز لحقائق أخرى أكبر من المعنى الأول المباشر الذى يُخاطب عقولنا، طبقًا لاستعمالها فى شئون الحياة اليومية المعتادة. وهذا هو معنى قول أبى بكر الصديق ﵁: "إن القرآن حَمَّال أوجه" .. يشير إلى تعدد مستويات فهم النص القرآنى الحكيم بقدر ما يتسع العلم، ويدق الفهم، ويرق ذوق القارئ المتدبر!!

(٣) الاقتصاد فى الوصف:

ونترك التأويل، ونعود إلى الدروس الفنية المستفادة من قصص القرآن، فنأتى على الدرس الثالث، وهو حظر الإسراف فى الوصف وذكر التفاصيل؛ لأن هذا الإسراف من شأنه أن يعوق عمل الخيال، الذى يقوم ببناء المشاهد داخل النفس الإنسانية – بقدرة إلهية ممنوحة للإنسان – لا يستطيع أى كاتب مهما بلغت موهبته وعلا إبداعه أن يجاريها.

لم يذكر القرآن - مثلًا - متى وأين قال يوسف لأبيه رؤياه، ولم يشغل القرآن نفسه بوصف ملامح يوسف، رغم أن جمال صورته سيكون هو موضع فتنته، ولا وصف ملامح وجه الأب أو ملابسه. هل حكى يوسف رؤياه لأبيه فى الخيمة؟ أم فى المرعى؟ أم عند البئر؟ وهل كان الوقت صباحًا؟ أم مساء؟ أم فى الظهر عند سطوع الشمس؟ وماذا كان يرتدى يوسف أو أبوه يعقوب؟ أسئلة لا يجيب القرآن عنها، ولم يشغل نفسه

بذلك، تاركًا لخيال الإنسان أن ينطلق متحررًا من قيود الزمان والمكان؛ ليبنى الصورة التى تروق له، والتى تمثل للنفس الحدث الموضوع بالألفاظ تحت مصباح المشاهدة.

ولا شك فى أن كبار الكتاب الذين شهدت الإنسانية كلها بعبقريتهم، كثيرًا ما يقعون فى هذه الخطيئة الفنية بإسرافهم الشديد فى الوصف والتحديد؛ رغبة منهم فى إكساب خيالهم روح الوجود، وإسباغ الحياة على شخصياتهم الفنية. ولكنهم بإسرافهم الشديد فى هذا الاتجاه يضيقون واسعًا، ويصيبون القارئ بالملل والسأم، وقد نزه القرآن نفسه عن الوقوع فى كل ذلك، تاركًا لخيال الإنسان حرية الانطلاق والعمل.

ولذلك سيقوم كل إنسان يقرأ هذه الآية بتكوين صورة خاصة به فى خياله، تمثل المشهد الذى عبرت عنه الآية بالألفاظ، وهذه الصورة الخيالية تكون جزءًا من المعنى الخاص الذى يدركه كل إنسان قرأ هذه القصة فى القرآن. هكذا سيتصور إنسان أن الطفل يوسف قد حادث أباه فى الخيمة، وسيتصور آخر أن المحادثة تمت فى المرعى بجوار البئر، وأن ذلك كان فى الصباح الباكر، أو فى ساعة الراحة عند الظهر، وسَيُكِّون كل واحد منا صورة خيالية خاصة به ليوسف وأبيه يعقوب وسائر أبطال القصة، وكل هذه الصور الخيالية تعد صحيحة من وجهة النظر العقلية، ما دامت تستند إلى كلمات القرآن ولا تخالفها فى المعنى أو المضمون العقلى. وهذه الصور الخيالية العديدة تعد شكلًا أو نوعًا من "التأويل" الفنى (الجمالى) للنص القرآنى القصصى.

ولننظر الآن كيف قال القرآن على لسان يوسف ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، ثم قال فى المقام نفسه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، فكرر فعل الرؤية ليعبر عن رغبة يوسف فى تأكيد صدقه وصحة رؤياه. وكيف قدم "لى" على ﴿سَاجِدِينَ﴾؛ ليفيد التخصيص، الذى يعبر – هنا – عن رغبة الطفل يوسف البريئة فى تأكيد صحة رؤياه العجيبة.

(٤) المفاجأة والتشويق:

لقد تطلع يوسف إلى وجه أبيه ..

وانتظر فى لهفة أن يسمع منه تأويل الرؤيا الغريبة، ولكن الأب الرءوف الرحيم بابنه، لم يبادر بالإفصاح عن التأويل المرتقب، بل أسرع بإعطاء نصيحة مباغتة، تثير

التساؤل والحيرة فى نفس يوسف، وفى نفس القارئ من بعده: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ (١).

تحذير مفاجئ لم يتوقعه الطفل يوسف ولا القارئ، زاد الرؤيا إلغازًا وغموضًا، وأثار الخوف مع الريبة، وأطفأ مصباح البشرى الذى أضاءته الرؤيا فى قلب الطفل الصغير، وكان قد أحس بسعادة عميقة تنبعث فى داخله، وأمل بعيد يلوح عند الأفق الملبد بالغموض.

هكذا يعطينا القرآن الدرس الرابع فى فن كتابة القصة (درس المفاجأة والتشويق)؛ حتى يظل انتباه القارئ منجذبًا فى تيار القصص؛ بتأثير الأسئلة التى تثيرها المفاجأة، وبدافع من الفضول الباحث عن كشف الغموض.

(٥) توالد المشاهد وسلاسة الحركة:

وقد أدخلنا تحذير الأب فى قلب الصراع الدائر بين يوسف وإخوته؛ بسبب الحسد والغيرة التى تشعل قلوبهم نارًا على أخيهم الصغير غير الشقيق، بالغ الجمال الذى يستحوذ – فى ظنهم – على حب أبيهم ورعايته. هكذا انتقل القرآن – فى سلاسة – إلى الخطوة التالية من القصة، ممهدًا بكلام الأب لما سيأتى من أحداث. وهذا هو الدرس الخامس من دروس الفن القصصى: أن يلد المشهد الحاضر – من باطنه – ما يتلوه من مشاهد فى سياق حركة تلقائية، تنبعث من قلب الأحداث.

قوله على لسان الأب الرحيم: ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾: تأكيد للعداوة الشديدة التى ستدفع إخوة يوسف إلى إيذائه مما – لا شك – قد أدخل فى قلب الطفل الصغير فزعًا من المستقبل الغامض الذى ينتظره.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾: قد أعاد إلينا قصة إبليس مع آدم، الذى سجدت له الملائكة سجود الكواكب والشمس والقمر ليوسف، وبهذا التذكر قد

(١) سورة يوسف: الآية ٥.

أرانا القرآن فى يوسف – مرة أخرى – رمزًا أو مثلًا مضروبًا للإنسان؛ لكى نرى أنفسنا فى يوسف، ونرفع نظرتنا من أشكال الصراع التى نكابدها فى حياتنا اليومية، إلى رؤية الصراع الأول، الذى يعد أصلًا لكل صراع دنيوى آخر، ألَا وهو صراع الإنسان مع الشيطان.

(٦) الرمزية:

هكذا يصبح للقصة معنى أو مستوى رمزى للفهم. وهذا هو الدرس السادس.

قوله: ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يعنى عدوًّا قد تحققت عداوته وتأكدت لدى الجميع، حيث لا يشك أحد فى حقيقتها. ولم يكن من المقبول – بموجب الرحمة المفطور عليها قلب الأب على ابنه الحبيب – أن يتركه نهبًا للمخاوف والظنون دون أن يفسر له الرؤيا، ويبوح له بسر ما فيها من البشرى، فقال له: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

الكاف الأولى فى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه، أى لإقامة تماثل بين ما قبلها – وهو الرؤيا، وما بعدها – وهو تأويلها كما جاء على لسان الأب، نبى الله يعقوب عليه السلام.

"وذا" اسم إشارة للرؤيا، "والكاف الثانية" خطاب من يعقوب عليه السلام لابنه يوسف، ومن قلبه يتولد خطاب من الله سبحانه وتعالى للإنسان قارئ هذا القرآن.

﴿يَجْتَبِيكَ﴾: يصطفيك من خلقه دون إرادة منك .. فأنت المراد بفضله من قِبَلِه سبحانه وتعالى. والخطاب ليوسف، ثم لكل إنسان من خلاله عليه السلام.

﴿تَأْوِيلِ﴾: فهم يكشف غموض المسألة، فَيُعَيِّنُ المعنى المقصود من بين عدة معان محتملة، أو يزيل تناقضًا ظاهرًا بين حقائق لا ينبغى أن تتعارض أو تتضارب مع بعضها، أو يكشف عن غيب مستور وراء الصورة المحسوسة.

(١) سورة يوسف: الآية ٦.

﴿ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾: الرؤى، وهى المشاهد أو الصور التى يراها النائم عندما يتوفى الله نفسه بالنوم.

وهى إما حديث نفس، يعبر عن رغباتها المكبوتة التى لا تنال إشباعها فى العالم المحسوس (الشهادة)، أو حديث شيطان، يعبث بعقل الإنسان ويلوث وجدانه، أو حديث إلهى، يكشف به الرحمن لنفس الإنسان عن بعض الغيب الذى استودعه كتاب علمه. فهذا النوع الأخير من الأحاديث (الرؤى) وحى من الله، وكانت "رؤيا" يوسف من هذا الحديث الإلهى الكاشف عن الغيب.

ولقد اعتبر القرآنُ الرؤى أحاديث، وهو ما يعنى أنه عَدَّ الصور والمشاهد التى تُرى فى المنام كلمات؛ ليقرب إلى الأفئدة معنى أن المخلوقات تعد – فى حقيقتها – كلمات إلهية مكتوبة فى اللوح المحفوظ، قبل أن تُخلَق فى هذه الحياة الدنيا، وأن خلقها (إظهارها) يكون بمثابة النطق بها، على نحو يشبه تحقق الرؤى فى العالم المحسوس بعد رؤيتها فى المنام، فالمخلوقات كلمات إلهية مشهودة، أو أمثال من الله مضروبة فى عالم الشهادة، وبهذا يكون القرآن قد قال لنا - بلغة الإشارة – أن المخلوقات رموز لحقائق أكبر من صورها.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾: ويبين لك بعض ما تشير إليه مشاهد الرؤى من معان وحقائق، ستصير مشهودة بعد أن يمنحها الله "سر" الوجود، عندما ينفخ فيها الروح بأن يقول لها: "كن".

إذن، فقد كان فضل الله على يوسف عليه السلام أن منحه القدرة على فك رموز الرؤى، وبيان الحقائق الكامنة فى رسومها المرئية بالغيب، قبل أن تصبح مشهودة، وهذه القدرة من ثمار شجرة النبوة.

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ ﴾: ويكمل كلمته (رسالته) إليك، أى يواصل حديثه إليك؛ حتى تصل إلى الغاية التى ليس وراءها مزيد، حين تصبح نبيًّا يسمع كلام الله.

فهذا الحديث من يعقوب إلى ابنه يوسف ﵇، تبشير بنبوة يوسف ونزول رسالة الله عليه، يتم بها كلمته إليه التى بدأها بحديث الرؤيا العجيبة التى رأى فيها الطفل يوسف الكواكب والشمس والقمر ساجدةً له.

(هـ) كلمة الله هى النعمة الكبرى:

وقد عبر القرآن الكريم عن كلمة الله ورسالته بلفظ النعمة فى أكثر من موضع، نذكر منها:

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[1].

يخاطب نبيه محمدًا ﷺ؛ يطلب منه أن ينظر ويتأمل فى صنيع ومصير أولئك الذين غيروا (بدلوا) كلمة الله ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾، أى رسالته إليهم؛ بدافع من كفرهم ﴿كُفْرًا﴾؛ ومن ثم فقد قادوا قومهم إلى النزول والمقام فى ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾، أى فى بيت الفساد حيث العذاب والموت. وما هى ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؟ وتأتى الإجابة عن السؤال فى الآية التالية مباشرة: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

(٢) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [2].

أمر إلى النبى محمد ﷺ بإبلاغ كلمة الله، أى رسالته التى أنزلها عليه ﷺ.

(٣) ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [3]. تذكير بكفر بنى إسرائيل رغم كثرة الآيات التى بَيَّنَها الله لهم،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٨.

(٢) سورة الضحى: الآية ١١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٢.

ومن ذلك تحريفهم (تغييرهم) رسالة الله إليهم، وتحذير من سوء عاقبة من يغير ﴿يُبَدِّلْ﴾ رسالة الله ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾.

(٤) ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (١). ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: رسالة الله إليكم، أى كلمته التى ألقاها عليكم، وحَمَّلَكُمْ إقامة أحكامها وإبلاغها للناس. ونكتفى بهذه المواضع، ونعود إلى حديث يعقوب إلى ابنه يوسف (عليهما الصلاة والسلام).

قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾: بيان أن النبوة - وإن كانت تشريف وتكليف للعبد (الفرد) الذى اجتباه (اصطفاه) الله، فإنها أيضًا - تشريف وتكليف لقومه الذين نزلت فيهم ومن أجلهم الرسالة.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ﴾: كما أعطى النبوة من قبل لأبويك إبراهيم وإسحق .. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم أين يضع رسالته.

(و) عودة إلى الدروس الفنية:

(٧) أحكام السرد:

هكذا عادت البشرى إلى قلب الطفل يوسف، وأضاء الأمل جوانب نفسه التى أظلمتها المخاوف والظنون والهواجس، وظفر بتأويل الرؤيا من فم أبيه النبى يعقوب، وحصلنا نحن – معه – على فكرة عامة غامضة عن أحداث المستقبل؛ إذ علمنا – بنص الرؤيا وبتأويل يعقوب لها – أن يوسف سوف ينال مجدًا دنيويًّا ودينيًّا، وسوف يعيش حياة تماثل حياة أبويه اللذين هما جده وأبو جده إسحق وإبراهيم (عليهما الصلاة والسلام).

(١) سورة المائدة: الآية ٧.

هكذا انتهى المشهد الأول من قصة - أو بالأحرى رواية - يوسف: مشهد الحديث بين الطفل وأبيه الذى تناول الرؤيا وتأويلها. وقد مهدت هذه البداية الرائعة لكل أحداث الرواية القادمة، وأبانت الخطوط العامة أو المحاور التى ستجرى عليها الوقائع، وأثارت الكثير من الأسئلة فى عقل القارئ لجذب انتباهه. كيف وأين ومتى يحصل يوسف على مجده؟ وماذا سيحدث له؟ وماذا سيفعل به إخوته الكارهون له؟ أسئلة كثيرة تثور فى العقل، تبحث عن الإجابة، وتستحثنا على مواصلة القراءة.

وآن لنا – نحن القارئين المستمعين للقصة – أن نقف لحظة للتأمل بعد هذا المشهد التمهيدى، وقبل أن نخوض فى غمار الأحداث التالية. وجاءت هذه الوقفة فى قول القرآن الكريم: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[1].

وبهذا يعطينا القرآن الدرس السابع من دروس الفن القصصى .. درس تقسيم القصة الطويلة أو الرواية إلى مشاهد أو فصول مرسومة بإحكام، يؤدى الواحد منها إلى التالى فى تسلسل تلقائى، مع وقفات بين الحين والآخر؛ لالتقاط أنفاس التأمل أو ثمار الفكر؛ لأن الغاية العليا من الفن القصصى بصفة خاصة، والفن بصفة عامة، هى إثارة الفكر؛ من أجل الوصول إلى الحقيقة، أو الاقتراب منها، عبر بوابة الجمال، من خلال التذوق الفنى؛ لأن الفن – فى جوهره – معرفة تستكشف الآفاق التى يعجز العقل (الفؤاد) عن التطلع إليها من باب العلم؛ لذلك يأمر الله نبيه فى القرآن بقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

(٨) الصدق:

ويبدو أن يوسف قد عصى أباه، فقص رؤياه وتأويل أبيه على إخوته، فأضرم نار الحسد والغيرة فى قلوبهم، فَعَرَّض نفسه لكيدهم، كما فعل آدم من قبل حين عصى ربه وأكل من الشجرة التى نهاه عنها.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

هكذا ساقنا القرآن برفق، ودون أن نشعر بأى اضطراب فى السياق، فأدخلنا إلى المشهد الثانى حيث رأينا الإخوة، أبناء العَلَّات (الضرائر) يجتمعون، وينفسون عن حقدهم على يوسف وأخيه بنيامين ابنى المرأة الشابة الجميلة "راحيل": ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

هنا يقدم القرآن الدرس الثامن والأعظم لكتاب القصة والرواية: درس الصدق، التعبير الصادق الحر عما يدور فى بواطن الشخصيات الفنية، دون قيود أو محاذير مفروضة على أبطال القصة من خارج أنفسهم.

لقد تركهم النص القرآنى يفصحون عما يعتمل فى صدورهم، دون نظر إلى المعايير الدينية والقيم الأخلاقية التى ينبغى عليهم أن يلتزموا بها باعتبارهم أبناء نبى، فعبروا عن أنفسهم بصدق.

فرأينا أنهم لم يتورعوا عن وصف أبيهم بالضلال المؤكد، الذى لا يشك فيه أحد: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، وأفصحوا عن ضيقهم من ميل قلب أبيهم إلى ابن الضرة، وعن شعورهم بقوتهم وقدرتهم على فرض إرادتهم: ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾، بل إنهم قد فكروا فى التخلص من أخيهم يوسف بقتله أو تشريده فى أرض بعيدة حتى يهلك، ويصفو لهم – حينذاك – حب أبيهم ورعايته، على أن يتوبوا عن خطيئتهم تلك – التى يزمعون ارتكابها – بعد ذاك، ويصبحوا من بعدها رجالًا صالحين .. ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾[2].

(١) سورة يوسف: الآية ٨.

(٢) سورة يوسف: الآية ٩.

هذا ما زينه الشيطان لهم، ولكنهم أبناء نبى، وفى نفوسهم بذرة خير غرستها فطرة الله فى قلب كل إنسان؛ ولذلك سرعان ما تخلوا عن تلك القسوة، وبدأوا يفكرون فى طريقة أخرى أكثر رحمة وأقل إيلامًا.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ (١).

لقد عزموا على إبعاد يوسف وطرده من بيت أبيه، ولكنهم رغم ذلك أخذوا - بباعث من الرأفة الإنسانية - يفكرون فى وسيلة لإنقاذه من الهلاك .. "سيقذفونه فى حفرة بئر؛ لعله يجد الماء الذى يحفظ حياته حتى تجده بعض القوافل السيارة، التى تقطع الطريق بين بادية الشام ومصر على الدوام – جيئة وذهابًا – فى الرحلات التجارية".

هذا ما فكر فيه وقاله واحد منهم؛ تعبيرًا عن تمنى نجاة يوسف، تلك الأمنية التى جالت بأنفسهم رغم عزمهم على إبعاده.

فقوله: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ ﴾ دون تعريفه أو تسميته؛ إشارة إلى أن تمنى نجاة يوسف من الهلاك كان أمنية جالت فى أنفسهم جميعًا؛ بسبب الرحمة التى أنبتتها يد الله فى قلوب الناس، خاصة بين الإخوة والأقارب.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ يعنى: إن كنتم ما تزالون مصرين على إبعاد يوسف.

وفى هذا تلويح إلى طروء فكرة التراجع عما عزموا عليه فى أنفسهم، وترددهم بين الإقدام والتقاعس، حتى جمعوا أمرهم (إرادتهم) فى النهاية، وذهبوا إلى أبيهم لينفذوا الاقتراح الذى تقدم به أحدهم.

---

(١) سورة يوسف: الآية ١٠.

وهكذا انتقلنا - فى سلاسة منطلقين - مع النص القرآنى إلى المشهد الثالث: لقاء الإخوة مع الأب؛ يريدون منه تسليم يوسف إليهم.

إن القرآن يعلم كتاب القصة والرواية أن يرسموا - بكلماتهم - ملامح شخصيات إنسانية حقيقية، بكل ما فيها من غرائز فطرية، وأهواء، وصراع بين الخير والشر؛ من أجل أن يرى القراء فى أبطال القصص "أنفسهم"؛ فتكون الشخصيات الفنية المرسومة بالكلمات على مرآة القصص، إضاءة لبواطن الأنفس البشرية التى تقوم بالقراءة.

وهكذا يكون الفن القصصى وسيلة لاكتشاف الحقيقة، واستكمال المعرفة الإنسانية وهذه غاية الفن. وعلينا هنا أن نبين سفاهة وسخافة من يقرأون الأدب، خاصة القصص والروايات بعيون الأحكام الشرعية والمعايير الأخلاقية، مطالبين الأدباء من كتاب القصة والرواية أن يقدموا فى أعمالهم الفنية نماذج مثالية، تلتزم أشد الالتزام بأحكام الشريعة ومعايير الأخلاق الحميدة، وهى نماذج – للأسف الشديد – ليس لها وجود فى الحقيقة التى يعرفها جميع الناس؛ ومن ثم فلن يجد القراء فيها أنفسهم، ولن يستجيبوا لها أو يتأثروا بها، وبالتالى ستفقد الأعمال الأدبية قيمتها الفنية أو الجمالية، وسيعجز الكاتب الأديب عن إيصال أى رسالة إلى قرائه عبر تلك التماثيل الذهبية الجامدة، أو الجثث المحنطة فى قوالب الشعارات.

إن من يقرأون الأدب بعيون الدين، ويحكمون على الشخصيات الفنية بأحكام الشريعة وحدودها، إنما يغفلون – فى الحقيقة – عن النص القرآنى البديع، الذى عبر عن الإنسان فى قصصه أبلغ تعبير، مفصحًا عن بواعثه وأهوائه وضلالاته، بل وكفره وخطاياه، دون أن يسقط فى الإباحية أو الفجور؛ لأن غايته العليا هى كشف الحقيقة لا الدعوة إلى الرذيلة.

وتكشف لنا سورة يوسف أن الاقتراح الذى تقدم به أحد الإخوة لإنقاذ يوسف من غيابة الجب؛ حتى يأتى من ينتشله، هو ما قد حدث بالفعل بعد ذلك، فكأن هذا القائل كان يقرأ – دون أن يدرى – المسطور فى كتاب العلم الإلهى، وقد اندفعوا

ينفذون - من تلقاء أنفسهم - ما كتبه الله فى سابق علمه، دون أن يفرض "ذلك الكتاب" عليهم شيئًا من خارج أنفسهم، أى دون أن يجبرهم أو يكرههم على شىء لا يريدونه؛ فإنهم قد أرادوا ما أراد الله، وعملوا ما كتبه الله فى كتابه ببواعث من داخل أنفسهم، وليس خضوعًا أو طاعة لما قرأوه أو اطلعوا عليه فى كتاب العلم الإلهى؛ لأن محتويات (كلمات) "ذلك الكتاب" محجوبة عنهم على سبيل الابتلاء (الامتحان)؛ من أجل إظهار بواطن أنفسهم، فما فى أنفسهم ليس إلا مجرد صورة أو نسخة للمسطور فى "ذلك الكتاب"، الذى سجل الله فيه علمه، وهم يخرجونه من الغيب إلى الشهادة؛ تعبيرًا عن أنفسهم، وتحقيقًا لإرادتهم، وليس خضوعًا واستسلامًا لما فرضه الله عليهم؛ فإن سبق العلم الإلهى لا يتعارض أو يتناقض مع حرية الإنسان: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (١).

يقول: إن الله يغلب الناس على حكمه، قادرًا مقتدرًا على جعلهم ينفذون ما قَدَّره عليهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ .. تلك الحقيقة؛ لأنهم يعملون ما تمليه عليهم إرادتهم، مستجيبين للبواعث التى تنطلق من داخل أنفسهم، متحركين بين اختياراتهم، معبرين عن أنفسهم، ولكنهم لا يشعرون أنهم إنما ينفذون إرادة الله دون أن يدروا، غير منتبهين ولا ملتفتين – فى غمار الابتلاء – إلى أنهم أدوات فى يد الله، يظهر بها غيبه، ويكشف بها عن علمه .. وهذه هى إجابة قصة يوسف كما صاغها القرآن عن سؤال الحرية الإنسانية.

(ز) شخصيات الرواية:

ظلت المشاهد والأحداث تتوالى على مرآة الآيات، تنساب فى سلاسة يفضى بعضها إلى بعض، حتى حصلنا – نحن القراء المستمعين لهذا القرآن – على أعظم رواية عرفها الإنسان بمنطق الفن، وبالاحتكام إلى معاييره، وليس بمجرد الدعوى الدينية.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

إن القرآن العظيم قد قدم لنا فى تسع وتسعين جملة – من الآية الرابعة حتى الآية الثانية بعد المائة من سورة يوسف – رواية فنية هائلة، يعجز كل الروائيين العظام أن يبدعوا مثلها ولو اجتمعوا لها. فهل يستطيع البشر أن يؤلفوا فى تسع وتسعين جملة – تستغرق كتابتها أقل من عشر صفحات من القطع المعتاد استعماله فى طباعة الكتب – مثل هذه الرواية الكبرى، التى احتشدت فيها الشخصيات الإنسانية الكثيرة، بالغة التنوع والثراء الفنى، مرسومة ملامحها الإنسانية بدقة ورقة وإحكام، وقد اشتبكت جميعها فى سياق أحداث تناولت كل أوجه الصراع البشرى التى يمكن أن يخوض الناس غمارها فى هذه الحياة الدنيا، وعلى مدى يقارب خمسين عامًا من الزمان.

(١) يوسف عليه السلام:

لدينا – أولًا – شخصية النبى يوسف عليه السلام منذ كان طفلًا صغيرًا ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ .. حتى تحققت الرؤيا بعد أكثر من أربعين سنة، إذ قال يوسف – وهو ينظر إلى إخوته الذين خروا له سجدًا وهو قائم بين يدى العرش فى قصر الملك، كما سجد الملائكة لآدم أبى البشر: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[١].

وقد عانى يوسف عبر فصول الرواية كل أنواع الصراع البشرى على هذه الأرض .. عانى من عداوة إخوته بسبب الحسد والغيرة .. وعانى من الطرد من بيت أبيه والتشريد، ومن مواجهة الموت فى غيابة الجب (ظلمة البئر)، وهو بعدُ طفل صغير .. وعانى من الظلم؛ حيث لبث فى السجن بضع سنين .. ثم عانى من تشويه السمعة، حتى حصل فى النهاية على المجد الذى وُعدَ به فى بداية القصة عند تأويل الرؤيا.

(١) سورة يوسف: الآية ١٠١.

(٢) يعقوب عليه السلام**:**

ولدينا ثانيًا شخصية النبى يعقوب عليه السلام، الذى عانى من صراع أبنائه مع بعضهم، ومن فقدان ابنه الحبيب، الذى وضع فيه أمله فى حمل رسالة الله من بعده، ومن عجزه عن هداية أبنائه العصاة الذين كذبوا عليه، بل سخروا منه وأهانوه فى وجهه إذ: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ (١)، وهو نبى كريم على ربه.

وعانى من المقادير الإلهية التى سارت رياحها بما لا تشتهى سفن رغباته البشرية، حتى أصابه العمى، وناله الأذى من تكذيب أبنائه له، وظل على هذه الحال إلى أن أرسل إليه ابنه يوسف بقميصه، قائلًا لإخوته: ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢) .. ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

(٣) امرأة العزيز:

ولدينا ثالثًا امرأة العزيز التى حُرِمَت من الأبناء، ولم تعرف الأمومة، ثم عشقت ربيبها يوسف، وقد نما تحت عينيها كالشجرة الطيبة، حتى أصبح رجلًا رائع الجمال، فعانت من الصراع بين الهوى والواجب، وكابدت آلام الحب المحرم، ولاكت سمعتها ألسنة حداد، ثم اكتوت بنار الفراق حين أُلِقَى بحبيبها فى غيابة السجن بضع سنين. وهنالك خاضت الابتلاء حتى عرفت طريق التوبة. فلما استدعاها الملك مع بقية ﴿ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (٤)، ثم: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ

(١) سورة يوسف: الآية ٩٥.

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٩٦.

(٤) سورة يوسف: الآية ٥٠.

حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (١).

لقد اعترفت بذنبها، ودافعت عن شرف الرجل الذى أحبته وظلمته، وكانت سببًا فى سجنه بضع سنين، كانت زهرة شبابه، وكان هذا الاعتراف منها دليلًا على توبتها.

انظر إلى قول القرآن على لسانها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾، الذى يشير إلى معنى تمكن الحق فى قلبها، واستقراره بعد طول تردد واضطراب؛ مما بعثها على النطق بالصدق الذى كشف الحقيقة بعد طول اختفاء، وأزال ضباب الشبهات.

وإذا كانت الرواية – كنوع أو جنس أدبى – هى القصة الطويلة التى تجرى أحداثها فى زمن طويل نسبيًّا، وتتناول عدة شخصيات إنسانية فنية، تشتبك مع بعضها فى علاقات إنسانية فنية معقدة، فإن الذى يهب الرواية هويتها الفنية – من وجهة نظرى – هو تجسيمها لتأثير الزمن على شخصياتها، أعنى رسم معالم حركة الزمن فى نفوس أبطالها، وملامح التغيير التى تطرأ على تلك النفوس مع نموها ونضجها عبر مرور الزمن وحركة الأحداث، وهو التأثير الذى يلمسه القارئ المتذوق عند مطالعة هذه الآيات القرآنية التى تناولت وصف حكاية يوسف والتأمل فيها؛ مما يقطع بيقين فنى لا يدحض بأننا أمام رواية بالغة الإتقان، لم يسبقها نظير، ولم يلحقها مثيل.

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ .. هكذا عبر القرآن عن تأثير الزمن فى نفس الإنسان، أو أفصح الزمن عن نفسه على لسان امرأة العزيز.

وإذا كان الإنسان وحياته الداخلية (الباطنية) هو موضوع الفن القصصى، فإن لحظة اكتشاف الحقيقة فى غمار الفتنة هى قضية الأدب الإسلامى، الجدير بهذا الاسم والوصف.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥١.

(٤) العزيز:

ولدينا رابعًا "العزيز"، الرجل صاحب السلطة والمنصب الرفيع الذى يعانى من مأساة العجز عن الإنجاب والحرمان من الأبناء .. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ (١). لقد كان يوسف بالنسبة إليه الابن الذى طال اشتياقه إليه، ولكنه صار - بمرور الوقت، عندما نضج واكتملت رجولته – الخصم، بل العدو الذى اغتصب حب امرأته، فتعقدت العلاقة التى تربط الرجلين، وتمزق حبلها بين الحب والكراهية، ووقع العزيز ضحية صراع لم يسع إليه، وعانى من النزاع بين الواجب الأخلاقى الذى يقتضيه أن يحكم ببراءة يوسف من جريمة الخيانة ومحاولة الزنا، وبين الهوى الذى يفرض عليه أن يحافظ على سمعته وشرف امرأته عند الملأ الأعلى الملتفين حول عرش الملك.. ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢).

ثم تضرع إلى يوسف أن يكتم الخبر ويستر الفضيحة: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ (٣).

لكن الفضيحة دوى صوتها، وتناثرت أنباؤها وأكاذيبها فى كافة أرجاء مجتمع الطبقة العليا على ألسنة النساء اللاتى يجدن لذة لا تقاوم، فى نشر أخبار العشق والفضائح، فكان لابد من إخفاء يوسف وراء جدران السجن؛ حتى تصمت الألسنة ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٤).

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٨.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٩.

(٤) سورة يوسف: الآية ٣٥.

(٥) الملك:

ولدينا خامسًا الملك الذى يحكم أرض مصر. لقد رأى رؤيا عجيبة أقضت مضجعه، فلم يستطع النوم .. فلما أصبح نادى على الملأ، وطلب منهم تفسيرًا لرؤياه، ولكنهم عجزوا.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ (١).

إن الملك يعانى من عدم استقرار حكمه، ومن التنازع على العرش .. ويشير إلى ذلك الفتيان اللذان دخلا مع يوسف السجن؛ لأنهما قد قبض عليهما بتهمة المشاركة فى تدبير مؤامرة لقتل الملك بالسم وانتزاع العرش منه؛ ولذلك كان الملك فى أعظم غم؛ خوفًا من أن تكون الرؤيا الغريبة نذير شؤم بزوال ملكه ونجاح أعدائه فى اقتناص العرش منه.

وهنا تذكر ساقى الملك الرجل الصالح "يوسف"، الذى أوتى القدرة على تعبير الرؤى، فكانت رؤيا الملك سببًا فى انتشال يوسف من غيابة السجن، كما كانت رؤيا يوسف سببًا فى إلقائه فى غيابة الجب.

إن القرآن يقدم لنا مثلًا للملك الصالح الذى يهتم بشئون رعيته، ويرعى مصالحهم، ويحسن اختيار أعوانه الذين يدبرون أمور الحكم فى الدولة، فلم يتقاعس

---

(١) سورة يوسف: الآيتان ٤٣ -٤٤، قوله: ﴿تَعْبُرُونَ﴾ إشارة إلي أن الرؤيا تنتمى إلى عالم الغيب، الموازى لعالم الشهادة المحسوس، وأن الإنسان لا يستطيع أن يعبر بعقله إلى عالم الغيب إلا إذا حصل على الأداة التي يعبر بها، أى الوسيلة التى تحمله إلى ذلك العالم، أو بالأحرى إلى "ذلك الكتاب"، وهذه الوسيلة الصحيحة هى الوحى (الإلهام)، وهو النور الذى يقذفه الله فى قلب عبده؛ ليكشف له عن غيبه.

عن اختيار رجل دخل السجن بسبب تهمة مخلة بالشرف، عندما تبين له براءته وكفاءته: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (١).

﴿مَكِينٌ﴾: لك مكان ثابت بجوار العرش أو عند صاحب العرش. واختيار القرآن الكريم لهذا اللفظ يذكرنا بوصف جبريل عند عرش الله فى الملأ الأعلى.

﴿أَمِينٌ﴾: مُؤتمن على أسرار الملك، كما يُؤتمن جبريل على وحى الله.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

﴿حَفِيظٌ﴾: أمين شديد الحفظ لما يوضع فى يدى من ثروة وسلطة، فلا أضيع أموال الأمة، ولا أنفقها إلا فى مصارفها الصحيحة، ولا أتعسف فى استعمال السلطة الممنوحة لى، فأظلم بها عباد الله، أو أتوسل بها إلى تحصيل منافع شخصية. والثروة والسلطة هما الأمانة التى توضع فى يد صاحب المنصب أو الحاكم.

﴿عَلِيمٌ﴾: واسع عميق العلم بالوظيفة التى أطلب توليها. فصفة العلم – هنا - تعنى الكفاءة أو القوة على مهام العمل المكلف به.

هنا يقدم لنا القرآن – على لسان يوسف – الشرطين الأساسين الواجب توافرهما فيمن يتولى المناصب العامة، ونعنى بهما الأمانة والكفاءة (القوة)، أو الحفظ والعلم. ولكنه لم يقل هذا فى لغة خطابية وعظية مباشرة تناقض روح الفن وأسلوبه، بل جاء به فى سياق فخر يوسف عليه السلام بنفسه، وهو سلوك بشرى متوقع من رجل شريف أصابت سمعته سيوف الظلم، فلوثت صفحته البيضاء، فحق له أن يفخر بنفسه، وأن يدافع عنها؛ إعلانًا عن مجد الله فى الأرض.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٥.

الدرس التاسع: اجتناب الأسلوب الخطابى والوعظى:

هنا، يقدم القرآن درسًا آخر للأدباء - وهو الدرس التاسع - ونعنى به البعد عن فجاجة اللغة الخطابية أو الوعظ المباشر؛ فإن الأديب الفنان ينبغى أن يوصل رسالته عبر لغة الفن وحدها. وهذا الدرس ينبغى أن يعيه الأدباء من أصحاب المذاهب الفكرية والسياسية الذين يحاولون دومًا تسخير لغة الفن لتأييد مذاهبهم، بافتعال مشاهد، وأقوال، واختلاق حوادث لا تولد من بواطن الشخصيات ولا يقتضيها السياق.

حتى فى اللحظات التى يتوقف فيها القرآن بين المشاهد وقفة التأمل لاستخلاص العبرة، مما يفضى – لا محالة – إلى مقام الوعظ والإرشاد، فإنه يعبر عن هذا بلغة الفن أو المجاز، فضلا عن أن تلك الوقفة تؤدى عملًا فنيًّا خالصًا، هو تقسيم الرواية إلى فصول، والإعلان – بلغة الإشارة – عن تغير الزمان أو المكان.

ولنأخذ على ما نقول مثالًا؛ فقد كان قول يوسف للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (١). نهاية مرحلة من حياة البطل وقسمًا من أقسام القصة، فتطلب ذلك وقفة للتأمل، قال فيها القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (٢).

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٥. "الأرض" هنا تعنى "مصر"؛ لأن يوسف قد طلب من الملك أن يجعله وزيرًا له يتولى خزانة مصر. وفى هذا التعبير إعجاز علمى لغوى، يثبت أن المتكلم بالقرآن كان يعرف اللغة المصرية القديمة (الفرعونية) أو الهيروغليفية؛ لأن المصريين القدماء (الفراعنة) كان يسمون وطنهم مصر بأسماء تعنى كلها الأرض، فهى تاوى (الأرضان)، أو تا - مرى (أرض الأحبة أو الأرض التي تحب)، أو تاكمت (الأرض السوداء كناية عن خضرة الزرع)؛ فمصر – فى لغة أهلها القدماء – هى الأرض. وكذلك عبر عنها القرآن. انظر كتاب "من إعجاز القرآن، العلم الأعجمى فى القرآن مفسرًا "بالقرآن"، تأليف الأستاذ رءوف أبو سعدة، الجزء الثانى، ص ٧٤ -٨٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٩.

الكاف الأولى للتشبيه، والكاف الثانية لخطاب من يتلقى أو يقـرأ القـرآن، والمـشار إليه باسم الإشارة "ذا" هو المشبه به، وهو تمكين يوسف عند الله فى الملأ الأعلى، حيث له مكانة عالية بجوار العرش. والمشبه هو تمكين يوسف فى مصر التى سـماها - هنـا – الأرض؛ تنويهًا إلى عِلم المتكلم بالقرآن ﷻ باللغة المصرية القديمة، التى كانـت تـسمى مصر بالأرض، وتنبيهًا للقلوب؛ لكى تتطلع إلى مقابل الأرض – وهو الـسماء – لتنظـر إلى المشبه به وهو مكانة يوسف عند الله فى الجنة التى كنا فيها قبل أن نهـبط إلى هـذه الأرض.

ثم أتى بالوصف الذى يذكرنا بالجنة؛ حيث عبر عن سلطان يوسف فى مصر بقـوله: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾، وهو التعبير نفسه الذى وصف به سلطان المؤمنين فى الجنة: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [(١)].

ألم يكن صعود يوسف إلى مكانته عند الملك صـدقًا مـن الله بوعـده الذى وعـده إيـاه، حينمـا حدثـه بالرؤيـا فى بدايـة القـصة؟ وواصـل إقامـة التـشابه، فقـال: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. والرحمة – فى حقيقتها – هى الجنـة. ثم صعد بنا إلى هناك عبر المقارنة بين الدنيا والآخـرة، فقـال: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [(٢)] إذن، فعندما وقف القرآن بين أحداث الروايـة وقفـة التأمـل، وقدم الوعظ، صنع ذلك عبر لغة جمالية، مستعملًا المجاز، صاعدًا بالقراء مـن الأرض إلى السماء.

(٦) الشاهـد:

ولدينا – سادسًا – الشاهد من أهل امرأة العزيز الذى دخل امتحانًا عسيرًا، ولكنه اجتازه بنجاح؛ إذ استطاع أن يؤدى الأمانة التى ألقاها الله فى عنقه، فتخلى عن هـواه،

---

(١) سورة الزمر: الآية ٧٩.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٧.

ورفض المجاملة، واحتكم إلى العقل؛ لكى يدين المخطئ، ويبرئ ساحة البرىء: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (١).

(٧) خباز الملك:

ولدينا – سابعًا – خباز الملك، الذى دخل السجن مع يوسف متهمًا بوضع السم للملك فى طعامه، وقد رأى – نفسه – فى المنام يحمل خبزًا فوق رأسه، والطير تأكل منه، فأخبره يوسف أن رؤياه تعنى إدانته والحكم عليه بالموت صلبًا، فكان على هذا الرجل أن ينتظر نهايته يائسًا من النجاة.

(٨) ساقى الملك:

أما الشخصية الثامنة فهى ساقى الملك، الذى بشره يوسف بالنجاة والعودة إلى وظيفته ومكانته عند الملك .. وكان هذا الساقى هو سبب انتشال يوسف من غيابة السجن.

(٩) ولدينا بعد ذلك أحد عشر كوكبًا، هم إخوة يوسف، وقد ميز النص القرآنى ثلاثة منهم:

أولًا: من قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾. لقد كان رحيمًا، فاستحق أن يذكره القرآن فى نصه الخالد الذى يُتلى ويُقرأ إلى الأبد على مر الأزمان.

ثانيًا: الأخ الأكبر، الذى رفض مغادرة مصر بعد أن ألقى القبض على الأخ الأصغر، شقيق يوسف بتهمة سرقة الإناء الذى يشرب فيه الملك، وأصر على البقاء إلى أن يأذن له أبوه بالعودة، أو يعلن الله براءة أخيه من السرقة؛ فيتمكن من تحريره والعودة به إلى أبيه.

(١) سورة يوسف: الآيتان ٢٦ – ٢٧.

لقد تحمل مسئوليته الأخلاقية أمام الله بموجب الميثاق الذى عقدوه مع أبيهم بالمحافظة على أخيهم الأصغر، وألَّا يضيعوه كما ضيعوا يوسف من قبل: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (١).

لقد كان كبيرًا بالموقف الأخلاقى، وليس بمجرد كبر سنه، فكان جديرًا أن يُلفت القرآن إليه الأنظار؛ ليُعَلِّم الإنسان كيف يكون كبيرًا.

ثالثًا: الأخ الأصغر، بنيامين، شقيق يوسف من أمه راحيل. لقد كان مظلومًا فاستحق أن ينقذه الله على يد أخيه يوسف من بطش إخوته الآخرين ومضايقاتهم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

(١٠) مئات من الشخصيات الهامشية الصامتة:

وتبقى شخصية امرأة يعقوب التى رُمِز إليها بالقمر فى الرؤيا، وعشرات النسوة من الطبقة العليا من المجتمع اللاتى قطعن أيديهن، ثم شهدن ببراءة يوسف فى النهاية، وعشرات الرجال الذين كانوا فى القافلة السيارة، وأنقذوا يوسف من الموت فى البئر، وذهبوا به إلى سوق الرقيق: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ (٣)، والجنود الحراس ورجال الشرطة الذين يعملون فى السجن، وحاشية الملك الذين خاطبهم بقوله: "يا أيها الملأ"، والخدم الذين يعملون فى قصر الملك، والموظفون والجنود تحت إمرة يوسف عندما أصبح هو العزيز، وأحفاد يعقوب الذين

(١) سورة يوسف: الآية ٨٠.

(٢) سورة يوسف: الآية ٦٩.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٠.

جعلوا جدهم موضع سخريتهم، وأهل القرية الذين شهدوا واقعة اتهام بنيامين بالسرقة، والقافلة التى صاحبت أبناء يعقوب فى رحلتهم الأخيرة، وغيرهم.

كل هؤلاء البشر شاركوا فى صنع هذه الرواية الهائلة، التى تعد – بحق – معجزة فنية؛ إذ لم يستهلك كاتبها ﷻ سوى بضع صفحات، ومع ذلك احتوت على كل أساليب التعبير القصصى: السرد والوصف والحوار ووصف الرؤى، وتضمنت حقائق التاريخ، وقضايا العقائد والفلسفة، وكشفت عن مكنون النفوس البشرية، وقدمت عشرات المشاهد الفنية الرائعة، التى جسمت - على بضع ورقات - حقبة من التاريخ عاشها جيل من الناس.

فهل هذا فى مقدرو بشر مهما بلغت عبقريته؟!

(ح) الدرس العاشر: كيف نصور مشهداً ساخناً؟! :

وأخيرًا وليس آخرًا يعطى القرآن درسًا للأدباء من كتاب القصة والرواية: كيف يصورون مشهدًا جنسيًّا دون أن يخدشوا حياء القارئ، أو يثيروا غرائزه البهيمية، ودون أن يفقدوا – فى الوقت نفسه – صدق التعبير عن البشر. يقول القرآن المجيد: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (١).

لقد أغرته وهيأت الجو، وأفصحت عن رغبتها. وقوله على لسانها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾: تعبير عن شدة تمكن الشهوة من نفسها، ولهفتها على اللقاء، حتى أنها لا تجد متسعًا من الوقت تقول فيه "تهيأت لك"؛ فإنها لا تصبر إلى أن تنطق بهذه الكلمة الطويلة "تهيأت".

لكن يوسف استعاذ بالله، وتذكر فضل الرجل الذى رباه، وذَكَّرَ نفسه بخيبة من يخون الأمانة ويعتدى على الحرمات.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٣.

إذن فلابد من ترك الكلام إلى الفعل: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[١] .. اندفعت نحوه؛ تريد أن تضمه إليها .. واندفع نحوها حتى أوشك أن يحتضنها .. ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾؛ إذ أراه الله فى هذه اللحظة الحرجة – وقد أوشك الجسدان أن يتماسا – صورة عذاب الزناة فى الآخرة، حيث رأى رجالًا ونساء عراة تُشْوَى جلودهم فى محرقة هائلة، ولكنها تضيق بهم من كثرتهم، ويحاولون الفرار بالصعود إلى أعلى للخروج من ثقب ضيق فى أعلى المحرقة، ولكنهم ما أن يوشكوا على النفاذ من ذلك الثقب، حتى يعودوا إلى السقوط مرة أخرى.

لم تستغرق تلك الرؤية إلا طرفة عين أو أسرع، فانتفض يوسف مبتعدًا عن أنفاس المرأة الملتهبة بنار الشهوة؛ يريد الفرار من المحرقة .. أسرع نحو باب الغرفة، وأسرعت المرأة وراءه؛ تريد الإمساك به: ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ ﴾[٢]. وحينئذ وقعت المفاجأة التى لم تخطر لأحد على بال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ﴾ [٣]، الذى فُتِحَ من الخارج – بغتة – وأسرعت المرأة تلون نفسها كالشيطان: ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [٤].

لقد فزعت من أن يأمر زوجها بقتل يوسف، فأسرعت توحى إليه بالعقاب الذى يحفظ حياة معشوقها، فاقترحت السجن، ثم أدركت بسرعة أن السجن يعنى الفراق، فاكتفت بضرب مبرح يؤلمه عقابًا له على إهانة أنوثتها.

فى خضم هذه الأحداث المتدافعة المحتدمة كموج البحر الهائج، أوقف القرآن السياق على حين فجأة، بجملة اعتراضية، أشار بها إلى حضور النبى ﷺ شاهدًا لما

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ٥٩.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٥.

(٤) سورة يوسف: الآية ٢٥.

يحدث بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ (١)، يشير إلى برهان الله الذى أراه ليوسف - باطلاعه على عقاب الزناة المسطور فى "ذلك الكتاب" - معتبرًا هذا الصرف صورة أو مثلًا يعبر عن إرادة الله فى إبعاد الخيانة ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ والزنا ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ عن يوسف، بموجب أنه واحد من عباد الله، الذين طهرهم من الخطايا، واستخلصهم – من بين خلقه – لمعرفته.

كأنه يقول "لقد صنعنا ذلك مثلًا مضروبًا على عنايتنا بيوسف؛ باعتباره أحد العباد الذين اصطفاهم الله وهيأهم لمعرفته" .. وفى هذه الجملة الاعتراضية التى أوقفت سياق الأحداث إشارة إلى وجود قلب محمد ﷺ شاهدًا على كل شىء. وفى الكلام بضمير الجمع الحاضر "نحن" تنبيه للقلوب على أنه ﷺ – فى حقيقته – روح الله الذى كان به كل شىء.

وفى ذلك برهان ساطع على أن القرآن كلام الله ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (٢).

* * *

(١) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٢) سورة النمل: الآية ٦.

الفصل السابع

بناء النص

(حكمة البناء .. بناء الحكمة)

(أ) وهم الوحدة الموضوعية فى سور القرآن :

إذا كانت الفاتحة بالنسبة إلى القرآن هى بمثابة مقدمة الكتاب، التى تحتوى على مضمونه، وتشير - بصورة مركزة - إلى الموضوعات التى سوف يتناولها فى كامل نصه بعدها، فإن بداية النص القرآنى المجموع بين دفتى المصحف الشريف هى الحروف الثلاثة المقطعة، والتى ينبغى أن تقرأ منفصلة عن بعضها غير مضمومة ولا مشتبكة فى تكوين كلمات: ﴿الٓمٓ﴾ (ألف .. لام .. ميم) [(١)].

وهى بداية مدهشة تلفت الأنظار، وتعيد إلى الأذهان ذكرى بداية تعلم اللغة، عندما كان الإنسان طفلًا صغيرًا، دفع به أهله إلى المدرسة الأولية ليتعلم القراءة والكتابة؛ من أجل أن يشق طريقه بعد ذلك فى تحصيل العلم، فكانت الدروس الأولى التى يتلقاها الطفل – حينذاك – هى حروف الأبجدية، أو أصوات اللغة التى ينبغى أن يتعلم كيف ينطقها كما يسمعها من معلمه، وكيف يكتبها أو يرسمها خطوطًا على الورق؛ لكى يتمكن بعد ذلك من قراءة وكتابة كل الكلمات التى يسجل بها الإنسان علمه فى الكتب.

---

(١) سورة البقرة: الآية الأولى.

والسؤال الأول الذى يتبادر إلى عقل قارئ القرآن عندما يبدأ فى مطالعة نصه هو: "ماذا تعنى هذه الحروف؟، أو إلام تشير؟"

وتأتى الإجابة للقارئ المتدبر فى الآيـة التاليـة مباشرة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (١)، والمعنى أن هـذه الحـروف المنفـصلة تـشير إلى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، الذى مـن المحال أن يرتاب أو يشك فيه أحد، والذى كشف الله عنه بنزول القرآن؛ من أجل أن يهدى المتقين، أى يرشد الذين يريدون حمايـة أنفـسهم مـن عـذاب الله بطاعتـه، إلى الطريق المستقيم، الذى يتمكنون بالسير فيه من النجاة من عذاب الله، والوصـول إلى الجنة حيث رحمته الصافية الباقية التى لا تزول.

﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ - إذن – المشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، هـو الكتـاب المبـين الذى سجل الله فيه محتويات علمه، أعنى دَوَّنَ فيـه نـسخة مـن اللـوح المحفـوظ، ولـيس القرآن كما توهم المفسرون قديمًا وحديثًا؛ لأنه لا يشار إلى القرآن – فى القـرآن – إلَّا باسم الإشارة "هذا" - كما سبق أن بينا – لأن القرآن قريـب بـين أيـدينا، وقـد قوبـل بالريب من الكافرين، فلـيس – قطعًـا – هـو المقـصود بقـوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، الذى وصف بأنه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (٢)!!.

وبهذه البداية المدهشة يكون القرآن قد بَـيَّنَ – منـذ اللحظـة الأولى – للنـاس أصله، أى المصدر الذى خرج منه، فهو قد جاءهم من كتاب العلم الإلهى المشار إليه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فهو – إذن – ليس من تأليف محمد ﷺ ولا إبداعه.

ولما كان علم الله هـو أصـل كل علـم بـشرى؛ لأنـه ﷻ هـو الذى ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(٣)، وفى المقابل فإن حروف الأبجدية هى أصل كل علم بـشرى، ومـن أجـل هـذه

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢.

(٢) راجع كتابنا "القرآن معجزة كل العصور"، ص ٣٤ - ٣٨.

(٣) سورة العلق: الآية ٥.

المشابهة أو هذا التماثل بين علم الله وحـروف الأبجديـة، جـاءت الإشـارة بـالحروف المنفصلة فى أول السور إلى "ذلك الكتاب" الحاوى لعلم الله.

وقد بَيّنَ – ثانيًا – أنه نزل كاشفًا عن علم الله المكتوب فى "ذلك الكتاب"؛ ومن ثم فإن القرآن المجموع بين دفتى المصحف يمثل نسخة أرضية من كتاب العلـم الإلـهى السماوى، أتاحها الله للبشر من خلال الوحى إلى نبيه الأمى ﷺ؛ ليكـون بمثابـة مـرآة يتجلى على صفحاته المصقولة صورة من علم الله.

هكذا نفهم أن القرآن لابد أن يحتوى على ما لا يحصى من حقائق العلم فى حقـول (آفاق) المعرفة الإنسانية بالغة الاتساع، شديدة التنوع.

وقد بَيَّنا – من قبل – أن القرآن هو تجلى الله فى الدنيـا، أى هـو الكتـاب المكلـف بالتعريف بالله، ويفضى بنا هذا الفهم إلى إسقاط وهم أو أكذوبـة مـا سـمى بالوحـدة الموضوعية لسور القرآن.

فقد عجز المستشرقون – قـديمًا وحـديثًا – عـن فهـم القـرآن؛ بـسبب مـوقفهم الفكرى والدينى من الإسلام والثقافـة العربيـة، ولأنهـم كانـوا ينظـرون إلى القـرآن الكريم من خـلال رؤيـتهم للكتـاب المقـدس عنـدهم، أى التـوراة وكتـب الأنبيـاء والأناجيل.

وأسفار موسى وكتب الأنبياء - التى يضمها الكتاب المقدس فى صورته الحـاضرة - يمكن تصنيفها – بكل وضوح – تحت عنوان "الملحمة الشعبية"؛ فإنها تقص حيـاة شعب بنى إسرائيل وتاريخ وجوده على هذه الأرض، وصراعه مع الشعوب الأخرى مـن أجل السيادة والسيطرة .. وهى قصة تاريخيـة مجهولـة المؤلـف، أو بـالأحرى شـارك فى تأليفها وصياغتها جم غفير لا يحصى من البشر.

فالأسفار لا تعدو – فى نظر العقل – سـوى وثـائق تاريخيـة، تتعلـق بحقبـة زمنيـة طويلة، تخص شعبًا من شعوب الأرض، أو أمة من الأمم، هى بنو إسرائيل، أو اليهود.

وإنها - فضلًا عن ذلك - تعد وثائق مشكوك فى صحتها، ولا يمكن الاعتماد عليها وحدها من أجل بناء معرفة تاريخية صحيحة جديرة بهذا الاسم؛ لكنها على كل حال تعد - من حيث المضمون - ملحمة شعبية، فالموضوع الأساسى فيها هو تاريخ بنى إسرائيل كما كتبوه هم أنفسهم.

والأناجيل – كذلك – ليست سوى ترجمة لحياة الرجل المسمى "يسوع الناصرى"، والذى لُقِّب فى التاريخ باسم السيد المسيح .. هذا هو مضمون الأناجيل، كما يراه العقل، بغض النظر عن أى موقف دينى من تلك القصص التى جاء ذكرها على الصفحات التى دونت عليها الأسفار والإصحاحات.

والخلاصة أنه يمكن للعقل البشرى أن يجد - ببساطة ووضوح - وحدة موضوعية فى أسفار التوراة وكتب الأنبياء والأناجيل. وبهذه الرؤية العقلية نظر المستشرقون إلى القرآن الكريم، فلم يجدوا فيه الوحدة الموضوعية التى توقعوا أن تطالعهم على صفحات هذا الكتاب المقدس.

لقد حيرهم أن القرآن يَتَنقَّل فى سياقه الموسيقى المجازى البديع من موضوع إلى موضوع، غير عابئ بما أطلقوا عليه الوحدة الموضوعية؛ فإنه يذكر وقائع تاريخية، ثم ينساب إلى الحاضر، فيصف مشاهد، أو يلقى أوامر ونواه، ثم ينطلق إلى المستقبل، حاكيًا عن أشياء لم تخطر لأحد على بال، ثم يغوص فى بطون النساء، مصورًا ما يحدث فى الأرحام، ثم يصعد إلى السماء راسمًا بالكلمات كيف يتكون السحاب وينزل المطر، أو يغوص فى ظلمات الأرض والبحار، واصفًا ما فيها من مخلوقات.

هكذا لم تستطع عقولهم أن تمسك بالموضوع الذى يتحدث عنه القرآن، فاتهموه بالفوضى العقلية، متوهمين أنه مجرد مشاهد ومقاطع لغوية جمعت كيفما اتفق، لا رابط بينها، وظنوا أن الخطأ فى ذلك إنما يرجع إلى عمل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، الذين ضموا أجزاء القرآن – التى نزلت متفرقة (منجمة) – على عجل، بعد وفاة النبى ﷺ، غير منتبهين – على حد زعمهم – إلى الترابط العقلى أو المنطقى الذى يجب توافره بين المقطوعات المتجاورة!!

ولقد حاول بعض علمائنا المعاصرين – بحسن نية – الدفاع عن القـرآن الكـريم، ودفع هذا الاتهام الخاطئ عنه، بزعم وجود وحدة موضوعية فى سـور القـرآن الكـريم، كما فعل الأستاذ الدكتور/ محمد عبـد الله دراز فى كتابـه "النبـأ العظـيم"؛ إذ حـاول - بافتعال شديد – إيجاد، أو بالأحرى اختراع، وحدة موضوعية لسورة البقرة، زاعمًا أنها تتكون من مقدمة وأربعة موضـوعات أو مقاصـد وخاتمـة[1]. وهى محـاولات – رغـم حسن النية والاجتهاد – خاطئة تمامًا؛ إذ لم تنتبه - بالقدر الكافى - إلى ماهيـة النـص القرآنى، وتميزه وسموه عن كل مـا عـداه مـن نـصوص بـشرية يقـوم بتأليفهـا أنـاس معتمدون على علومهم الإنسانية المحدودة. فإذا كان القرآن قـد جـاء يكـشف عـن علم الله، ويُعَرِّفُ الناس به ﷻ، فكيف يمكـن وضـع مـضمونه أو محتـواه العلـمى فى إطار تصنعه عقول البشر؟!

(ب) سورة الكوثر :

ولنضرب على ذلك مثلًا بأقصر سورة فى القرآن: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾.

هذه السورة بالغة القصر تتكون من ثلاث آيات أو ثلاث جمل قصيرة، ورغم ذلـك فإنها تتضمن:

(١) الكشف عن الغيب المخبوء وراء جدار الزمن؛ إذ تبـين أن النـبى محمـد ﷺ – المخاطب بهذا القرآن – قد نال من الله نهر الحياة، المنبعـث مـن قلـب الجنـة، والذى يصب ماءه فى الحوض الذى يُبْنى على الأرض، عند بدء أهوال القيامة بعد البعث مـن القبور، حيث يشتد بالناس العطش، ويصيرون فى أمس حاجة إلى شربة ماء تنقـذهم من الهلاك، وتعينهم على مواجهة الأهوال، فينـدفعون إلى الحـوض الذى يمتلـئ بمـاء الكوثر، فإن نجحوا فى الوصول إليه، ونالوا من يد النبى ﷺ صاحب الحوض شربة مـاء،

---

(١) انظر كتابنا "النبأ العظيم"، ص ١٦٣ وما بعدها.

ظفروا بالحياة الأبدية، وتمكنوا من البقاء، وخوض أهوال القيامة حتى يصلوا إلى الجنة – بنجاحهم فى المرور على الصراط – حيث يظفرون بالرحمة الصافية الباقية والنعيم المقيم الذى لا يزول.

(٢) وإذا كان "الكوثر" هو نهر الحياة، أى الماء الحاوى للروح واهب الحياة، فالمعنى المشار إليه بإعطاء الكوثر، هو أن النبى ﷺ – فى الحقيقة – هو "روح الله"، الذى ينفخ الله منه سر الحياة فى الكائنات.

فإذا كان الكافرون يرددون أن محمدًا الإنسان قد حُرِم من البركة، إذ مات جميع أبنائه الذكور وهم أطفال صغار؛ ومن ثم فقد انتظر الكافرون وتمنوا أن يضيع ذكر محمد وقرآنه فى بحر الزمن، وأن ينساه الناس بعد حين كما نسوا غيره من الشعراء .. ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ (١)، فإن القرآن يرد عليهم بأنه ﷺ هو أصل البركة، أى سر الحياة؛ لأنه ﷺ هو روح الله الذى يفيض بالحياة على كل المخلوقات.

وهذا هو معنى إعطائه الكوثر.

فإذا كان الكافر من أهل الجاهلية - الذى سخر من النبى ﷺ، وعَيَّره بموت أطفاله، وتنبأ له بضياع الذكر - يتفاخر بأنه والد لعدد وفير من الذكور، فإن القرآن يرد عليه أبلغ رد حينما يخبرنا - بآية الكوثر- أن محمدًا هو والد كل المخلوقات – إن صح التعبير – وإنه ﷺ هو سر حياة كل شىء فى السماوات والأرض، فكيف يضيع ذكره أو ينسى أثره؟!

وإنه ﷺ هو أب لكل المؤمنين، بمعنى أنه أبوهم الروحى وليس الجسدى، وهذا هو المعنى الحقيقى المشار إليه فى الشريعة، بجعل نساء النبى ﷺ أمهات المؤمنين ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ (٢).

---

(١) سورة الطور: الآية ٣٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٣) وتعطى هذه الحقيقة الواردة فى الآية الأولى من السورة ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، والتى يغفل عنها أكثر الناس – التمهيد الإيمانى للأمر الإلهى الوارد فى الآية الثانية: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾؛ لأنه إذا كان الله قد أعطاك - يا أيها النبى - ما لم يعط أحدًا من مخلوقاته على الإطلاق، فواجبك أن تشكر نعمة ربك بإخلاص العبادة له، فتصلى له وحده، وتنحر ذبائحك باسمه؛ ابتغاء مرضاته والقرب منه. هاهنا انتقلنا - فى يسر - من كشف غيب يخفى على العقول، إلى أمر دينى أو شرعى، يفرض الصلاة والذبح، ويعظ بإخلاص العبادة لله؛ تعبيرًا عن شكر نعمته.

وقد ربط بين الآيتين بحرف "الفاء" – الوارد فى قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ – الذى يفيد إقامة علاقة السبب بالنتيجة، أو البذرة بالثمرة بين الآيتين، فأسس الأمر الشرعى الظاهر بالصلاة والنحر على تلك الحقيقة الباطنة، التى أعطت محمدًا ﷺ الكوثر، أو جعلته أصلًا للحياة. إذن، فثمة رابطة حقيقية بين الآيتين، لكنها رابطة تعلو وتسمو على ما يسمى "بالوحدة الموضوعية"، التى تريد إخضاع العلم الإلهى لعقول البشر!!

(٤) وقد استفاد الفقهاء من هذه الآية الثانية حكمًا شرعيًّا، يوجب أن تسبق الصلاة الذبح فى يوم عيد التضحية، فقالوا ينبغى على المسلم أن يؤدى صلاة العيد أولًا، ثم يذهب لنحر أضحيته كما كان يفعل الرسول ﷺ.

(٥) ثم تنتقل السورة فى الآية الثالثة والأخيرة إلى ذكر واقعة تاريخية، وهى قيام أحد المشركين بسب رسول الله ﷺ، وتعييره بأنه أبتر، لا يعيش له أولاد ذكور يحملون اسمه عبر الأجيال؛ ومن ثم فلن يبقى له ذكر فى قومه.

وتعطى الآية نبوءة خطيرة، وهى أن ذلك الرجل الكافر المعير رسول الله ﷺ سيموت جميع أبنائه الذكور فى حياته، ثم يلقى حتفه وحيدًا أبتر بلا أولاد يحملون اسمه.

وأرى أنه أبو عامر بن صيفى – الملقب بالراهب – والذى أسلفنا الحديث عنه.

وقد اختلف الناس فى تحديد شخصية ذلك الرجل تحقيقًا للوعد الإلهى بضياع ذكره فى قومه!!

وهكذا تحققت هذه النبوءة فى حياة النبى ﷺ، وإلا لكان الكفار من قريش قد اتخذوا هذه الآية دليلًا على خطأ القرآن ورجمه بما لا يعلم. فانظر كيف كان المتكلم بالقرآن واثقًا من علمه، لا يخشى أبدًا أن تأتى الأحداث بخلاف ما يقول!!

ههنا – فى الآية الثالثة – يتحدث القرآن عن المستقبل القريب، الذى كان لم يزل فى رحم الغيب – عند نزول الآية – دون أن يخشى الخطأ وإعطاء الكافرين دليلًا على صحة تكذيبهم بنبوة محمد ﷺ أو ألوهية القرآن!!

ولا شك أن الآيات الثلاث التى تتكون منها السورة تشكل معًا كيانًا واحدًا، وترتبط فيما بينها بارتباط وثيق عميق دقيق. ولكنه أبعد وأعلى عما يشار إليه "بالوحدة الموضوعية" كما يفهمها العقل البشرى.

(ج) الذكر الحكيم:

ولا شك فى أن اتهام القرآن بتلفيق الأجزاء، وغياب النظام فى بنائه اتهام قديم، قدمه كفار قريش فى هجومهم على القرآن، عندما قالوا عنه: إنه "أضغاث أحلام"، يقصدون أنه مجموعة من المشاهد تراءت للنبى عند الوحى، كما تتراءى الأحلام للنائم، فلما خرج من حال الوحى واسترد عقله وإرادته، أخذ يحكيها بالألفاظ، ضامًّا أشتاتها المبعثرة كيفما اتفق!!

ولقد تبين لنا – من خلال ما قدمنا – بعض الروابط العميقة والوثيقة والدقيقة التى تجمع بين حروف القرآن، وألفاظه وجمله وآياته؛ لتجعل من سوره أعضاء حية فى جسم كائن بالغ الجمال والجلال، يفيض بالرحمة والقوة، تتشابه (تتآلف وتتجانس) أجزاؤه مع بعضها؛ لتجعل منه ذاتًا لا تتكرر، أى كتابًا لا مثيل له، فلم يسبقه ولم يلحقه شبيه ولا نظير؛ مما يقوض أساس ذلك الاتهام الخاطئ الظالم، الذى استند إلى

الرفض والعناد، وليس إلى التفكير والتدبر فى النص بروح البحث عن الحقيقة التى يقبلها العقل والوجدان.

والقارئ المتدبر المتذوق للنص القرآنى البديع، يجد أن الحروف المقطعة التى استهل بها القرآن بعض سوره، تدعونا – بلغة الإشارة – إلى التذكر؛ لأنها تعيد إلى نفوسنا ذكريات تعلم الدروس الأولى فى الطفولة، ولأنها تشير – كما بينا – إلى كتاب العلم الإلهى القديم الذى أنزله الله إلى الناس عندما كانت السماء لهم بناءً.

هكذا نفهم أن دعوة الناس إلى التذكر، أى إسقاط حجاب النسيان الذى هوى بهم إلى الغفلة والضلال؛ إذ غَيَّبَ عنهم ما كانوا يعلمونه قبل هبوطهم إلى هذه الحياة الدنيا .. أقول الدعوة إلى التذكر هى رسالة الله التى حملها هذا القرآن، وهى دعوة قد تركت أثرها على بناء النص القرآنى، الذى ارتبطت آياته مع بعضها بوشيجة تداعى المعانى، بحيث تفضى الآية وتمهد لأختها التى تأتى بعدها فى سياق النص الذى ينساب سلسًا، أو يندفع هادرًا كموج البحر، دون أن يوقفه حاجز، أو يجبره عائق على تغيير مساره؛ فإن المتكلم بالقرآن يبدو – لوجدان القارئ المتذوق – حرًّا طليقًا، لا يشعر بأى اضطرار أو اضطراب، رغم تنقله بين موضوعات شتى، إذا نظرنا إلى الكلام بعين العقل الموضوعى ضيق الأفق، الذى يقوم بتصنيف الأشياء إلى موضوعات طبقًا لأغراضه.

ولنتأمل – الآن – فقط هذا المثال.

ففى سياق سورة "المؤمنون" يصف بعض نعم الله على الناس، وينتهى بقوله: ﴿ **وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ** ﴾ [1]، فينتقل بعد هذا مباشرة إلى قوله: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ [2].

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٢٢.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٢٣.

فكان ذكر الفلك (السفن) داعيًا إلى تذكر نبى الله نوح ﷺ، الذى كان أول من صنع السفن بوحى من الله، واستطاع – بإذن الله – إنقاذ البشرية كلها من الإبادة بالغرق فى الطوفان الذى عاقب الله به الكافرين؛ إذ حمل المؤمنين معه فى "الفلك المشحون".

هكذا يرشد الله قارئ القرآن إلى تذكر ما كان.

يقول الله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ (١).

﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾: سفينة نوح التى حملت المؤمنين به وأنقذتهم، والبشرية كلها من بعدهم، من الهلاك. والخطاب فى قوله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ موجه إلى جميع الناس الذين أنزل إليهم هذا القرآن.

والمقصود تنبيه قلوبنا إلى أننا كنا موجودين – هنالك – على سفينة نوح فى أصلاب آبائنا الذين آمنوا بنوح ﷺ، وركبوا معه فى الفلك المشحون بالمخلوقات التى كتب الله لها النجاة، من الهلاك فى غضب الله الذى عم وجه الأرض بطغيان الماء.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ (٢).

والذرية كانت محمولة، أو بالأحرى مدفونة فى الأصلاب، لم تولد بعد من الأرحام، فكان ذلك آية على الحياة بعد الموت؛ لأن من يوجد قبل أن يولد، من المحتوم أن يبعث بعد أن يموت، فلا شىء يُعدَم أو يضيع، ولكنه ينتقل بين الحضور والغياب متحولًا فى الصور.

إذن لقد كنا – نحن المخاطبين بهذا القرآن – هناك على سفينة نوح الجارية، حيث أخذ الله الميثاق من نوح والنبيين والمؤمنين بهم من الأمم المحمولة فى الأصلاب، كما

---

(١) سورة الحاقة: الآية ١١.

(٢) سورة يس: الآية ٤١.

ذَكَّرَنا الله بذلك من خلال وحيه إلى نبيه محمد ﷺ بالقرآن بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾(١).

فذلك الميثاق كان على سفينة نوح الجارية على الماء؛ لتنقذ البشرية من الهلاك، وما جئنا إلى هذه الحياة الدنيا بالولادة من الأرحام إلا لنُمتحَن: هل سنؤدى ما علينا بموجب ذلك الميثاق أم لا؟ ولذلك قال: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ (٢).

﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾: المؤمنين.

﴿صِدۡقِهِمۡ﴾: إيمانهم.

ولقد ذَكَّرَنَا الله بذلك الميثاق الذى أخذه علينا ونحن محمولون فى أصلاب الذين آمنوا مع نوح على السفينة صراحة بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (٣).

﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾: كلمة الله التى أُنزلت عليكم، وهى القرآن الكريم.

إذن لقد سمعنا القرآن، ونحن على سفينة نوح محمولين فى الأصلاب. وأُخِذَ من الذين أقروا بالسمع وأعلنوا الطاعة الميثاق، أما الذين غفلوا عن القرآن، وتشاغلوا عنه، وأنكروا السمع رغم نفاذ القرآن إليهم، فلم يؤخذ منهم الميثاق، وهؤلاء هم الكافرون.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٧.

ثم جاءت حياة الابتلاء فى هذه الدنيا؛ ليثبت المؤمنون صدقهم بالوفاء بالعهد، وليعلن المنافقون عن نقضهم الميثاق: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (١).

فعندما يأتى هذا القرآن – الآن فى هذه الحياة الدنيا – يحدثنا عن سفينة نوح، فإنه يريد منا أن نتذكر بها ميثاقنا مع الله الذى عقدناه هناك، فهو يجعل من ذكر السفينة وسيلة لتذكيرنا بما كان، كما بَيَّنَ هذا بقوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ (٢).

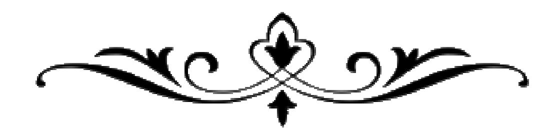
﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾: أذن تستطيع أن تلتقط المعنى من الكلام وتقتنص المغزى المقصود.

انظر كيف لفت الانتباه إلى ضرورة الإنصات إلى هذا القرآن؛ للظفر بتذكر الحقيقة التى كنا قد أدركناها هناك.

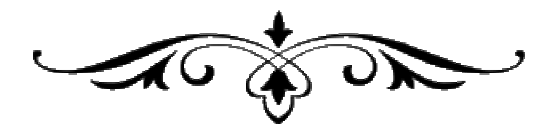
وقد وصف الله ﷻ القرآن الكريم، فقال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٣)، وحدد رسالته فى تذكير الناس، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (٤).

* * *

(١) سورة الحديد: الآية ٨.
(٢) سورة الحاقة: الآية ١٢.
(٣) سورة ص: الآية ٤٩.
(٤) سورة ص: الآية ٨٧، ٨٨.



خاتمة



خاتمـــة

كان الهدف المباشر الباعث على تأليف هذا الكتاب هو بيان مفهوم الجمال والفـن كما يتبدى للقارئ المتدبر للقرآن الكريم، وأعنى بهـذا وضـع أسـاس لرؤيـة فكريـة (فلسفية) للجمال والفن، تستند إلى فهم متذوق للقرآن الكريم، ثم تطبيق هذا الفهم على النص القرآنى البديع؛ باعتباره مثلًا أعلى للجمال الذى عرفه الإنـسان فى ميـدان التعبير باللغة العربية.

وقد اتضح لنا – خلال الدراسـة – أن القـرآن الكـريم، يـشكل - بكامـل نـصه المجموع بين دفتى المصحف الشريف - كائنًا حيًّا يفيض بالجمال والجلال، وأنه كتاب فريد مجيد، لا يشبه شيئًا مما كتبـه البـشر، ولا يـشبهه شىء؛ ولذلـك كان مـن الخطـأ العلمى النظر إليه من خلال رؤيتنا لغيره من الكتب أو المؤلفات البـشرية، الـتى قـد تشتبه – ظاهرًا – معه فى الشكل أو المضمون.

وقد تجلى لنا أن القران الكريم يتخذ من اللغة المجازية أو الصور الفنية البلاغيـة مَعْبَرًا لنقل الحقيقة؛ نظرًا لنقص أو عجز قدرة العقل على الإدراك، ومن ثم فـإن مجـاز القرآن يشير - أولًا - إلى حقائق العلم التى توصل الإنـسان إلى اكتـشافها مـع تقـدم معرفته عبر حركته فى الزمن، سواء على مستوى الفرد أو الجماعة البشرية كلها.

كما تبين لنا - ثانيًا - أن صور القرآن الفنية، تشير إلى حقائق الغيب الـتى نـسيها الإنسان وغفل عنها، بدخوله فى دائرة الابتلاء، التى تبدأ بالولادة من الـرحم، وتنـتهى بالموت وعودة الجسد إلى التراب.

وسنضرب مثالًا بحقيقة واحدة من تلك الحقائق الغائبة عن العقل أو المنسية، وهى حقيقة نشأة الإنسان قديمًا من تربة الأرض، كما تنبت الأشجار، تلك الحقيقة التى تضافرت صور القرآن الجمالية (البلاغية) للتذكير بها.

ولذلك تلوح لنا تلك الحقيقة من وراء غلاف عدة صور بلاغية كثيرة، تتناثر فى فضاء النص القرآنى مثل النجوم فى السماء، على نحو محال أن يخطر على عقل إنسان.

انظر مثلًا إلى قوله: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [1]، الذى شبه المرأة بالأرض القابلة للزراعة؛ ومن ثم فقد شبه الإنسان بالنبات الذى ينشأ من التربة، أى بالشجرة التى تخرج من الأرض. وفى هذا التعبير القرآنى – أيضًا – إشارة إلى حقيقة علمية، تتعلق بانغراس النطفة فى جدار الرحم كما تنغرس البذرة فى التربة.

ثم انظر إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ [2]، الذى شبه الأمم التى أهلكها الله وأبادها من الأرض بالحقول والبساتين التى حُصِدَت ثمارها، فأشار إلى الحقيقة نفسها، أعنى نشأة الإنسان من تربة الأرض؛ إذ شبه البشر بالأشجار.

ولكن جاءت الصورة الجمالية (البلاغية)، التى تُلَوِّح بتلك الحقيقة فى سياق يختلف تمامًا عن سياق الصورة الأولى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾؛ لأنه فى آية سورة البقرة المدنية كان يتحدث عن حكم شرعى، يتعلق بإباحة وتنظيم جماع الرجل والمرأة، بينما فى آية سورة هود المكية، كان يتحدث فى مقام الوعظ والإرشاد، وتأكيد صحة الوحى أو صدق النبى ﷺ.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٣.

(٢) سورة هود: الآية ١٠٠.

ثم انظر إلى قوله: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴾ (١)، الذى يصف العذاب الذى أنزله الله بثمود قوم النبى صالح عليه السلام، لما تمردوا على حكم الله، وعقروا الناقة التى أرسلها الله لهم آية. إنه يشبه الكافرين – بعد هلاكهم – بالحشائش الجافة الممزقة، التى يجمعها الفلاح أو الراعى ليقدمها طعامًا إلى أنعامه ومواشيه المحبوسة فى الحظيرة.

انظر لقد شبه الإنسان – مرة أخرى – بالنبات، وأعاد إلى الأذهان الحقيقة نفسها عبر الصورة البلاغية الجديدة التى يخاطب بها الوجدان. إنه يشير إلى الحقيقة نفسها فى مقام يصف فيه هلاك الكافرين المكذبين بوحى الله.

وفى هذا التعبير القرآنى المجازى تلويح لطيف إلى حقيقة أن الدواب تعد مخازن للروح، سر الحياة السارى فى كل الكائنات؛ فإنها مستودعات للآثار الباقية من الأنفس البشرية، التى ماتت وعادت إلى "ذلك الكتاب"؛ إذ إن بقايا جسد الإنسان فى التشبيه القرآنى ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ قد صارت بناء لأجساد الدواب.

ثم انظر إلى قوله: ﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾ (٢)، الذى يشبه حال جنود أبرهة - الذين أتوا مكة من أجل أن يهدموا الكعبة، فأضل الله سعيهم: ﴿ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ ﴾ (٣)، يشبههم بعد هلاكهم بأوراق النباتات التى أُكِلَت، ولم يتبق منها إلا أجزاء ممزقة مشوهة مبعثرة على الأرض.

هاهنا نجد أنفسنا – مرة أخرى – أما الحقيقة نفسها، تطالعنا من وراء صورة بلاغية جديدة، تشرق علينا من أفق حدث تاريخى، صاحب ميلاد هذا النبى المخاطب بهذا القرآن. وأعتقد أن هذه الأمثلة الرائعة لصور القرآن هى أبلغ رد على

(١) سورة القمر: الآية ٣١.
(٢) سورة الفيل: الآية ٥.
(٣) سورة الفيل: الآيتان ٣، ٤.

من زعموا – قديمًا وحديثًا – أن القرآن مجرد (أضغاث أحلام)، أو أنه (قول البشر)، فلا يبقى فى قلب إنسان صحيح العقل سليم الوجدان ظِلٌّ من شك فى أن القرآن هو كلام "الرحمن".

ويفضى بنا هذا الفهم إلى الإقرار بعجزنا عن الإحاطة بجمال القرآن، واستحالة وصفه أو تقديره حق قدره، إلا إذ كنا قادرين على الوصول إلى كل ما فيه من علم الله، وهى غاية – كما ترى أخى القارئ – تبقى بعيدة المنال، بل هى المحال!!

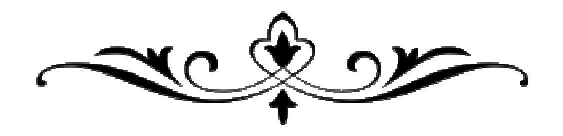
﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [2].

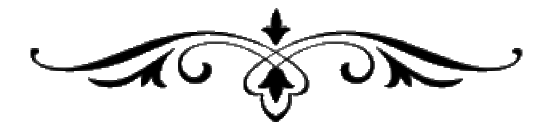
صدق الله العظيم

(١) سورة يونس: الآية ٣٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٥٣.



المراجع



المراجـــع

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير القرطبى المسمى "الجامع لأحكام القـرآن"، لأبى عبـد الله محمـد بـن أحمـد الأنصارى القرطبى، طبعة دار الشعب، القاهرة.

٣- صفوة التفاسير، تأليف: محمد على الصابونى، دار القران الكـريم بـيروت، الطبعـة الرابعة ١٤٠٢هـ= ١٩٨١ م.

٤- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف: لجنة من العلماء، بإشراف مجمع البحـوث الإسلامية بالأزهر، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ= ١٩٧٣م.

٥- مختصر تفسير ابن كثير، تأليف: محمد على الصابونى، دار القرآن الكريم بيروت.

٦- مدخل إلى القرآن الكريم، تأليف: الدكتور/ محمد عبد الله دراز، دار القلـم لنـشر والتوزيع، الطبعة السابعة ١٤٠٢هـ= ١٩٨١م.

٧- النبأ العظيم - نظرات جديدة فى القرآن، تأليف: الدكتـور / محمـد عبـد الله دراز، دار القلم، الطبعة الثامنة ١٤١٦ه = ١٩٩٦م.

٨- التصوير الفنى فى القرآن، تأليف: الأسـتاذ/ سـيد قطـب، دار الـشروق، القـاهرة، الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٣هـ= ١٩٩٣م.

٩- نحو فقه جديد، للأستاذ/ جمال البنا، الجزء الأول: منطلقات ومفاهيم فهم الخطـاب القرآنى، دار الفكر الإسلامى، القاهرة.

١٠- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، تأليف: الأسـتاذ/ مـصطفى صـادق الـرافعى، دار الفكر العربى، الطبعة الثامنة.

١١- نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن، تأليف: توحيـد الـزهيرى، دار القلـم، ٣٦ ش قصر العينى القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٨١هـ= ١٩٩٨م.

١٢- القرآن معجزة كل العصور، تأليف: توحيد الزهيرى، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ= ٢٠٠١م.

١٣- مدارج السالكين بين منازل وإياك نعبد وإياك نستعين (شرح منازل السائرين إلى رب العالمين)، تأليف الإمام ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة.

١٤- من إعجاز القرآن فى أعجمى القرآن، العلم الأعجمى فى القرآن مفسرًا بالقرآن، تأليف: الأستاذ / رءوف أبو سعدة، دار الهلال، القاهرة.

١٥- الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة، تأليف: توحيد الزهيرى، مكتبة الدار العربية للكتاب، مدينة نصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

١٦- مشكلة الفن، تأليف: الدكتور/ زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة.

١٧- فلسفة الفن فى الفكر المعاصر، تأليف: الدكتور/ زكريا إبراهيم، مكتبة مصر القاهرة.

١٨- معجزات القرآن، تأليف: الدكتور/ شوقى ضيف، دار المعارف، القاهرة.

١٩ – لسان العرب، لابن منظور، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

* * *

الكاتــب فى سطــور

* **توحيد عبد الفتاح حواش الزهيرى.**

* تاريخ الميلاد : ١٦ فبراير ١٩٥٣م.

* العمل : طبيب.

* العنوان : جمهورية مصر العربية، محافظـة القليوبيـة، طـوخ، ١٩ شـارع الطريـق السريع أمام نقطة مرور طوخ.

تليفون ٢٤٦١٩٢٦/ ٠١٣، موبايل ٠١٢٨٣٢٢٤١٢٥

* عضو عامل باتحاد كتاب مصر.

* المؤلفات المنشورة:

١- كلمة من الله: رواية تاريخية تتناول قصة المسيح عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام) فى سياق رؤية شاملة للعصر الذى عاش فيه، تطلب من دار القلـم ٣٦ شارع القصر العينى، شقة رقم ٤ الدور الثانى، تليفون ٧٩٥١١٠٥ / ٠٢

٢- نحو فلسفة إسلامية للجمال والفن، دار القلم، القاهرة ١٩٩٨م.

٣- القرآن معجزة كل العصور، مدخل إلى فهم النص القرآنى، دار الشعب، القاهرة ٢٠٠١م.

٤- المرضى فى رمضان .. ماذا يأكلون ومتى يصومون؟، كتاب الـشعب الطـبى، دار الشعب، القاهرة ١٥ نوفمبر ٢٠٠٠ م.

٥- الماء فى القرآن والسنة والعلوم الحديثة، مقالات فى التفسير، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، نوفمبر ٢٠٠٣م.

٦- التحديات التى تواجه العالم الإسلامى، دار الجميل للنشر والتوزيع والإعلام، القاهرة، ٢٠٠٣م = ١٤٢٤هـ.

٧- لمحات من حياة نبى الرحمة، دراسات إسلامية، العدد ١٦٦، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٩م.

٨- الحريات العامة والحقوق السياسية فى القرآن والسنة، دار القلم للنشر والتوزيع القاهرة، ٣٦ ش القصر العينى، ص. ب : ٦٥ مجلس الشعب عام ١٤٣٢ هـ= ٢٠١١م.

٩- شرعية الأحزاب السياسية فى القرآن والسنة، دار القلم للنشر والتوزيع، عام ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م.

١٠- الطريق إلى غار حراء، رواية تقص حياة النبى قبل نزول الوحى عليه، تطلب من المكتبات الكبرى بالقاهرة، صدر عام ٢٠١٢ ميلادية.

١١- عندما عانقت الأرض السماء، رواية تقص مشهد الوحى، دار النشر للجامعات المصرية، والوادى للثقافة والإعلام، القاهرة، ٢٠١٤م.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

* * *



هذا الكتاب

أول دراسة "حقيقية" في تاريخ الفكر العربي منذ نزول القرآن الكريم حتى يوم الناس هذا تجتهد في استنباط رؤية "نظرية" إسلامية أصيلة في ميدان فلسفة الجمال والفن، تستمد روحها وملامحها من فهم متعمق لآيات الذكر الحكيم.

ونظرة جديدة لبلاغة القرآن الكريم على ضوء هذه الرؤية، تستكشف معالم الجمال في هذا "النص المعجزة"؛ لتحقيق ألوهيته، والبرهنة بأدلة موضوعية ذوقية على أنه التجلي الأعظم للذات الإلهية في هذه الحياة الدنيا.

ولعل القارئ النهم يتمكن مع هذا الكتاب من الصعود والاستمتاع بالسياحة في الفضاء الواسع للنص القرآني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يخلق على كثرة الرد، وينهل من كنوز العلم والجمال المودعة في حروفه وألفاظه وآياته.